قصة العلوم الطبية

فى

الحضارة الإسلامية

تأليف

د. راغب السرجاني



الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

السرجاني، راغب.
قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
تأليف راغب السرجاني . ط١ - القاهرة
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٨ (٣٢٠ ص)، ٢٤ سم
تدمك: ٥- ٦١٥ - ٤٤١ - ٩٧٧
١ - الإسلام والطب ٢ - الحضارة الإسلامية
أ - العنوان ٢١٤,٦١

رقم الإيداع: ٢٤٩٠/ ٢٠٠٩

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقــرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣
Email:iqraakotob@yahoo.com

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد.. فقد بلغت الحضارة الإسلامية بعظمتها ورقيها وشموخها مشارق الأرض ومغاربها؛ فاستظلَّ الناس بظلِّها قرونًا عدَّة آمنين مطمئنين، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الكون كله بما فيه من إنسان وحيوان ونبات شعر في ربوع الحضارة الإسلامية بأهمية وجوده؛ لأن المسلمين مؤمنون بأن الله ﷻ لم يخلق شيئًا في الكون عبثًا أو سدى، فانطلقوا وهم مؤمنون بهذه الحقيقة الربانية يتفكَّرون في كتاب الله المنظور، فيبتكرون أحدث الوسائل للحفاظ على البشرية كلها نقية نظيفة خالية من الأمراض.

ولم تكن إنجازات الحضارة الإسلامية مقصورة فقط على أبناء ديانة معيَّنة أو جنس بعينه، بل شملت كل من عاش في كنفها مسلمًا كان أو غير مسلم، عربيًّا كان أو غير عربي؛ ممَّا يُعطي انطباعًا بأنها حضارة إنسانية جامعة، وقد سقنا العديد من الأمثلة الدالَّة على ذلك في كتابنا هذا.

ولعلَّ من أبرز إنجازات المسلمين الحضارية كانت الحضارة العلمية؛ حيث حفظت للعالَم تراث البشرية في هذا المجال، عندما قام رُوَّاد الحضارة الإسلامية بترجمة ما وصل إليهم من كتب اليونانيين والفارسيين والهنود والصينيين، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل نقدوا وصوَّبُوا، ثم ابتكروا وأبدعوا في مجالات العلوم والفنون والآداب؛ ليَسْطُروا بعد ذلك في مسيرة الإنسانية تاريخًا ناصعًا مشرِّفًا، وحلقة مهمَّة من حلقاتها، لا يمكن تجاهلها.

وبفضل هذا التفوُّق والإبداع غدت جامعات العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه مطلبًا لملوك أوربا، والأمراء يَفِدُون إليها رغبة في العلم تارة، وفي العلاج تارة أخرى، وهو ما دعا المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون[1] ليتمنى لو أن المسلمين استولوا على فرنسا؛ لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانيا المسلمة[2]! وقال تعبيرًا عن عظمة الحضارة العلميَّة في الإسلام: «إن أوربا مَدِينَةٌ للعرب (المسلمين) بحضارتها»[3].

بل وشهد بذلك الباحث اليهودي فرانز روزنتال[4]، فقال مُعَبِّرًا عن إعجابه بعظمة الحضارة الإسلامية: «إن تَرَعْرُع هذه الحضارة هو موضوع مثير، ومن أكثر الموضوعات استحقاقًا للتأمل والدراسة في التاريخ؛ ذلك أن السرعة المذهلة التي تمَّ بها تَشَكُّل وتكوُّن هذه الحضارة أمر يستحقُّ التأمُّل العميق، وهي ظاهرة عجيبة جدًّا في تاريخ نشوء وتطوُّر الحضارة، وهي تثير دومًا وأبدًا أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين، ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة؛ لأنها تأسَّست وتشكَّلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جدًّا ووقت قصير جدًّا؛ بحيث يمكن القول: إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قبل أن تبدأ»[5].

ولعلَّ أبرز إسهامات المسلمين في المجال العلمي كان في العلوم الطبية، الذي نُقَدِّم قسطًا يسيرًا منه في كتابنا هذا: (**قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية**)، تلك العلوم التي تتَّصل بصحة الإنسان، وما يتَّصل بها من علم الحيوان، وعلم النبات، وعلم الصيدلة، والطفيليات، والوراثة؛ حيث تكاملت هذه العلوم مع علم الطب في تحقيق بيئة صالحة للحياة الإنسانية، والحيوانية، والنباتية الآمنة.

---

(١) و سـ تاف لو بونن Gustav Lobone (١٨٤١- ١٩٣١م): مستشرق فرنسي، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع، من أشهر كتبه: حضارة العرب، الذي يعدّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٣، ٣١٧.

(٣) السابق ص ٥٦٦.

(٤) فرانز روزنتال franz Rosenthal (١٩١٤-٢٠٠٣م): فيلسوف هولندي.

(٥) مجلة حراء (مجلة علمية ثقافية فصلية) العدد: ٩ (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٧م.

ولم نغفل عن ذكر بعض رُوَّاد العلوم الطبية الأفذاذ، الذين قَدَّمُوا للبشرية من الابتكارات والإبداعات ما لا يُقَدَّر بثمن، حتى إنها ما زالت مَدِينَةً لهم بالفضل حتى يومنا هذا، وقد امتاز هؤلاء العلماء بتواضع جمٍّ، وإنكار للذات كبير، وأمانة علمية عالية؛ فلم ينسبوا إلى أنفسهم ما تَعَلَّمُوه من الطب اليوناني أو غيره، وظلُّوا على ذلك جيلاً بعد جيل.

كما قَدَّمْنَا بعض شهادات الغربيين حول دور الحضارة الإسلامية، خاصَّة في مجال العلوم الطبية؛ لتكون نبراسًا لكل من يريد أن يَتَبَيَّن دور المسلمين في المسيرة الإنسانية.

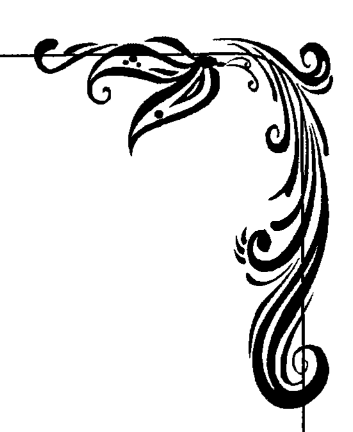
وفي ختام مقدمتي هذه أسأل الله ﷻ أن يُعِيد للمسلمين مجدهم وعزَّهم، وأن يبذلوا الغالي والرخيص ليعودوا إلى مكانتهم بين الأمم بعلمهم وأخلاقهم، التي قلَّ الزمان أن يأتي بمثلها.. والله ولي ذلك والقادر عليه.

ونسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

الدكتور

راغب السرجاني





البـــاب الأول

علم الطب في الحضارة الإسلامية





يُعَدُّ الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار، حتى ليُخيَّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين!!

ولم يقتصر إبداع المسلمين في العلوم الطبية على علاج الأمراض فحسب، بل تعدَّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على جميع جوانب الممارسة الطبيَّة وقايةً وعلاجًا، أو مرافق وأدوات، أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وتتجلى روعة الإسهامات الإسلامية في الطب في تخريج حشدٍ عظيم من العبقريات الطبية النادرة، التي كان لها -بعد الله- الفضل الكبير في تحويل مسار الطب اتجاهًا آخر، تابعت المسير على نهجه أجيالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا.

وفي هذا الباب نتناول هذه الحقيقة، وذلك من خلال الفصول التالية:

- **الفصل الأول: الطب قبل الإسلام**
- **الفصل الثاني: المسلمون وتطور علم الطب**
- **الفصل الثالث: أهم إسهامات المسلمين الطبية**
- **الفصل الرابع: المستشفيات في الحضارة الإسلامية**
- **الفصل الخامس: البعد الإنساني في الطب عند المسلمين**
- **الفصل السادس: الطب الوقائي في الإسلام**
- **الفصل السابع: شهادات غير المسلمين على عظمة الحضارة الطبية**

الفصل الأول

الطب قبل الإسلام

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأن العلاج والطب ارتبطا عند الإنسان بوجود الألم، فإذا ما عرف الإنسان الألم، فإنه لا شك بدأ في البحث عن إزالة هذا الألم، وذلك عن طريق معالجته وتطبيبه. ومن ثَمَّ فالطب قديم قِدم الإنسان ذاته، وتتلخص بدايات صنعة الطب في أن الإنسان منذ وُجد على ظهر الأرض وهو يهتدي -بإلهام ربه- إلى أنواع من التطبيب تتفق مع مستواه العقلي وتطوره الإنساني، وكان ذلك النوع من الطب يُعرف بالطب البدائي، انسجامًا مع المستوى الحضاري للإنسان؛ ولذلك نجد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) يذكر أن: «... للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر على تجرِبة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحي، وربما صح منه شيء، ولكنه ليس على قانون طبيعي»[1].

ويمكن هنا أن نتناول نبذة عن وضع وتاريخ الطب قبل الإسلام من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: الطب عند قدماء المصريين**
- **المبحث الثاني: الطب عند البابليين**
- **المبحث الثالث: الطب عند الصينيين**
- **المبحث الرابع: الطب عند الهنود**
- **المبحث الخامس: الطب عند اليونانيين**
- **المبحث السادس: الطب عند الرومان**
- **المبحث السابع: الطب عند العرب قبل الإسلام**

(١) ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر ١/ ٦٥٠.

المبحث الأول
الطب عند قدماء المصريين

يُعَدُّ المصريون القدماء من أقدم الشعوب التي مارست الطب ووصلت فيه إلى مستوى رفيع؛ فالتشخيص وحصْر الأمراض والتحنيط والتشريح والجراحة من الأشياء التي بلغوا فيها براعتهم، وها هي ذي هياكلهم والمومياوات العجيبة العديدة، تحمل آثار عمليات في مختلف أجزاء الجسم، وما تزال كثير من متاحف العالم تحفظ بين كنوزها الكثير من البرديات التي تكشف لنا من ألوان الطب التي مارسوها والأمراض التي خبروها، وجعلوا من (أمنحوتب) إلهًا للطب[1].

وقد أشاد هوميروس في الأوديسا بمهارة الأطباء المصريين، وقال هيرودوت غير مرة إنهم كانوا يعالجون أنواعًا شتى من الأمراض، يختص كل منهم بمرض يبرع في علاجه، وروى أن الملك الفارسي أرسل إلى مصر في طلب طبيب للعيون، وأن حفيده (دارا) كان عظيم الإعجاب بهم، وكان الإغريق يعرفون اسم (أمنحوتب) رب الحكمة في مصر القديمة، ونقلوا عن الطب المصري كثيرًا من العقاقير، كما نقلوا آلات الجراحة بغير تبديل[2].

على أن الطب المصري القديم قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالمعابد، فكان هناك عدة آلهة لشفاء الأمراض، وكان نصير الأطباء هو الإله (توت)، وكانت الإلهة (إيزيس) يُتضرع إليها لشفاء الأمراض المستعصية، وقد امتدت عبادة إيزيس أيام الإمبراطورية الرومانية، وشملت العالم الغربي كله، وكانت تمثَّل بشكل سيِّدة

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٧٠.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٨.

جالسة، وأحيانًا وهي تحمل ابنها حورس على ذراعيها[1].

وقد كان للكهنة -من ثَمَّ- دورٌ لا يُنكر في ممارسة مهنة الطب، فكانوا هم الذين يقومون بتطبيب المرضى، ويتقاضون رواتب على ذلك من دخل المعابد، وكان قدماء المصريين يعتقدون أن المرض هو نتيجة روح شريرة سكنت جسم الإنسان، وكان فنُّ المعالجة يقتضي معرفة حقيقة هذه الروح الشريرة، والاستعانة على طردها بالتعاويذ والتمائم، وأحيانًا بالسحر، وكانت الأدوية والمستحضرات الطبية المستخلصة من الأعشاب والحيوان تستعمل كعوامل مساعدة لطرد هذه الأرواح[2].

ويمكن القول بأن الكهنة كانوا هم أول من مارس مهنة الطب في الحضارة المصرية القديمة، ثم بعد ذلك نشأت فئة الأطباء من غير رجال الدين، ثم انقسمت هذه الفئة إلى درجتين: إحداهما وسيلتها السحر والشعوذة، والأخرى كانت تعتمد في علاجها على العقاقير والجراحة، وظهر فيها الأخصائيون[3].

وإجمالاً فقد تواتر عن قدماء المصريين أنهم كانوا على علم وبصيرة في فن التحنيط، وكان لهم باعٌ في تشخيص المريض وعلاجه، وعرفوا أيضًا الطرق الجيدة لمنع الحمل والذبحة الصدرية وأمراض المعدة والإسهال وانحباس البول، كما عالجوا الكسور والأسنان[4].

هذا وقد دوَّن قدماء المصريين معارفهم ومعلوماتهم الطبية على أوراق البردي، ومنها: **بردية كون** التي تكاد تكون خاصة بالأمراض النسائية، و**بردية سميث** التي

---

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٨.

(٢) على عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص١٦.

(٣) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٨.

(٤) على عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص١٦.

تختص بالأمراض الجراحية، وبردية إبيرس التي أكثر موضوعاتها في الطب الباطني والعقاقير الطبية، وتشريح جسم الإنسان، والتعرف على وظيفة القلب. كما يلاحظ أن محتويات هذه البرديات الثلاث قد صنفت حسب الاختصاصات الثلاثة: الباطنية والجراحية والنسائية، وهذا التقسيم نفسه هو المعمول به في هذه الأيام[1].

وتلخيصًا، فإن المصريين القدماء وإن كانوا قد مارسوا الطب والتطبُّب على أسس علمية ومنهجية أحيانًا، وتقدموا في ذلك بعض الشيء، إلا أن ذلك العلم قد تخلله بعض الطلاسم والتعاويذ والسحر، ولعب فيه الكهنة دورًا كبيرًا.

* * *

(١) على عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص١٧.

المبحث الثاني
الطب عند البابليين

مثل المصريين القدماء فقد كان الطب القديم عند البابليين يشوبه شيء من الكهانة والسحر؛ لأن المرض عندهم كان يعتبر عقابًا إلهيًّا على ذنوبٍ ارتكبها المريض. ولذلك لم يكن أحد ليحاسب الكاهن أو الساحر على أي خطأ قد يرتكبه في علاج مرضاه، بينما يُعاقب الطبيب الجرّاح الذي يخطئ في علاجه وجراحاته؛ لأنه يعمل بيديه لا بقوة كهنوتية أو سحرية كما يفعل السحرة والكهنة! فشريعة حمورابي تنص على أن الجراح إذا ما استعمل مشرطه وأخطأ في استعماله تُقطع يده، وإذا تقاضى أكثر مما يستحق يعاقب بالحبس. ولقد نظمت شريعة حمورابي أسعار الخدمات الطبية وأجور الأطباء، وفرضت أيضًا عقوبة على الحاضنات والمراضع اللاتي يهملن العناية بالرُّضَّع[1]!

وكان في وادي الرافدين ثلاثة مذاهب للمعالجة[2]:

١- المعالجة بالنصح (الطب الوقائي).

٢- المعالجة بتشخيص المرض ووصف الأدوية النباتية والحيوانية والمعدنية (الطب المزاجي الطبيعي).

٣- المعالجة بالسحر والطلاسم (الطب النفسي).

هذا وقد نفر الأطباء من تناول المسكرات وعالجوا بالمس، وعرفوا الجراحة، واستخدموا الحشيش والأفيون للتخدير عند إجراء العمليات. وكان أهل المريض

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص٢٤.

(٢) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص٤٨.

إذا عجز الأطباء عن مداواة مريضهم يضعونه في الأماكن العامَّة رجاء أن يمر به من كان قد أصيب بمثل ما به، فيصف له العلاج الذي كان قد شفاه[1].

وإجمالاً فإن الطابع الغالب على الطب عند البابليين هو الكهنوت والسحر، حيث كان يُعتقد أن الأمراض الشديدة تأتي نتيجة غضب الآلهة، أو نتيجة السحر وتأثيره.

***

(١) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٠، وعامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص٢٥.

المبحث الثالث
الطب عند الصينيين

يرجع تاريخ الطب في الصين إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ويعد (واي بويانج) من مشاهير الأطباء الصينيين، وكان (شان نوتج) المشهور باسم الإمبراطور (فيويو) أول باحث عن خواص النباتات، حيث كان يختبر تأثيرها على نفسه. أما جُلّ اعتماد الطب الصيني فكان على الأدوية النباتية والكي والوخز بالإبر الذي جعلهم يعتنون بدراسة التشريح(١).

كما قدم الصينيون أعمالاً كثيرة في مجال الطب الباطني، وعرف أطباء الصين بعض الآلات الجراحية البسيطة. ويذكر أحمد شوكت الطشي في كتابه (تاريخ الطب وآدابه وأعلامه) أن الطب الصيني هو ما يُعرف اليوم بالكي النقطي **ignipuncture**، وأساسه غرز إبر محمية في الجلد؛ لذا يلزم محترف مهنة الكي النقطي أن يفهمها ويتعلم أسماءها، ويدري تمامًا مواضعها؛ إذ لكل منها في اعتقادهم علاقة بجزء من أجزاء الجسم الباطنة(٢).

يقال أيضًا إن الصينيين عرفوا النبض وما يحصل له من تغيرات بسبب المرض، كما أنهم كانوا يعتقدون أن من أسباب الأمراض وجود الحر والبرد والجفاف والرطوبة؛ لذا قدروا أن أمراض الصدر والرئتين تأتي دائمًا في فصل الشتاء، بينما الحميات تحصل في الخريف، والصداع والأمراض النفسية تكون في فصل الربيع، أما الأمراض الجلدية فتظهر في فصل الصيف(٣).

---

(١) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٥، ٢٦.

(٢) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٣.

(٣) انظر المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ويمكن القول بأن الطب الصيني امتاز عمّا كان لدى الأمم السابقة، وذلك بالاعتماد على بعض المعارف التي كانت خالية من الخزعبلات، والتركيز على استخدام الوخز بالإبر في علاج معظم المرضى.

* * *

المبحث الرابع
الطب عند الهنود

كان الطب عند الهنود قديمًا ممزوجًا بالخرافات والأساطير، ولكنهم تميزوا عن غيرهم من الأمم بفن التشريح، ومن هنا اشتهروا بالجراحة بأنواعها المختلفة، وقد كانوا يعتقدون أن العلل جميعها تولد مع الإنسان، وتظهر إما عن الذنب أو عن فساد الأخلاط.

وهناك بعض الإشارات التي تفيد أنَّ الهنود استعملوا التلقيح ضد الجدري، كما مارسوا عمليات التجميل، وترقيع الجلد والتوليد عن طريق البطن (العملية القيصرية)، ورتق الفتوق، واستخراج الحصى من الإحليل والمثانة، وقدح العين، وبتر الأعضاء، وتحضير السموم ومضاداتها. واستخدموا لتوقيف نزيف الدم في العمليات الجراحية الضغط والدهون الحارة، واستعملوا الكي لنفس الغرض، وكان لديهم من الأدوات الجراحية ما يزيد على المائة آلة. ومع كل ما تقدم من معارف الهنود في ميدان الطب البشري، فلم تكن ممارستهم بأي حال خالية دائمًا من لمسات خيالية وشعوذة[1].

هذا وإن مدوَّنات الطب الهندي تبدأ بكتاب «أترافا- فيدا»، ففي هذا الكتاب تجد قائمة بأمراض مقرونة بأعراضها، لكنك تجدها محاطة بكثير جدًّا من السحر والتعزيم؛ فقد نشأ الطب ذيلاً للسحر؛ فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل جثمانية لشفاء المريض، على أساس أن هذه تساعد على نجاح ما يكتبه له من صيغ روحانية، ثم أخذ -على مرِّ الزمن- يزيد من اعتماده على الوسائل الدنيوية،

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٦.

ماضيًا إلى جوار ذلك في تعاويذه السحرية؛ لتكون هذه مُعينة لتلك من الوجهة النفسية، كما نفعل اليوم بتشجيعنا للمريض.

وفي ذيل كتاب «أترافا- فيدا» ملحق يسمى «أجو- فيدا» (ومعناها: علم إطالة العمر)؛ ويذهب هذا الطب الهندي القديم إلى أن المرض يسببه اضطراب في واحد من العناصر الأربعة: (الهواء والماء والبلغم والدم)، وطرائق العلاج هي الأعشاب والتمائم السحرية.

ولا يزال كثير من طرائق الطب القديم في وصف الأمراض وعلاجها مأخوذًا به في الهند اليوم، وتجد في كتاب «رجْ- فيدا» نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب، وهو يحبِّذ الماء على أنه خير علاج لمعظم الأمراض[1].

وأعظم اسمين في الطب الهندي هما «سوشروتا» في القرن الخامس قبل الميلاد و«شاراكا» في القرن الثاني بعد الميلاد؛ فقد كتب سوشروتا -وكان أستاذًا للطب في جامعة بنارس- باللغة السنسكريتية مجموعة من أوصاف الأمراض وطرائق علاجها، وكان قد ورث العلم بها من معلمه «ذانوانتاري»؛ فبحث في كتابه بإطناب في الجراحة، والتوليد، والطعام الصحي، والاستحمام، والعقاقير، وتغذية الرُّضَّع والعناية بهم والتربية الطبية.

وأما «شاراكا» فقد أنشأ «سامهيتا» (ومعناها موسوعة) تشمل علم الطب، وهي لا تزال مأخوذًا بها في الهند؛ وبثّ في أتباعه فكرة عن مهنتهم كادت تقترب من فكرة أبقراط: «لا ينبغي أن تعالجوا مرضاكم ابتغاءَ منفعةٍ لأنفسكم، ولا إشباعًا لشهوة ما من شهوات الكسب الدنيوية، بل عالجوهم من أجل غاية واحدة هي التخفيف عن الإنسانية المعذَّبة»[2].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وإجمالاً فإن الطب الهندي قد احتوى أيضًا على بعض الخزعبلات، ولكنها أقل بكثير مما كان في كل من الطب المصري القديم والطب البابلي. كما قاموا بعمليات جراحية جريئة تدل على مستوى الطب الذي وصلوا إليه في طبهم؛ لذا قام العرب والمسلمون بترجمة إنتاجهم في هذا الميدان منذ زمن أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ)[1].

❋ ❋ ❋

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٧.

المبحث الخامس

الطب عند اليونانيين

لا شك أن اليونانيين أخذوا الكثير من معارفهم الطبية عن كل من قدماء المصريين والبابليين؛ حيث اهتم أطباء اليونان بنتاج الأمم السابقة عليهم والمجاورة لهم، فدرسوا أعمالهم في مجال الطب عن كثب، وزادوا على طب هذه الحضارات الكثير؛ لأن العقلية اليونانية تميزت بأنها عقلية منطقية نشطة، لذا صار لهم شأن عظيم في ميدان علم الطب. ويكفي الحضارة اليونانية فخرًا أنها أنجبت أبقراط (٤٦٠ - ٣٥٧ ق.م على الأرجح) الذي يعتبر من عمالقة الطب الذين أنجبتهم الإنسانية[١].

وقد انتهج أهل اليونان طريقين: طريق يعالج المرضى بالكهانة والسحر، وكان سدنة هذا التطبيب يتوارثون هذه المهنة، ويضنون بها على عامة الناس، وينسبون الأمراض إلى أعمال الشياطين، والعلاج إلى أعمال الآلهة. وطريق آخر اشتغل بالطب على أنه فرع من الطب الطبيعي، واهتموا بالتشخيص الوصفي، وكان ذلك هو اتجاه الفلاسفة، ولم يستقل أحد من هؤلاء وأولئك بالبحث فيه، حتى كان أبقراط الذي يعتبر أول من بوَّب الطب ورتبه وبناه على أسس صحيحة؛ ولذلك سموه (أبو الطب)[٢].

ويذكر الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي)، أن الطب اليوناني وصل إلى درجة تدعو حقًّا إلى الدهشة، فهم الذين رفعوا ذلك العلم إلى مستوى جيد وملحوظ، يختلف تمامًا عن طب الأمم السابقة لهم، بَيْدَ أنَّ الطب اليوناني لم يقف -في خطوات نموه- عند المبادئ العامة للتشخيص والتنبؤ

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٧.

(٢) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٧٠.

بالأعراض، والآراء الموجهة في الجراحة، بل لقد عظمت ثروته بالابتكارات العلمية الخاصة؛ كالابتكارات في التشريح، وعلم وظائف الأعضاء التي هي أساس التفكير الطبي الصحيح[1].

كما يذكر محمد زهير البابا في كتابه (تشريع وآداب الصيدلة) أن أطباء اليونان - وعلى رأسهم أبقراط- يعرِّفون الطب بأنه قياس وتجرِبة، وكان أبقراط يعتبر أسباب المرض إما بعيدة أو قريبة؛ فالأسباب البعيدة للمرض إما أن تكون ناتجة عن عوامل الجو أو الأطعمة المتناولة من قبل المريض، أما العوامل القريبة فتحدث من فساد أو سيطرة واحد من الأخلاط الأربعة التي يتكون منها الجسم (الدم والصفراء والبلغم والسوداء)، لذا كانوا ينادون بضرورة معالجة الأمراض بالوسائط التي تؤدي لإنضاج الأخلاط وإخراجها من الجسم[2].

ويعتقد بعض المؤرخين أن الطب يوناني النشأة، والدليل على ذلك تبنيهم شعار أستليبيوس الطبي (العصا والثعبان كرمز للطب)، أما المؤرخون المنصفون فيؤكدون أن الطب عند قدماء المصريين كان أرقى من الطب عند اليونان؛ لأن اليونان نعتوا مصر بأنها نبع الحكمة، واعترفوا لها بالسبق والفضل الفكري عليهم، وهذا واضح؛ لأن جزيرة كريت التي تطل عليها كل من قارة أوربا وآسيا وإفريقيا، كانت أول موطن للحضارة اليونانية.

ويتضح للقارئ أن الطب اليوناني بقي أمدًا طويلاً خاضعًا للخزعبلات والتجارب الخشنة التي لم تكن مبنيَّة على أية قواعد علمية، على الرغم من أن هذه القواعد كانت معروفة عند الأقوام المجاورين لليونانيين، وبقي الطب محتكرًا بيد شرذمة من الأنانيين، يتوارثونه جيلاً بعد جيل، وكأنه ملك لهم، وصدقهم الناس

---

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٨.
(٢)المصدر السابق، ص٢٩.

وأنزلوهم منزلة الأبطال؛ لذا ظل الطب سجين المعابد يديره الكهنة حتى بدأ بتحريره أبقراط، ومن هنا بدأت الانطلاقة للبحوث الطبية المبنية على أسس علمية[1].

والجدير بالذكر أن المسلمين قاموا بترجمة إنتاج أبقراط الطبي العلمي ومن عمل على وتيرته من الأطباء اليونانيين، فطوّروا في منهج أبقراط، وجعلوا علم الطب علمًا مُشَاعًا بين جميع أفراد الشعب، حتى وصل هذا العلم الحيوي إلى مستوى عالٍ.

❊ ❊ ❊

(١) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٧-٢٨، وعلي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٣٠.

المبحث السادس
الطب عند الرومان

ورث الرومان ممتلكات الحكومة اليونانية بعد إزاحة حكم البطالسة سنة ٣٠٠ ق.م واستيلائهم على الإسكندرية، إلا أنهم لم يستطيعوا أن ينزعوا من اليونانيين الزعامة العلمية والطبية، فبقيت روما وتوابعها طيلة الستة القرون الأولى بعد حكم اليونانيين من غير طبيب يعمل بالقواعد العلمية في هذه الصنعة، فكانوا يعتمدون على التعاويذ والنصائح التقليدية التي تصل إليهم على لسان الأطباء الوافدين إلى البلاد[١].

وقد اشتهر الرومانيون باستعمال الحِمِيَّة والرياضة والحمامات الساخنة بدل العقاقير المختلفة إلا في الحالات التي لا بد فيها من إجراء العملية الجراحية، مثل الأورام السرطانية والبتر في حالة الغنغرينا وغيرها. كما نالوا سمعة جيدة في استخدام الموسيقى وبعض المهدئات والرياضة لعلاج الأمراض العقلية[٢].

ومن أشهر الأطباء في العصور الرومانية، والذين كانت لأعمالهم علاقة بالطب الإسلامي الطبيب جالينوس (١٣٠م - ٢٠٠م)، وهو يوناني عاش في العصر الروماني، ويجيء اسمه بعد أبقراط علمًا وشهرة، وقد جمع آثار أبقراط في الطب وحفظها من الضياع، وترجم المسلمون كتبه في عصر الترجمة، يقول عنه ابن خلدون: «إمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين جالينوس... وتآليفه هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده»[٣].

---

(١) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٣٥-٣٦، وعلي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥.

(٢) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٣٦.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٤٩٣.

ويقول ابن أبي أصيبعة: «إن الذي قد عُلم من حال جالينوس واشتهرت به المعرفة عند الخاص والعام في كثيرٍ من الأمم أنه كان خاتم الأطباء الكبار المعلمين، وهو الثامن منهم، وأنه ليس يدانيه أحد في صناعة الطب فضلاً عن أن يساويه؛ وذلك لأنه عندما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السوفسطائيين وانمحت محاسنها، فانتدب لذلك، وأبطل آراء أولئك، وأيّد وشيّد كلام أبقراط وآراءه وآراء التابعين له ونصر ذلك بحسب إمكانه، وصنف في ذلك كتبًا كثيرة كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة، وأفصح عن حقائقها ونصر القول الحق فيها، ولم يجئ بعده من الأطباء إلا من هو دون منزلته ومتعلم منه»[1].

* * *

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٣٠٧.

المبحث السابع
الطب عند العرب قبل الإسلام

كان التطبيب في الجاهلية ذا شُعبتين: شعبة تقوم في جوهرها على الكي بالنار، واستئصال الأطراف الفاسدة، والتداوي بشرب العسل، ومنقوع بعض الأعشاب النباتية، واللجوء إلى التمائم والتعاويذ على يد الكهّان والعرّافين، وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي عروة بن خزام عن رباح بن عجلة عَرَّاف اليمامة:

جعلت لعراف حكمه ... وعراف نجداني هما شفياني

فقالا: نعم نشفي من الداء كله ... وقاما مع العواد يبتدران

فما تركا من حكمة يعلمانها ... ولا سلوة إلا بها سقياني

وشعبة تتجه في علاجها إلى الحميَّة، وعلى إسداء النصيحة وليدة الخبرة، مثل قولهم: «المعدة بيت الداء، والحِميَّة رأس الدواء»، و«القديد مهلك لآكله»[1].

وقد استخدم العرب في الجاهلية الأدوية البسيطة والأشربة الطبيعية، مثل العسل الذي كان يعتبر أساس العلاج لأمراض البطن، وفي نواحٍ أخرى قاموا ببعض العمليات الجراحية الصغيرة، مثل الحجامة والكي والبتر والفصد والحمية، وتناول بعض الأعشاب الطبية التي تنبت في بلاد العرب؛ ولذا فإننا لا نجد عندهم غير معرفة قليلة بالطب التجريبي والعقاقير والمعالجات بالضمد واستخدام الأغذية وبعض الأدوية النباتية، ولم تكن لهم من المعرفة الطبية غير ما اختزنته ذاكرة الحكماء ودوّنه الشعراء في قصائدهم، بحيث يمكن القول بأن الطب العربي قبل الإسلام لم يكن غير طب شعبي ينتقل بالممارسة والتعليم شفاهًا من جيل إلى جيل، وقد

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٧٣، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٤٧، ٤٨.

أضافت إليه الأعوام خبرة بعد أخرى[1].

وإجمالاً فإن من أهم ما يلفت انتباهنا من جملة حال الطب قبل الإسلام من الناحية السلبية في العلاج والتطبُّب، كان الاعتماد على التجارب العلمية البسيطة، واستخدام العلاج بالسحر والطلاسم والدجل والشعوذة، ونسبة الأمراض إلى الشياطين، واستعمال التمائم والتعاويذ، وكذلك استئصال الأطراف الفاسدة، واستخدام المسكرات... وهو ما لم نرَ مثله على الإطلاق في حضارة الإسلام، وإنما كان هناك طبٌّ جديد ومنهجٌ مغاير!

* * *

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٦٠.

الفصل الثاني

المسلمون وعلم الطب



قبل مبعث الرسول ﷺ كانت ممارسة الطب في الجزيرة العربية أكثر شيوعًا بين العرَّافين وفئة الممارسين المجرِّبين؛ ففئة العرافين اعتمدت على التكهُّن بأسباب المرض وسره وعلاجه، والاستعانة بالنجوم والتعاويذ والرُّقَى والسِّحر، وكان لكل قبيلة عرَّاف يرجع إليه أفراد القبيلة فيما يصيبهم من أمراض وعلل وأحداث مختلفة، وكانوا ينزلونه منزلة الكاهن من حيث الاحترام والتقدير. أما فئة الممارسين المجرِّبين فقد اعتمدت الأساس المادي في التطبيب، فكانت تزاول العلاج بالكي والبتر والفصد والحجامة والحِمِيَّة والعقاقير والأعشاب الطبية[1].

وقد جاء الإسلام وقوَّم وعدَّل وطوَّر ما اعتمدت عليه هاتان الفئتان في ممارستهما للطب؛ فحرَّم السحر والكهانة والعرافة، وحذر الناس منها، واعتبر السحرة والعرافين والكهان من الكافرين، ونهى أيضًا عن استخدام المسكرات، وحثَّ على التداوي والتطبُّب، وأعلى من شأن الممارسة الطبية القائمة على التجربة والقياس.. وبهذا يكون الإسلام قد فتح الباب على مصراعيه للطب التجريبي القائم على القياس والتجربة العلمية، ونستطيع أن نتلمس ذلك من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: من هدي الإسلام في ممارسة الطب**
- **المبحث الثاني: المسلمون وتطور علم الطب**
- **المبحث الثالث: منهج إسلامي فريد لدراسة الطب**

---

(١) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٤٧، ٤٨.

المبحث الأول
من هدي الإسلام في ممارسة الطب

بادئ ذي بدء، فإن من المبادئ التي قامت عليها حضارة الإسلام، أنها جمعت بين حاجة الجسم وحاجة الروح، واعتبرت العناية بالجسم ومطالبه ضرورية لتحقيق سعادة الإنسان.

ومع أنه ليس من مهمات الأنبياء عليهم السلام أن يعلِّموا الناس الطب، ولا القيام بإيضاح العلوم الكونية؛ حيث إن ذلك متروك لجهود البشر وتجاربهم وأبحاثهم العلمية، إلا أنه قد وردت نصوص نبوية بيِّنة تفتح المجال أمام المسلمين ليتعلموا الطب، وليتمرَّسوا فيه، وتهيئ لهم الطريق ليصحِّحوا المسار ويستفيدوا من سابقيهم والنابغين في ذلك المجال.

فإذا كان الرسول ﷺ قد أوضح أن الأمور الكونية تستند إلى علوم لا تدخل في مهمة رسالته، فإنه ﷺ كان يشمل هذه الأمور بالتوجيه الخُلُقي الإنساني الرباني، حتى تستخدم لمنفعة الإنسان وصالح الإنسانية ضمن الإطار الأخلاقي، وقد قال ﷺ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[(١)].

ولعل من النصوص النبوية البارزة في التطبُّب وممارسة الطب التجريبي العلمي، ما رواه جابر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ ﷻ**»[(٢)].

وروى أسامة بن شريك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ**

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (١٤١).

(٢) مسلم: كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٦٩).

يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الْهَرَمُ»[1].

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»**[2].

وكان الرسول ﷺ يأمر بالعلاج والتداوي، وكان يأمر بالأمهر والأتقن في صنعة الطب، وقد روى الإمام مالك أن رجلاً من الصحابة أصيب بجرح، فدعا النبي ﷺ رجلين من بنى أنمار فنظروا إليه، فسألهما رسول الله ﷺ: **أَيُّكُمَا أَطَبُّ** (أي أمهر في الطب)؟ فقالا: أوَ في الطب خيرٌ يا رسول الله؟ فقال: **«أَنْزَلَ الدَّوَاءَ الَّذِي أَنْزَلَ الأَدْوَاءَ»**[3] يعني الله ﷻ.

ولذلك كان الحكم على من عالج مريضًا فأذاه، ولم يكن معروفًا عن هذا المعالِج أنه ماهرٌ بالطب متمرسٌ فيه، فإنه يتحمل المسئولية عن ذلك، بينما لا يقع ذلك الحكم على الطبيب الذي عُرف عنه الإتقان والمهارة في صنعته..

فروى عبد الله بن عمرو «أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ تَطَبَّبَ**[4] **وَلاَ يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ**[5]**»**[6].

---

(1) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، وابن حبان (٦٠٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٠).

(2) ابن حبان: كتاب الطب (٦٠٦٢)، وأحمد (٤٢٦٧)، والحاكم (٧٤٢٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٥٠).

(3) مالك: كتاب العين، باب تعالُج المريض (١٦٨٩)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (٧٣٩٥)، وابن أبي شيبة (٢٣٤٢٠).

(4) تطبب: تعاطى علم الطب وهو لا يعرفه معرفة جيدة.

(5) الضامن: الكفيل والملتزم.

(6) أبو داود: كتاب الديات، باب من تطبب بغير علم (٤٥٨٦)، والنسائي (٤٨٣٠)، وابن ماجه (٣٤٦٦)، والحاكم (٧٤٨٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (٦٣٥).

وقد أمر الرسول ﷺ أن يعالَج سعد بن معاذ[1] ﷺ عند الصحابية الجليلة رفيدة[2] [3]؛ لأنها ماهرة بالطب، مع أن البيئة في ذلك الوقت لم تكن بعدُ ألفت معالجة المرأة للرجال، ولكنَ لعلمها بالطب وإتقانها له كانت لها هذه المكانة السامية.

كما أمر الرسول ﷺ سعد بن أبي وقاص ﷺ أن يأتي الحارث بن كلدة[4]، الطبيب العربي المعروف -وهو من قبيلة ثقيف- ليعالَج عنده، مع أن هذا الطبيب لم يثبت إسلامه بعدُ.. ولكن لإتقانه لحرفته وصنعته ومهارته فيها، قَبِل رسول الله ﷺ أن يعالَج عنده المسلم[5]!!

هذا وقد عُرف عن رسول الله ﷺ التداوي بالعسل والتمر والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بـ«الطب النبوي».

***

(١) سعد بن معاذ بن عبد الأشهل، أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدي مصعب بن عمير، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورُمِيَ يوم الخندق بسهم فعاش شهرًا، ثم انتفض جرحه فمات منه، وكان موته بعد الخندق بشهر. انظر: ابن حجر: الإصابة الترجمة (٣٢٠٠)، ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٢٣٩.

(٢) رفيدة: امرأة من أسلم، كان رسول الله ﷺ حين أصاب سعد بن معاذ السهمُ بالخندق؛ قال لقومه: اجعلوه في خيمةِ رُفيدة حتى أعوده من قريب، فكانت تداوي الجرحى، وتخدم من كانت به ضيعة من المسلمين. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١١٤، ابن حجر: الإصابة الترجمة (١١١٦٩).

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٠٠، ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ١٠٣، ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٩٨.

(٤) الحارث بن كلدة: ثقفي من أهل الطائف، طبيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين، رحل إلى فارس وأخذ الطب هناك، ولد في الجاهلية وعاش في أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كان شاعرًا، توفي في أيام معاوية.

(٥) أبو داود: كتاب الطب، باب في التداوي بالعجوة (٣٨٧٥).

المبحث الثاني

المسلمون وتطور علم الطب

لم يقف المسلمون عند حدود ذلك الطب النبوي مع إيمانهم بنفعه وبركته، بل أدركوا منذ وقت مبكر أن العلوم الدنيوية -والطب أحدها- تحتاج إلى دوام البحث والنظر، والوقوف على ما عند الأمم الأخرى منها؛ وذلك تطبيقًا لهدي الإسلام الدافع دومًا للاستزادة من كل ما هو نافع، والبحث عن الحكمة أنَّى وُجدت.

وعليه فقد أخذ أطباء المسلمين في التعرف على الطب اليوناني من خلال البلاد الإسلامية المفتوحة، كما أن الخلفاء بدءوا يستقدمون الأطباء الروم، الذين سرعان ما أخذ عنهم الأطباء المسلمون، ونشطوا في ترجمة كل ما وقع تحت أيديهم من مؤلفات طبية، ولعل هذا يعتبر من أعظم أحداث العصر الأموي.

فإنه ما إن استقرت الخلافة الأموية وازدهرت سياسيًّا واقتصاديًّا، وورثت علوم الأعاجم من الفرس والروم وغيرهم بعد انهيار دولهم، حتى كان الاتجاه إلى الحركة الفكرية؛ فتُرجمت كثير من كتب الحضارات السابقة من إغريقية وفارسية وغيرها، ونُقلت ذخائرها في العلوم إلى العربية؛ لتعتبر حدثًا مهمًّا من الناحية الحضارية؛ لأنها فتحت نافذةً أَشْرَفَ منها العلماء العرب والمسلمون لأول مرة على ما لدى غيرهم من معارف وعلوم.

وقد نالت العلوم التجريبية نصيبًا مهمًّا من بين هذه العلوم المترجمة، وكان على رأسها جميعًا الطب؛ فقد كان الطب الإسلامي في أول هذه الفترة معتمدًا على إرشادات الرسول ﷺ، وعلى الأعشاب والنباتات الطبية، والكيِّ، والفصد، والحجامة، والختانة، وبعض العمليات الجراحية البسيطة. ولما بدأ الأطباء المسلمون

والعـرب يتعرفـون عـلى الطـب اليونـاني عـبر مدرسـة الإسـكندرية ومدرسـة جُنْدَيْسَابور[١]، كان اتجاههم إلى ترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية[٢].

وفي هذا فقد ترجم ماسرجويه -الطبيب اليهودي الذي يُعدُّ من أبرز المترجمين في ذلك العصر- للخليفة مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥هـ) موسوعة طبية يونانية تسمى «**الكُنَّاش**»[٣].

وما إن جاء العصر العباسي حتى كان لأطباء المسلمين معارف طبية خاصة بهم؛ وما ذلك إلا لأنهم لم يقنعوا بما حصلوا عليه من الحضارات السابقة لهم خلال الترجمة الدقيقة. والحقيقة أنه لولا أطباء العرب والمسلمين الذين بذلوا جهودًا عظيمة في ترجمة كنوز الحضارات السابقة لهم من يونانية وفارسية وهندية، لصارت هذه الكنوز طعمًا سائغًا للحشرات وأنواع الهوامّ والنيران؛ لأن معظم هذه الكنوز كانت حبيسة الكهوف والمغارات وزوايا النسيان في بعض المخازن[٤].

وفي هذا العصر أجاد المسلمون في كل فن من علوم الطب، وصححوا ما كان من أخطاء من علماء سابقين تجاه نظريات بعينها، ومن ذلك -كما سنرى في موضعه بإذن الله- ما كان من ابن النفيس حين عارض نظرية جالينوس الذي كان يقول بوجود ثقب بين بطيني القلب الأيمن والأيسر، فصحح ابن النفيس هذا الخطأ، ومنه ابتكر الدورة الدموية الصغرى.

وقد ازدهر علم الطب على ذلك أيّما ازدهار، وبُنيت المستشفيات والجامعات الطبية، واشتهرت أسماء لامعة في الطب في حضارة المسلمين -على نحو ما سنرى في

(١) مدينة في خوزستان، كان سابور الأول قد اتخذها لأسرى الروم.

(٢) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٦٨.

(٣) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ١٦٣، القفطي: تاريخ الحكماء ص٨٠.

(٤) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب ص٧٥.

الباب الثالث بإذن الله- عزَّ على الزمان أن يجود بمثلهم.

ويمكن أن نقول إجمالاً:

إن الطب في الإسلام قد نحا منحًى جديدًا، واتخذ منهجًا مغايرًا لما كان عليه قبل ذلك؛ حيث كان القضاء على الخزعبلات، وكان المنهج العلمي التجريبي في دراسة وممارسة علم الطب، وبيان ذلك كما في الآتي.

* * *

المبحث الثالث

منهج إسلامي فريد لدراسة الطب

لم تأتِ إنجازات وإسهامات المسلمين المعروفة في مجالات الطب بصورة عشوائية غير مدروسة، وإنما كان هناك منهج واضح قاد إلى هذا المستوى الراقي في البحث، وقاد إلى نتائج متميزة في هذا العلم المهم. ولهذا المنهج الحضاري الراقي خصائص كثيرة، سنتعرف الآن على ثلاثة منها قادت إلى هذا التميُّز الملموس:

الخاصية الأولى: الانفتاح على الغير:

كانت الحضارة الإسلامية منفتحة تمام الانفتاح في أمور العلوم الحياتية على غيرها من الحضارات، ولم يكن هناك أي حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غير المسلمين، أو أن يعطي علماء المسلمين سواهم من غير المسلمين.

فكان العلماء المسلمون ينظرون إلى العلوم الحياتية كميراث إنساني عامّ تستفيد فيه كل أمة من تجارب الأمم الأخرى، ولم يكن الطب بمنأًى عن هذه النظرة، بل كان من أهم العلوم التي اعتنى المسلمون فيها بالجمع والتطوير والابتكار؛ لأنه من أهم العلوم الإنسانية، بل إن كثيرًا من علماء المسلمين يعدُّون الطب هو أشرف العلوم الإنسانية بعد العلوم الشرعية؛ وذلك لحاجة الناس إليه، ولكونه يحفظ الروح والعقل والجسد.. ومن ثَمَّ يحفظ الإنسان لأداء مهامه الشرعية والحياتية في الدنيا.

ولذلك نجد أن الطب من أوائل العلوم التي اهتم علماء المسلمين بالبحث فيها، عن طريق ترجمة أعمال السابقين من الأطباء من الحضارات المختلفة، وكانت أولى هذه المحاولات على يد خالد بن يزيد الأموي (ت ٨٥هـ) الذي اهتم بالطب والكيمياء، وبدأ يترجم الكتب اليونانية، وخاصةً ما كان موجودًا منها في مكتبة

الإسكندرية بمصر[1].

وفي عهد الخلافة العباسية تزايدت حركة الترجمة بشكل ملحوظ، وخاصة في عهد هارون الرشيد، ثم ابنه المأمون من بعده، وانفتح أطباء المسلمين انفتاحًا غير مسبوق على كل العلوم الطبية من مختلف الحضارات؛ فترجمت المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية والرومانية والسريانية في الطب، واطّلع المسلمون على كمٍّ هائل من التجارب، وبخاصة التجارب اليونانية القديمة[2].

ومن المهم هنا أن نلفت الأنظار إلى ثلاث نقاط مهمَّة في هذه الخاصية (خاصية الانفتاح على الغير):

النقطة الأولى: أن الأطباء المسلمين كانوا من الأمانة والنزاهة بحيث إنهم -دائمًا- كانوا ينسبون الفضل لأهله، وما ادَّعى طبيبٌ مسلم اكتشافًا طبيًّا أو سبقًا علميًّا نقله من عالم من الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتب الأطباء المسلمين بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح.

ولك أن تستمع إلى كلام العلاَّمة الإسلامي الطبيب المشهور أبي بكر الرَّازي صاحب كتاب الحاوي (من أعظم الكتب في تاريخ الطب) وهو يقول: «... ولقد جمعت في كتابي هذا جملاً وعيونًا من صناعة الطب مما استخرجته من كتب (أبقراط) و(جالينوس) و(أرماسوس)، ومن دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومن بعدهم من المحدثين في أحكام الطب مثل (بولس) و(آهرون) و(حنين بن إسحاق) و(يحيى ابن ماسويه)... وغيرهم»[3].

هذه الأمانة العلمية المشرِّفة كانت بالفعل من أعظم مناقب علماء المسلمين،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٦٠.

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٢٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٧٠.

وبخاصة أن المعاصرين من أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم، وبالتالي فقد كان من السهل جدًّا أن تُسرق أبحاثهم، لولا البُعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين.

أما النقطة الثانية فهي: أن أطباء المسلمين لم يقفوا أبدًا عند حد النقل والترجمة، وإنما أخذوا تدريجيًا في تطوير ما نقلوه، ثم وصلوا إلى مرحلة الابتكار والتأليف، بل تناولوا ما نقلوه بالنقد والتحليل، ولم يكن هناك أدنى تردد في تناول نظريات مشاهير الأطباء القدماء بالتعليق والإضافة والحذف، وأحيانًا بالاعتراض الكامل على المحتوى، وسيأتي توضيح ذلك في موضعه بإذن الله.

لقد كان الأطباء المسلمون علماء بحق، وكانوا يتميزون بعقليات مفكرة، وطاقات جبارة، مما يسّر لهم قيادة البشرية لعدة قرون في هذا المجال المهم من مجالات العلوم.

والنقطة الثالثة هي: أن الأطباء المسلمين لم يجعلوا الطب حكرًا عليهم، حتى في زمان قوة دولتهم، بل فتحوا الباب لكل العلماء المعاصرين من الديانات الأخرى؛ ليدلوا بدلوهم، وليساهموا بإنجازاتهم في سبيل تقدم هذا العلم المهم.. علم الطب.

فقد ظهرت أسماء نصرانية ويهودية مؤثرة في علم الطب مثل قسطا بن لوقا البعلبكي، وأبي النصر المسيحي، وهبة الله بن جميع الإسرائيلي، وغيرهم وغيرهم.. لدرجة أنه كان هناك عائلاتٌ نصرانيةٌ كاملةٌ انصبَّ اهتمامها الأساسي على علم الطب؛ ولذلك تراها وقد برعت فيه، وتبوَّأت مكانة مرموقة في الدولة الإسلامية، وذلك مثل عائلة آل بختيشوع النصرانية، التي ظلت تحترف الطب لثلاثة قرون كاملة، وكان لها مكانة عظيمة عند خلفاء بني العباس، وكان من أشهر علمائهم جبرائيل بن بختيشوع، الطبيب الخاص لجعفر البرمكي (أحد كبار رجال الدولة في

عهد هارون الرشيد)[1].

وتكفي الإشارة إلى أمر يدل على مدى التسامح الذي كان عند قادة المسلمين، ومدى الاقتناع عندهم بقبول الآخر، وهو أن الناصر صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله- عندما دخل مصر، كان بصحبته ثمانية عشر طبيبًا، من بينهم ثمانيةٌ مسلمون وخمسة يهود وأربعة من النصارى، وسامريٌّ واحد!!

وهكذا وَشَتِ الحضارة الإسلامية علم الطب -بكل تخصصاته وفروعه- بكل نافع ومفيد، واستطاعت أن تضيف المزيد إليه، وتترك بصماتها الواضحة عليه، بما يفيد المسلمين والبشرية جمعاء، فأثْرت الحضارة الإنسانية بصفة عامة في هذا الجانب، واستطاعت أن تكمل مسيرتها فيه من بعد ما ارتكزت على السابقين.

وهذا ما يجب أن يكون عليه تعامل المسلمين مع العلوم الحياتية الآن بصفة عامة.

الخاصية الثانية: الاعتماد على التجريب والتطبيقات الواقعية:

كانت الخاصية الثانية التي ميَّزت المنهج الحضاري عند المسلمين في دراسة الطب هي اعتمادهم على التجربة والمشاهدة والفروض؛ بمعنى أنه لم يكن منهجًا فلسفيًّا نظريًّا بحتًا، وإنما اعتمد -وبشكل رئيسي- على التجارب العملية والتطبيقات الواقعية.. وهذا يميزه كثيرًا عن المناهج الطبيعية اليونانية، التي كانت في أغلبها فلسفات نظرية، لا تطبيق لها في الكثير من الأحايين، حتى وإن كانت صحيحة!

فقد اعتمد الأطباء المسلمون المنهج التجريبي في علم الطب، وكانوا يقومون في ذلك بتجرِبة طرق مختلفة ومتعددة للعلاج، وملاحظة الفروق بين هذه الطرق،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ١٤، ١٥.

وتسجيل ذلك بعناية ودقَّة.

واهتم الأطباء المسلمون بتسجيل الملاحظات اهتمامًا بالغًا؛ فكانوا يدوِّنون ما يشاهدونه في الحالات المرضية المختلفة، كما اهتموا بمحاولة تبرير هذه الملاحظات بما يستطيعون، أو محاولة ابتكار العلاج المناسب لكل حالة.. وبذلك حدث المزج الرائع بين العلوم النظرية والعلوم العملية، واستفادت البشرية من جهود العلماء السابقين واللاحقين.

يقول ابن سينا العلاَّمة الإسلامي المتميز: «... وتعهدتُ المرضى؛ فانفتح عليَّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التَّجرِبة ما لا يوصف»[1].

ويمتعنا الرازي في هذا المجال بكلام في غاية النفاسة والفائدة، حيث يقول: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظرية السائدة، يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية السائدة تأييدًا لمشاهير العلماء»[2].

فهو يقرِّر أن الجميع قد ينبهر بآراء العلماء المشهورين الكبار، ويتوقف عند نظرياتهم، إلا أن التجربة أحيانًا ما تتعارض مع النظرية، فهنا يجب علينا رفض النظرية -وإن كانت لمشاهير العلماء- وقَبُول التجربة والواقعة، والبدء في تحليلها والاستفادة منها.

وانطلاقًا من هذا المنهج العظيم، وهو منهج الاعتماد على التجربة والملاحظة، وافتراض الفروض، ومحاولة تطبيقها.. لم يقبل الأطباء المسلمون بالأجهزة والأدوات القديمة التي استخدمها قدماء الأطباء اليونانيين والفارسيين، بل بدءوا يفكرون في أدوات جديدة، وابتكروا أنواعًا عِدَّة، وجرّبوها، فما أُثبت كفاءته منها

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٧٣.
(٢) السابق نفسه ١/ ٧٧، ٧٨.

استخدموه وطوّروه، حتى وضعوا بذلك أسسًا علمية لكثير من أدوات الجراحة والولادة وعلاج الأسنان، وعلاج كسور العظام، وصلت أحيانًا إلى حد الإبهار، وبخاصة إذا نظرنا إلى التوقيت المبكر الذي ظهرت فيه هذه الآلات، وإلى خلوِّ العالم في ذلك الوقت من أي منافس في هذا المجال.

وليس أدل على ذلك من إنتاج الجرَّاح الإسلامي الفذ أبي القاسم الزهراوي الذي أبهر العالم -ولعدة قرون- بأدواته الجراحية التي ابتكرها واستعملها بنفسه، وسجلها في كتابه الرائع (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وأصبحت هذه الآلات العبقرية هي النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة.

(١٦٥)

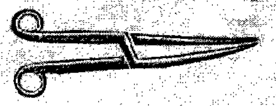
الفصل الثامن عشر في لقط السبل من العين

السبل عروق حمر تنتسج على العين تمنع البصر ثقله وتضعف العين مع طول الأيام فينبغي لك أولاً أن تنظر فإن كانت العين التي فيها السبل قوية ولم يكن فيها ورم غير السبل فعند ذلك فالقط سبلها وهو أن تأمر العليل أن يضع رأسه في حجرك ثم تعلق تلك العروق بصنارة واحدة أو اثنين على حسب حاجتك ويكون الصنارة لطيفة الانثناء على هذه الصورة

أو يكون صنارتين مزدوجتين في جسم واحد على هذه الصورة



ثم تلقطها بمقص لطيف تلك العروق بلطف وتمسح بالدم حيناً بعد حين حتى ترى العين قد ذهبت منها تلك العروق واختلبت الدم وتحفظها من العين لا تؤذيها بأطراف المقص وليكن عملك نصف النهار بإزاء الشمس وتتثبت في عملك جداً لئلا تقطع غير تلك العروق فإذا فرغت فاقطر في العين الشياف الأخضر أو الأحمر ليأكل بحدته ما بقي من السبل فإن لم يمكنك لقطه كله في تلك الساعة فشد العين بما يسكن ألمها واتركها أياماً حتى يسكن ألمها وتأمن الورم الحار ثم أعد العمل على هذه الصفة بعينها حتى يبرأ وهذه صورة المقص



الأدوات الجراحية التي ابتكرها الزهراوي

الخاصية الثالثة: الاهتمام بالضوابط الشرعية في العلاج:

وهذه هي الخاصية الثالثة الفريدة التي ميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج؛ فكل مناهج الأرض في جميع العلوم تُبتكر وتُنفَّذ دون ضابط شرعي، أو دليل إلهي على صحة أو بطلان عمل من الأعمال، لكن الطب الإسلامي تميز بأنه كان يستمد أصولاً ثوابتَ من القرآن

والسُّنَّة ميّزته عن شتى المناهج الأخرى.

وليس معنى هذا أن القرآن والسنة وضعا التفاصيل الدقيقة لعلاج الأمراض؛ فلا نعالج مرضًا إلا بدليل! ولكن معناه أن هناك أُطُرًا عامة، وحدودًا خاصة وضعها الإسلام لتكون هاديًا للأطباء المسلمين، ولكل العلماء وعموم الناس لكي ينجحوا في الوصول إلى الحق وإلى الخير والصلاح في كل فروع الحياة، ومن هذا المنطلق نفهم قوله ﷻ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فكان الأطباء المسلمون -على سبيل المثال- يحترمون القاعدة الشرعية الأصيلة التي رواها أبو الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[(١)]. ومن هنا لم يكن مقبولاً أبدًا عندهم أن يعالجوا مرضًا بخمرٍ أو نجاسة، أو بفعل منكر؛ فقد أغلق لهم هذا الحديث الشريف أبوابًا كثيرة من الشر؛ لأن الله ﷻ يعلم ما يُصلِح عباده وما يُفسدهم.

ومثال ذلك أيضًا أن الأطباء المسلمين لم ينساقوا وراء ما كان شائعًا في زمانهم من أمور العلاج بالدجل والشعوذة، وإنما استخدموا الأسلوب العلمي الراقي في علاج الأمراض، وقادهم هذا إلى اكتشاف الكثير من الأمراض النفسيَّة، ومعرفة طرق علاجها.

كذلك لم يستخدم المسلمون الكي في العلاج؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك، فقد روى ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «... **وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ**»[(٢)]. وبذلك أغلق الأطباء المسلمون هذه الصفحة من طرق العلاج، والتي أثبت الطب الحديث -بعد ذلك- أنها مجرد تسكين مؤقت، ليس له فائدة حقيقية!!

---

(١) أبو داود: كتاب في الطب، باب في الأدوية المكروهة (٣٨٧٤)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٩٤٦٥).
(٢) البخاري: كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث (٥٣٥٦)، وابن ماجه (٣٤٩١)، وأحمد (٢٢٠٨).

وإذا كان من مثال رابع، فهو عدم استخدامهم السِّحر في العلاج، مع إدراكهم أنه علم له أصول، ولكنهم علموا أنه منهيٌّ عنه شرعًا، بل إنه من الكبائر ومن الموبقات السبع، كما روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**... وذكر منها: **السِّحْرُ**»[1].

وكان لاهتمام الأطباء المسلمين بالقرآن والسُّنَّة السبيل لإرشادهم إلى كثير من وسائل العلاج التي أثبت الطب الحديث كفاءتها، بل وإعجازها.. وذلك مثل الاستشفاء بعسل النحل، وحبة البركة، والحجامة، وغير ذلك من أنواع العلاج التي حَفَلَتْ بها كتب السُّنة النبوية.

فهذه خصائص عظيمة وفريدة قادت إلى تطور علم الطب في ظل الحضارة الإسلامية، وميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج، ومكَّنته من وضع أصول راسخة لهذا العلم العظيم، ويسَّرت لعلمائنا الأفذاذ أن يقودوا البشرية كلها لعدة قرون.



(١) البخاري: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا (٢٦١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٦٣٧١)، وابن حبان (٥٥٦١).

الفصل الثالث

أهم إسهامات المسلمين الطبية



تخطى المسلمون علوم اليونان التي نقلوها إليهم، فتفوقوا فيها تفوقًا عظيمًا، وتعمقوا في دراسة الفيزيولوجيا -علم وظائف الأعضاء- وعلم الصحة، وفنّ الأدوية، وما زال الكثير من أدويتهم مستعملاً حتى الآن، وقد برعوا في التخدير، وأقدموا على إجراء عمليات جراحية واسعة ابتكروها، فكان النجاح حليفهم في حسن نتائجها. وبينما كانت معاطاة الطب -كما يقول ولز- محرَّمة من الكنيسة في أوربا، وخاضعة لطقوس كهنوتية يمارسها رجال الدين، كانت المدارس الطبية منتشرة في بلاد العرب دون قيد أو شرط إلا حسن الاستعداد لتعلمها، وكانت الموسوعات الكبرى التي وضعوها في الطب متاحة للجميع[1].

وقبل الحديث عن إسهامات وإنجازات العلماء المسلمين في العلوم الطبية، نشير إلى نقطتين مهمتين: **الأولى**: أنه يجب ألاَّ يغب عن بالنا أن تاريخ العرب قبل الإسلام -كما أشرنا من قبل- لم يكن يحمل أي اهتمام بهذا المجال، وقد جاء الإسلام وأحدث نقلة حضارية وعلمية هائلة، وغيَّر من وضع العرب في الجزيرة العربية، وأحدث لهم فهمًا جديدًا في كل مناحي الحياة، وخاصةً العلمية والمعرفية، حتى ظهر مما يمكن أن نسميه حاليًا بالتخصص في تناول فروع الطب المختلفة؛ كالطب الجراحي، وطب العيون، وطب الأطفال، وعلم التشريح، والطب النفسي، وما يتبع ذلك من تطور في طرق العلاج واكتشاف الدواء.

---

(١) أحمد شوكت الشطي: مجموعة أبحاث عن الطب وعلومه في الحضارة العربية الإسلامية ص٣١، ٣٢، نقلاً عن شوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية ص٩٨، ٩٩.

أما الثانية: فإنه ليس من المنطقي ونحن نقف على إسهامات وإنجازات المسلمين في العلوم الطبية، أن ننظر إلى هذه الإسهامات وتلك الإنجازات من خلال المكتسبات والمعطيات العلمية الحديثة، وإنما من خلال العصر الذي عاشوا فيه، ومن خلال المكانة التي وصلتها الأمم المجاورة لهم في هذه العلوم، وأيضًا في ضوء الإمكانات التي كانت متاحة إذ ذاك، وكذلك الإسهام الذي أسدوه لجيلهم ولأجيال لحقتهم، وما أضافوه لحضارة وعلم تلك الأجيال.

وفي صفحات هذا الفصل نجلي بعضًا من هذه الإسهامات، وذلك من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: الجراحة**
- **المبحث الثاني: التشريح**
- **المبحث الثالث: طب العيون**
- **المبحث الرابع: طب الأطفال**
- **المبحث الخامس: النساء والولادة**
- **المبحث السادس: الطب النفسي**
- **المبحث السابع: الأمراض والعلاجات**[1].

* * *

(١) يُنظر في هذه المباحث: العلوم عند العرب والمسلمين، الموسوعة العربية العالمية (الإصدار الرقمي الإلكتروني، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، فهي المصدر العمدة فيها.

المبحث الأول

الجراحة

كان علم الجراحة في بداية الدولة الإسلامية من الصناعات الممتهنة التي يجب أن يتسامى الطبيب عن ممارستها، وكانوا يسمونه (صناعة اليد)، وبقي لفترة من اختصاص الحلاقين والحجّامين يقومون بالعمليات الجراحية البسيطة؛ كالكي والفصد والبتر، تحت إشراف وإرشاد الأطباء الذين كانوا يستقون معلوماتهم الجراحية مما كتبه أبقراط وبولس وجالينوس وغيرهم. لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً؛ فبظهور قسم من عباقرة الطب عند المسلمين سار هذا العلم خطوات نحو التجديد والإبداع[1].

ويعتبر الرازي أول من فرّق بين الجراحة وغيرها من الموضوعات الطبية، وأول من جعل أساس هذا العلم قائمًا على التشريح، وقد ألزم الأطباء المسلمون الجرّاح أن يكون ملمًّا بعلم التشريح ومنافع الأعضاء ومواضعها. وكانوا يؤكدون على حاجة المشتغلين بالطب إلى تشريح الأجسام حية وميتة، وقد



الأدوات التشريحية

(١) انظر: محمد كامل حسين: تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص٩٧، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص١٠٥، وعلي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص١٠٢.

شرّحوا القرود كما فعل ابن ماسويه.

ومن إبداعات المسلمين في مجال الجراحة: أنهم أول من تمكّن من استخراج حصى المثانة لدى النساء عن طريق المهبل، كما توصلوا إلى وصف دقيق لعملية نزف الدم، وقالوا بالعامل الوراثي في ذلك؛ حيث وجدوا أن بعض الأجسام لديها استعداد للنزف أكثر من غيرها، وتابعوا ذلك في عائلة واحدة لديها هذا الاستعداد واستطاعوا أن يعالجوه. كما نجحوا في إيقاف لدم النزيف أيضًا بربط الشرايين الكبيرة، وأجروا العمليات الجراحية في كل موضع تقريبًا من البدن. وكتبوا عن جراحة الأسنان وتقويمها وجراحة العين، وبرعوا في قدح الماء الأزرق من العين، وكانت هذه العملية أمرًا يسيرًا ونتائجها مضمونة. وذكروا أكثر من ست طرق لاستخراج هذا الماء من العين، منها طريقة الشفط. وأجروا العمليات الجراحية في القصبة الهوائية، بل إن الزهراوي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م) كان أول من نجح في عملية فتح الحنجرة (القصبة الهوائية)، وهي العملية التي أجراها على أحد خدمه[(١)].
ويقول الرازي في هذا الصدد: «العلاج أن تشق الأغشية الواصلة بين حلق قصبة الرئة ليدخل النَّفَس منه، ويمكن بعد أن يتخلص الإنسان وتسكن تلك الأسباب المانعة من النَّفَس أن يخاط ويرجع إلى حاله، ووجُه علاجِه أن يمد الرأس إلى الخلف ويمد الجلد ويشق أسفل من الحنجرة ثم يمد بخيطين إلى فوق وأسفل حتى تظهر قصبة الرئة... فإذا سكن الورم، وكان النَّفَس فَلْيُخَطْ ويمسك قليلاً واجعل عليه دروزًا أصغر»[(٢)].

ولعل المسلمين كانوا من أوائل من أشاروا إلى ما يسمى الآن بجراحة التجميل، وقد بينوا كيفية هذه الجراحة في الشفة والأنف والأذن حينما تطرأ عليها الضخامة

---

(١) انظر علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص١٠٥.
(٢) الرازي: الحاوي ٣/ ٢٢٥.

من نتوء بارز أو قطع، بحيث تعود هذه الأعضاء إلى حالتها الطبيعية، فيرتفع القبح الناشئ عن اللحمة الزائدة[1].

وكما أن الطب الجراحي الحديث لا يلجأ للجراحة إلا إذا كانت هي الحل الأخير، فكذلك كان يفعل الجرّاحون العرب؛ فما كانت الجراحة عندهم إلا كالشر الذي لا بد منه. من ذلك ما نجده في قول الرازي في كتابه (الحاوي): «متى رأيت الطبيب يبرئ بالأدوية التي تعالج بعلاج الحديد والعملية الجراحية مثل الخراجات والدبيلات واللوزتين، والخنازير[2] واللهاة الغليظة والسلع والغُدد... فمتى أجاد الطبيب في جميع هذه، ولا يحتاج في شيء منها إلى البط والقطع إلا أن تدعو لذلك ضرورة شديدة، فاحمد معرفته»[3]. ومن ثَمَّ سار المثل: «آخر الدواء الكيّ».

كما مارس الجراحون المسلمون إجراء العمليات الناجحة في البطن، والمجاري البولية، والولادة القيصرية، وتجبير الكسور، والخلع، وعمليات الأنف والأذن والحنجرة، وكانوا يخيطون الجروح خياطة داخلية لا تترك أثرًا ظاهرًا من الجانب الخارجي. وخاطوا مواضع العمليات بخيط واحد باستخدام إبرتين، واستخدموا الأوتار الجلدية وخيوطًا صنعوها من أمعاء القطط وحيوانات أخرى في جراحات الأمعاء ورتق الجروح؛ إذ إن الجسم يمتصها دون أن تلحق به أذًى، تقول زيجريد هونكه: «إن الرازي علّم تلامذته كيفية تخييط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئًا منها، والتدريس المثمن نسبة إلى ثمانية في جراحات البطن وكيفية التخييط بإبرتين وخيط واحد مثبت بهما»[4].

---

(١) انظر: الرازي: الحاوي ٦/ ٢١٨.

(٢) الخنازير: هي قروح صُلبة تحدث في الرقبة. انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة خنزر ٤/ ٢٦٠.

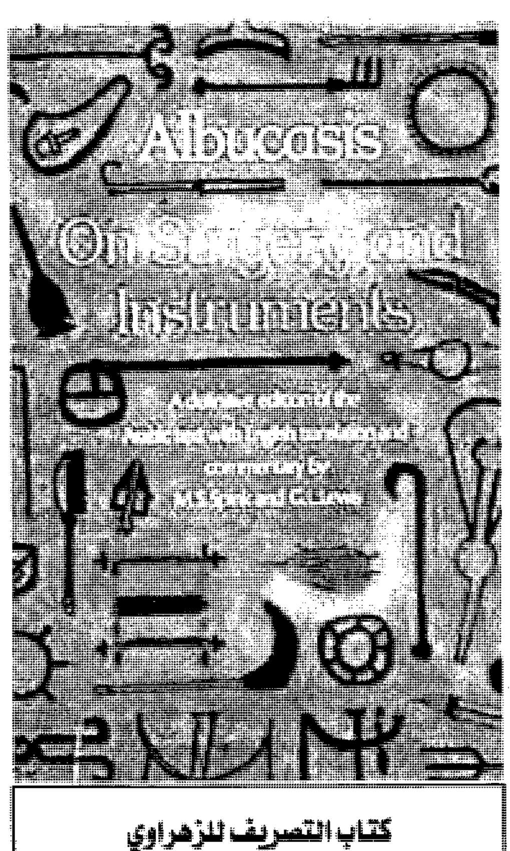
(٣) الرازي: الحاوي ٧/ ٤٢٥.

(٤) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٢٧٨.

وتوصل المسلمون إلى أساليب في تطهير الجروح، وطوّروا أدوات الجراحة وآلاتها. وكان للجراحين المسلمين فضل كبير في استخدام عمليتي التخدير والإنعاش على أسس تختلف كثيرًا عما نقلوه من الأمم الأخرى[1].

أدوات الجراحة:

لم يكتفِ الجراحون المسلمون بالأدوات التي نقلوها عن الأمم التي سبقتهم، بل اخترعوا آلات جديدة وطوروا تلك التي آلت إليهم من غيرهم، وذكر الكثيرون منهم -في ثنايا مؤلفاتهم- الأدوات التي استخدمت في عصرهم. ومن هذه المؤلفات، على سبيل المثال: الكتاب الذي صنفه الزهراوي (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وابن القُف أبو الفرج بن يعقوب (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) (عمدة الإصلاح في صناعة الجراح)، وأبو الحسن ابن بطلان (دعوة الأطباء). وقد اكتشفت بعض الآلات الجراحية أثناء الحفريات التي جرت في موقع الفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص سنة (٢١هـ/ ٦٤١م).



كتاب التصريف للزهراوي

ومن هذه الأدوات: الدَّست وهو يشبه الحقيبة التي تحفظ فيها المباضع. وهذه

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية الإصدار الرقمي الإلكتروني.

المباضع أنواع تختلف أشكالها باختلاف الوظائف التي تؤديها؛ فمنها: مبضع شق الجلد، وهو حاد الطرفين، ويستخدم في حالة فتح مكان في الجلد فوق الشرايين حتى يتمكن الجراح من ربطها. والمبضع المعطوف؛ ويكون أحد طرفيه حادًّا، ويستخدم لاستئصال اللوزتين. ومن الأدوات التي استخدمت للوزتين المقطع؛ ويشبه المقص بطرفيه المعطوفين، والمباضع الشوكية؛ وهي نوعان: أحدهما يستخدم لبزل البطن في حالة الورم ليسمح بإدخال أنبوب دقيق لسحب الماء، وآخر يشق به الناسور. ومبضع فتح الأورام؛ لاستخراج الصديد والقيح المتجمع فيها، وهو ذو نصل مستدير. والمبضع الأملس؛ ويستخدم في قطع الظفرة (لحمة تنبت عند المآقي) من العين. ومبضع الأذن لقطع ما يسقط في الأذن من أجسام غريبة. ومبضع الشق العجاني، ويستخدم لشق العجان (وهو الدُّبر وما فوقه) لاستخراج الحصاة. ومبضع الفصد؛ وهو مبضع عريض ذو نصل يشبه ورقة نبات الآس؛ يستخدم لفصد العروق. والمبضع أملس الحافتين؛ ويستخدم لفتح الأذن التي قد تسد إما من جراء جسم خارجي، أو لزائدة تنبت فيها[1].

وإلى جانب المباضع توجد أدوات أخرى منها: الصنانير، وهي أنواع أيضًا، منها البسيط ذو المخطاف الواحد، والمركب ذو المخطافين أو الثلاثة مخاطيف، وأخرى ذات ثلاث شوكات ومقبض واحد لشدّ الجلد. وصنانير خاصة بخلع بقايا السن المكسورة، طرفها مثلث الشكل فيها بعض الغلظ. أما بقايا جذور الأضراس المكسورة فكانت تخلع بأداة يدخلونها في السنخ فتخلعها. وتسمى هذه الأداة العتلة، وهي ذات أشكال وأحجام مختلفة تحددها الوظيفة التي تقوم بها. ومن الأدوات الخاصة بخلع الأسنان والأضراس الكلاليب، ومنها ما يشبه مناقير الطيور تخلع الأضراس من أصولها. ومن الكلاليب ما يستخدم لاستخراج ما

(١) انظر محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص١٤٨- ١٥١.

ينشب في الحلق من أجسام غريبة، وهي ذات أطراف معقوفة خشنة كالمبرد إذا لامست الجسم قلما تتركه. ومثلها مِرْوَد الحلق؛ وهو آلة يستخرج بها الشوك أو العظم وما شابهها من الحلق، وهي ذات طرف معقوف كالصنارة. وآلة كي اللهاة، وتشبه المرود، وطرفها كالملعقة تملأ بمادة كاوية توضع على اللهاة.

أما الأنابيب فكانت تتخذ من الريش أو تصنع من الفضة والنحاس أو الحديد. ويعتمد ذلك على نوع الوظيفة التي يؤديها الأنبوب؛ فهناك أنبوب لقطع الثملة؛ وهي الزوائد اللحمية التي تظهر في الوجه والعنق، ويصنع من ريش الأوز أو النسور، ويوضع فوق الثملة ويشد عليها حتى يقطعها من أصلها. وهناك أنبوب هوامّ الأذن، وهو ذو فوهة ضيقة ونهاية واسعة يدخل إلى الأذن بمقدار يحتمله المريض ويشفط به شفطًا قويًّا حتى تخرج الهوام. ومن هذا النوع أنبوب يعبأ بزيت دافئ يدفع ببطء داخل الأذن فتخرج الهوام، ويصنع من الفضة أو النحاس. وهناك نوعان من الجفت واحد لاستخراج العظام المكسورة من الفك، وآخر صغير دقيق يستخدم في استخراج الأجسام الدقيقة من الأذن. ومن الأدوات التي استخدمت للأذن أيضًا المجرفة؛ وهي آلة كالمجرد (المكشط) لرفع الأجسام الغريبة منها. كما استخدموا القساطر لتسهيل خروج البول من المثانة، وطولها نحو شبر ونصف الشبر، وتصنع من الفضة المجوفة بحجم أنبوب ريش الطير.

ومن الآلات التي كانت تستخدمها القابلات في التوليد اللوالب؛ وهي آلات تساعد في فتح فم الرحم وتصنع من الأبنوس، ويكون في طرف اللولب خشبتان عرض كل منهما نحو أصبعين وطولهما شبر ونصف، وفي وسط الخشبتين زائدتان تربطان فيهما تدخلان في المهبل ليفتح بها عند إدارة اللولب. كما استخدموا نوعًا من الصنانير ذات الشوكتين لجذب الجنين. ومنها أيضًا المشداخ، وهو آلة يشدخ بها رأس الجنين ليسهل إخراجه من فم الرحم، ويشبه المقص وله أسنان كأسنان

المنشار. ومنها أيضًا أداة تسمى المبخرة للتبخير بها عند احتباس دم الطمث والمشيمة، وتصنع من النحاس، ويوضع طرفها الرفيع في القُبل والواسع على النار والبخور فوق الجمر. ومدفع الجنين، وهو على شكل صنارة يشبك طرفه في الجنين ويدفع به إلى الأمام. واستخدموا المجارد (المكاشط)، وهي آلات تجرد بها الأضراس والأسنان لإزالة الكلس والسواد والصفرة عنها، وبعضها مصمم ليجرد به من الداخل، وبعضها من الخارج، وبعضها للجرد بين الأسنان والأضراس. ومن المجارد ما يستخدم لكشط العظام، وهي كالمبرد، وكل المجارد تصنع من الحديد.

كما استخدم الجراحون المسلمون المحاجم والمحاقن، والمحاجم على ثلاثة أشكال: منها الصغير والمتوسط والكبير، وتصنع من النحاس أو من الصيني مدورة أسطوانية تستخدم لقطع النزف، ولا بد أن يكون لدى الطبيب كل المقاسات. وهناك المحجمة النارية والمحجمة المائية؛ فالأولى تصنع من النحاس الأصفر، وفي منتصفها ثقب بمقدار ما يدخل الإبرة يغلقه الحاجم بإصبعه عند الاستعمال، وحالما ينتهي يرفع إصبعه عن الثقب فتنحل المحجمة في الحال. أما المحجمة المائية فليس بها ثقب، وإنما تعبأ بالماء وتوضع على العضو مباشرة، وكلما كان حجمها أكبر استوعبت كثيرًا من الماء الحار أو المخلوط بالأعشاب.

أما المحاقن فنوعان؛ كبير وصغير، وتستخدم الصغيرة للأطفال، وتصنع من الفضة أو النحاس أو الصيني. وأعلى المحقن واسع على هيئة كيس توضع فيه المادة المحقونة، وطرفه الأسفل الذي يدخل في الشرج أملس رقيق مصمت. ومنها محقن المثانة وهو صغير لطيف تحقن به المثانة ويصنع من الفضة، يُملأ بالسوائل المدفأة ويدخل طرف المحقن في الإحليل ويدفع السائل بالضغط على مؤخرة المحقن ضغطًا شديدًا فيندفع السائل إلى المثانة. ومن الآلات المستخدمة في جراحة المثانة أيضًا المزراقة؛ وهي أداة لتقطير الماء في جوف المثانة، وبها ثلاثة ثقوب: اثنان منها

على جانب واحد والثالث على الجانب الآخر، وتستخدم في دفع السوائل أو جذبها من المثانة. وهناك المشعب وهو آلة مثلثة الطرف تصنع من الحديد الصلب، ولها مقبض خشبي تستخدم لتفتيت الحصاة في القضيب أو مجرى البول.

استخدم الجراحون المسلمون أدوات دقيقة لاستئصال الأورام والناسور أو لقطعها؛ من ذلك البريد، وهو أداة كالمسبار تصنع من النحاس الأصفر أو الأبيض أو الرصاص، ويختلف حجمه وشكله باختلاف موضع الورم أو الناسور أو الخراج وحجمه. كما استخدموا المدس وهو آلة كالمرود لجسّ واستقصاء الأورام. وأنواع المدسات ثلاثة؛ كبير ومتوسط وصغير، ووظيفة المدس أن يُدخل (يدس) في أرطب مكان، ويدار بلطف بين الأصابع ثم ينزع ويفحص ما خرج معه من أنواع الرطوبات.

ومما استخدم في جراحة الأورام المشرط، وهو آلة تشق بها الأورام، وهي على ثلاثة أنواع: كبيرة ومتوسطة وصغيرة، وهي عريضة ذات طرفين أحدهما حادّ يستعان به في شق الورم. وهناك المكبس المجوف؛ وهو آلة تصنع من الفضة أو النحاس مسطحة، ووظيفتها كبس اللسان ليتمكن الجراح من رؤية الحلق وكشف أورامه. ومن الأدوات التي استخدموها في جراحة الناسور أيضًا المسبار المثقوب، كانوا يدخلون فيه خيطًا مفتولاً من خمسة خيوط ويربطون به أصل الناسور ويشدونه ويتركونه يومين أو ثلاثة حتى يسقط من تلقاء نفسه. ومن أدوات جراحة الأورام أيضًا الكاوية، وتشبه السكين المعوجة النصل، تُكوى بها الأورام التي تنشأ في الأرجل كالفخذين والساقين والأقدام. وكذلك الكاوية المسمارية وتكوى بها بواسير الشرج والرحم. والكاوية الأنبوبية التي تكوى بها الأضراس، وهي ذات أشكال متعددة، والكاوية الهلالية الطرف التي تكوى بها الفتوق، وكاوية البطن والكبد وكاويات قطع الشرايين وكاويات المفاصل. والكاوية الزيتونية ويكوى بها

الفالج والصداع وعرق النَّسَا، إلى جانب كاويات تستخدم في الشقيقة وأمراض الكُلَى والمثانة وآلام الظهر[1].

أما في جراحة العيون والأنف والأذن والحنجرة، فقد استخدموا آلات عديدة، ومن ذلك أنهم استخدموا البريد وهو آلة شديدة الصلابة لثقب الملتحمة دون التعمق في الثقب، ومن ثَمَّ يستخدمون المقدح بعد إجراء الثقب. كما استخدموا القصبة في رفع جفن العين أثناء العملية. وكانت تتخذ قصبتان بطول الجفن وتشدان شدًّا وثيقًا وتتركان مدة من الزمن حتى تموت الجلدة الزائدة وتسقط من تلقاء نفسها، أو تقرض بالمقراض إن استغرقت مدة طويلة ولم تسقط. ومثل القصبة أيضًا مخالب التشمير، وهي آلات كالصنانير تستعمل أيضًا في رفع الأجفان. أما المقادح فهي آلات تشبه المباضع تستخدم في قدح الماء الذي يسيل من العين. كما استخدموا أنواعًا من المقصات في عمليات العيون منها الصغير الذي يستخدم لقطع ما يبقى من الجلد في عمليات الجفون ومقص التعقيم الذي تطهر به جروح العين بعد العملية. أما الشعر الذي ينبت في أشفار العين فكان يُتَخلص منه بوساطة كاوية يبلغ طولها نحو ١٥ سم تسمى الكاوية الآسية؛ لأن كيها على شكل ورقة نبات الآس. وكانت نواسير العين التي تنشأ في المآقي تزال بالكاوية المجوفة، أما استرخاء الجفن ومنطقة ما فوق الحاجبين فكان يعالج جراحيًّا بالكاوية الهلالية. كما استخدموا آلات الجراحة الرمدية؛ كالمقص ذي الشفرة العريضة والمقراض الذي يلقط السبل من الإكليل، والمنقاش لقطع الثآليل، والملقاط لأخذ الشعيرات الزائدة. ولقطع اللحم الزائد في داخل الأنف استخدموا ما يعرف بالمخرط، كما استخدموا للأنف أيضًا المسعط وهو آلة تقطر الدهن في الأنف، وكان يتخذ من الفضة أو النحاس وهو مسطح ذو مقبض في نهايته. أما ناسور الأنف فقد

---

(١) الموسوعة العربية العالمية الإصدار الرقمي الإلكتروني.

استخدموا له المنقب، وطرفه حاد مثلث الشكل ومقبضه خشبي مخروط.

ومن الأدوات التي استخدموها في جراحة العظام البيرم؛ وهي تشبه العتلة الصغيرة تصنع من الحديد طولها ثماني أصابع، أما عرضها فيختلف باختلاف حجم الجروح والعظام، وتستخدم لردّ العظام المكسورة الناتئة على الجلد وتسويتها. ومنها خشبة الرأس؛ وكانوا يزيلون بها العظم الفاسد؛ وهي ذات رأس مدوَّر وتصنع من الحديد الصلب، وتوضع على الموضع المراد إزالته وتدار حتى يكشط الجزء الفاسد. كما استخدموا نوعًا من المثاقب لثقب العظام بحيث لا يتجاوز عظم القحف إلى الجهة الأخرى، ومن هذه المثاقب الكبير والمتوسط والصغير. ولتسوية خشونة ما يبقى من عظام استخدموا آلة تسمى المقطع العدسي[1].

التخدير والإنعاش:

لم تقتصر إضافات المسلمين في مجال الجراحة على إجراء عمليات لم يُجْرَ مثلها من قبل، واستحداث أدوات جراحية جديدة فحسب، بل إنهم طوروا ما وصل إليهم من علم التخدير والإنعاش ممن سبقهم، ثم اكتشفوا طرقًا أخرى أضافوها لهذا العلم.

ويعود الفضل إلى المسلمين في اكتشاف المرقِّد (المبنج) العام، وهناك من القرائن ما يدل على أن المسلمين كانوا أول من استعمل التخدير عن طريق الاستنشاق، وكان ذلك يتم عن طريق الإسفنج المخدر؛ فكانت توضع قطعة من الإسفنج في عصارة من الحشيش والأفيون والزُّؤان، ثم تترك في الشمس لتجف ثم تحفظ. وقبيل بدء العملية تخرج وترطب ثانية، وتوضع فوق أنف المريض وفمه، فتمتص الأنسجة المخاطية المبنجات، فيخلد المريض إلى نوم عميق أثناء إجراء العملية

(١) يُنظر في ذلك: العلوم عند العرب والمسلمين، الموسوعة العربية العالمية الإصدار الرقمي الإلكتروني.

الجراحية[1]. وكان هذا الاكتشاف فتحًا في مجال الطب الجراحي وأكثر رحمةً من المشروبات المسكرة التي استخدمها الهنود والرومان والإغريق، وكانوا يجبرون مرضاهم على تناولها كلما أرادوا تخفيف آلامهم.

وإلى جانب اكتشافهم الكبير، وهو استخدام المرقِّد، جرب المسلمون أدوية مبنجة أو مخففة للألم لأولئك الذين يخضعون أو خضعوا للعمل الجراحي، من ذلك **اللُّفَّاح**؛ وهو نوع من النبات غليظ الجذر أصفر طيب الرائحة، كما استخدموا القنب الهندي (الحشيش)، والشوكران؛ وهو عشب سام ذو رائحة غير مقبولة إذا فُرك بالأصابع، والخشخاش؛ وأنواعه كثيرة، والبنج؛ وينتمي إلى الفصيلة الباذنجانية ومعروف بخواصه المبنجة، وحشيشة ست الحُسن[2].

أما **الإنعاش** وإن لم يكن للمسلمين فيه خبرة واسعة إلا أنهم قد عرفوا مبادئه؛ فكانوا يدفعون كميات من الهواء عبر الرئتين بالضغط المتناوب، واستخدموا في ذلك المنفاخ. وتدلنا على ذلك القصة التي أوردها ابن أبي أصيبعة في كتابه (طبقات الأطباء)؛ وذلك أنه لما جاء نعي إبراهيم بن صالح، ابن عم الرشيد، استأذن الطبيب صالح بن بهلة الدخول على إبراهيم وهو في أكفانه، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت ضرب بدن بكف ثم تكبيرًا، ثم استدعى صالح الرشيد وأخرج إبرة فأدخلها تحت ظفر إبهام اليد اليسرى للميت فجذب إبراهيم المسجّى يده إلى بدنه، فطلب الطبيب أن يجردوه من كفنه وطلب كندسًا (نوع من الدواء) ومنفخة من الخزانة، ونفخ في أنف إبراهيم لمدة ثلث ساعة، فاضطرب بعدها بدنه وعطس ثم هبّ مستيقظًا[3].

* * *

(١) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص١٥٢.

(٢) السابق نفسه، الصفحة نفسها.

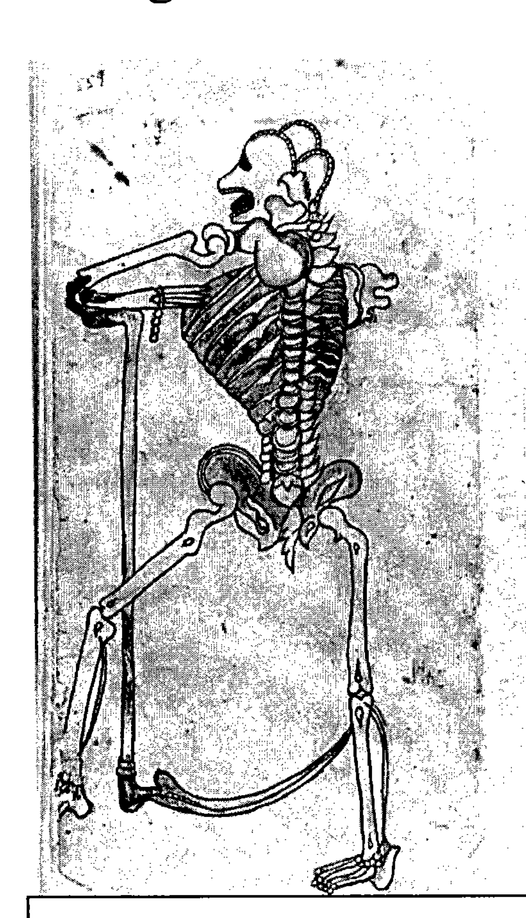
(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ١٦٧، ١٦٨.

المبحث الثاني

التشـــــــريح

كان التشريح عُدّة الطبيب الجراح، وقد صرّح الأطباء المسلمون بأن الجراح ينبغي أن يكون عالمًا بالتشريح، ووظائف الأعضاء ومواضعها ليجتنب في فتح المواد قطع الأعضاء وأطراف العضل والأوتار والألياف.

ومن الكتب الأخرى التي ترجمها المسلمون لجالينوس في التشريح: اختصار كتاب مارنيس في التشريح؛ وفي تشريح الحيوان الحي؛ وفي تشريح الحيوان الميت؛ وعلم أبقراط في التشريح؛ وتشريح الرحم؛ وتشريح العين؛ وتشريح آلات الصوت. وقد ساعدت هذه الترجمات وغيرها المسلمين في علم التشريح ومنافع الأعضاء، ثم استفادوا منها في علم الجراحة.



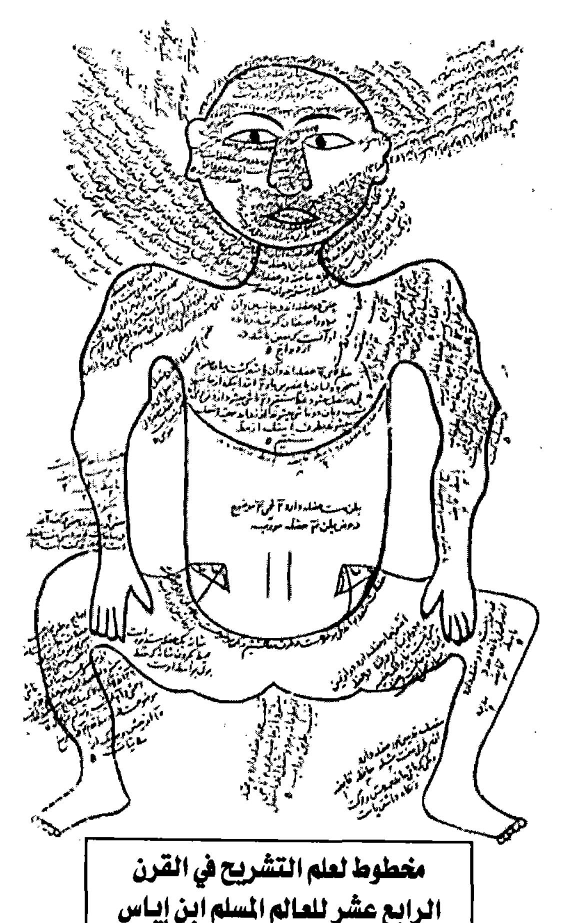
شكل يوضح مبادئ علم التشريح عند المسلمين

وكان على رأس الاختبارات التي يؤديها الطبيب اختبار في علم التشريح يسمى محنة، فعلى سبيل المثال، يقول الرازي في كتابه (محنة الطبيب): «ما تسأله عن التشريح ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم

بالقياس وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء، فإن لم يكن عنده ذلك، فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى. وإن كان عالمًا بهذه الأشياء، فأكمل امتحانه حينئذ في المرضى»[1].

وقد برع ابن طفيل (ت٥٨١هـ/ ١١٨٥م) في تشريح الأجسام الميتة والحية؛ وقد شرَّح ظبية حيّة وشق عن قلبها، وذكر أن الدم الموجود في القلب كالدم الموجود في سائر الجسد، وأنه متى سال من الجسم جمد[2].

شرَّح الأطباء المسلمون عيون الحيوانات، واكتسبوا من ذلك خبرة، وقد وضع ابن عيسى رسالة في تشريح العين وأمراضها الظاهرة والباطنة، ترجمت إلى اللاتينية، وكانت ذات أثر بالغ إبَّان ما اصطلح عليه في أوربا القرون الوسطى[3].



مخطوط لعلم التشريح في القرن الرابع عشر للعالم المسلم ابن إياس

ولم يقْدم الأطباء المسلمون على عمليات تشريح الجسد البشري، ولعل ذلك يعود إلى أسباب دينية أو إنسانية أو اجتماعية. لكن هناك من يقولون

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية الإصدار الرقمي الإلكتروني.

(٢) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٤٤.

(٣) سيرد ذكرها في موضعه.

إن بعضهم قد مارس ذلك سرًّا، ويستدلون على ذلك بدليلين؛ أولهما أنهم وصفوا أجزاء الجسم البشري -كالعين والقلب والكبد والرحم- وصفًا بالغ الدقة، وثانيهما أنهم خرجوا بآراء تخالف آراء كثير من الأطباء اليونانيين، وبينوا خطأهم في بعض ما ذهبوا إليه.

فعلى سبيل المثال، نجد أن ابن النفيس ينتقد آراء جالينوس في التشريح، وكذلك آراء ابن سينا الذي قال بآراء جالينوس؛ فقد وجد من خلال تشريحه للقلب والحنجرة أن هناك صلة بين التنفس والنبض، أو بين التنفس وانتقال الدم إلى القلب من الرئتين؛ فأظهر أخطاء جالينوس وابن سينا فيما يختص بتركيب الرئتين ووظيفتهما، وكذلك وظيفة الأوعية الشعرية التي تربط بين الشرايين والأوردة ووظيفة الحويصلات الرئوية والعروق الممتدة بين الرئة والقلب[1].

ويمكن إيجاز مآثر الأطباء المسلمين وعلى رأسهم ابن النفيس في مجال التشريح فيما يلي:

١- اكتشاف الدورة الدموية الصغرى التي تجري في الرئة، ويمر الدم خلالها من الشريان الرئوي إلى القلب، وهذا الاكتشاف هو الذي مهّد الطريق لوليم هارفي ليكتشف الدورة الدموية الكبرى.

٢- الوقوف على تركيب الرئة والأوعية الشعرية، ووصف الشريان الإكليلي ووصف الدورة الدموية فيه، وإثبات أن للقلب بطينين فقط.

٣- إثبات عدم وجود أي هواء أو رواسب مع الدم في شرايين الرئتين، مخالفين بذلك رأي جالينوس.

---

(١) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٤٦-٣٤٧، وعلي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٥-٢٠٧.

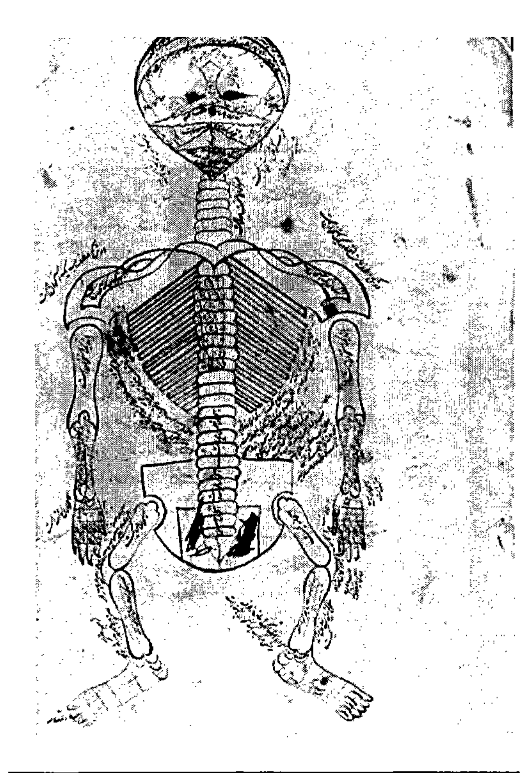
٤- انتقدوا وصف جالينوس للهيكل العظمي؛ فقد بيّن عبد اللطيف البغدادي (ت ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) أن الفك الأسفل قطعة واحدة وليس قطعتين بعد أن فحص أكثر من ٢٠٠٠ جمجمة بشرية!

٥- اكتشف ابن القف (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) عدد الأغشية القلبية ووظيفتها واتجاه فتحاتها لمرور الدم.

٦- معرفتهم أن الدم يجري إلى الرئتين حيث يتجدد، ويتشبع بالهواء وليس لمدِّهما بالغذاء؛ وهذا ما أكّده وليم هارفي فيما بعد.

٧- تأكيدهم على وجود اتصال بين الشرايين الموجودة في الرئتين وأوردتها حتى تتم الدورة الدموية داخل الرئة.

٨- ملاحظة أن «تشريح العروق الصغار في الجلد يعسر في الأحياء لتألمهم، وفي الموتى الذين ماتوا بسبب أمراض تقلل الدم كالإسهال والنزف، ويسهل فيمن مات بالخنق...». وهذا قريب مما يؤكده علم الأمراض (الباثولوجيا) حاليًا!



مخطوط يوضح الهيكل العظمي للعالم المسلم ابن ياس

٩- اكتشاف أن جدران أوردة الرئتين أغلظ كثيرًا من جدران شرايينها، وأنها تتألف من طبقتين.

١٠- البراعة في تشريح العيون وإجراء العمليات فيها، وبيّن ابن سينا أن العضلات «المحركة للمقل ست؛ أربع منها في جوانبها الأربعة فوق وأسفل المآقي». وقال ابن النفيس: «إن العين آلة للبصر وليست باصرة، ومنفعة هذه الآلة تتم بروح مدرك يأتي من المخ». وهذا ما أثبته العلم حاليًا؛ حيث ينقل العصب البصري الصورة إلى الدماغ الذي يقوم بدوره بتفسير المرئيات.

١١- مخالفتهم رأي جالينوس الذي يقول بوجود فتحة في جدار القلب الفاصل بين البطينين، وتوضيح أن الدم يجري في القلب ويدور فيه دورة كاملة، ويتدفق في أوردة الرئتين لينتشر فيهما ويتحد مع الهواء فيتخلص مما فيه من شوائب، ثم يجري في شريان الرئتين ليصل إلى البطين الأيسر بعد امتزاجه بالهواء(١).

***

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية الإصدار الرقمي الإلكتروني.

المبحث الثالث
طـــــب العيـــون

كان المسلمون يطلقون اسم الكحالة على طب العيون، وكانوا يسمون المشتغلين به من الأطباء باسم الكحّالين، وقد قام المسلمون بترجمة ما وصلهم من كتب علم الكحالة من الهند واليونان والرومان. وكما فعلوا في علم الجراحة، من حيث تطويره وتطوير الأدوات التي استخدمت فيه، قاموا بتطوير نوع من العمليات لم يرثوه عن أحد من الأمم الأخرى؛ فقد برعوا في قدح الماء الأزرق من العين مع الصعوبة التي تكتنف إجراء مثل هذه العملية حتى اليوم، وكانت نتائج هذه العمليات مضمونة[1].

وإلى جانب ما توصلوا إليه من إجراء العمليات الجراحية لقدح الماء الأزرق، أجروا عمليات جراحية لقدح الماء الأبيض (الساد). وابتكروا فيها ست طرق كانت إحداها بوساطة المص، وكانوا يستخدمون في ذلك أنبوبًا زجاجيًّا رقيقًا يدخلونه من مقدمة العين ويفتتون به العدسة المعتمة ثم تمتص هذه العدسة بعد ذلك. وكانت هذه العملية أحدث عملية جراحية لعلاج الساد آنذاك. وهناك شبه كبير من حيث المبدأ بين تلك العملية والعملية المتطورة التي تجرى الآن رغم الفارق في المعدات.

كما ألف المسلمون العديد من الكتب في طب العيون وجراحتها ومداواتها، ومن أشهر كتب الكحالة: كتاب (عشر مقالات في العين) لحنين بن إسحاق، ويعدّ هذا الكتاب نقطة الانطلاق في علم الكحالة عند المسلمين[2].

---

(١) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ١٢٨.

وقد تطورت الكحالة على يد اثنين من أشهر الكحالين المسلمين هما أبو القاسم عمار بن علي الموصلي (ت ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م) وعلي بن عيسى الكحال (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م). وكان الأول خبيرًا في طب العيون وإجراء العمليات الجراحية، وهو من أكثر أطباء العيون المسلمين ابتكارًا، وألّف كتابًا في أمراض العيون ومداواتها اسمه المنتخب في علاج أمراض العين، وقد مارس مهنته في القاهرة. أما علي بن عيسى فقد اشتهر إلى جانب حذقه مهنة الكحالة بكتابه المعروف تذكرة الكحالين، ومارس مهنته في بغداد، ويعتبره المستشرقون أكبر طبيب للعيون أنجبته العصور الوسطى، وترجموا كتابه إلى اللاتينية مرتين وإلى العبرية.

وبيّن ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء أن كتاب علي بن عيسى يحتوي على ثلاث مقالات: الأولى في حد العين وتشريحها، وطبقاتها، ورطوباتها، وأعصابها، وعضلاتها، ومن أين نبات كل طبقة منها، ومن أين يأتي غذاؤها، وإلى أين انتهاؤها، وأين موضعها ومنفعتها. أما المقالة الثانية ففي أمراض العين الظاهرة للحس، وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها. والمقالة الثالثة في أمراضها الخفية عن الحس وعلاماتها وعلاجاتها ونسخ أدويتها. أما مجموع ما ألفه من كتب في طب العيون فيبلغ ٣٢ كتابًا. وبلغ مجموع ما وصفه من أمراض العيون في (تذكرة الكحالين) وحده ١٣٠ مرضًا[١].

ومن المراجع المهمة المحيطة في أمراض العيون كتاب صلاح الدين بن يوسف الكحّال واسمه (نور العيون وجامع الفنون) صنفه حوالي سنة (٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، وقد قسمه إلى أبواب في: وصف العين، والبصر، والأمراض، وأسبابها وأعراضها، وحفظ صحة العين، وأمراض الجفون، والملتحمة، والقرنية، والحدقة، وأمراض العين التي لا تقع تحت الحواس، وأدوية العيون. أما أفضل من كتب عن العين من

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢٦٣.

حيث الجانب الفيزيائي فهو الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، وامتاز وصفه للعين بالدقة، كما بحث في قضايا البصريات وفي طبيعة النظر، وقال: «إن النور يدخل العين لا يخرج منها، وأن شبكية العين هي مركز المرئيات، وأن هذه المرئيات تنتقل إلى الدماغ بوساطة عصب البصر، وأن وحدة النظر بين الباصرتين عائد إلى تماثل الصور على الشبكيتين». ومن الكتب التي اشتهرت كتاب ألفه أحد أطباء العيون في مصر، وهو القاضي فتح الدين أبو العباس القيسي (ت ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م) وكان يلقب برئيس الأطباء المصريين، ويحتوي كتابه على ١٥ فصلاً في علم الرمد، وكذلك كتاب (الكافي في الكحل) لخليفة بن أبي المحاسن الحلبي، وألفه بين عامي (٦٥٤- ٦٧٤هـ/ ١٢٥٦- ١٢٧٥م)[1].

* * *

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية الإصدار الرقمي الإلكتروني. وللمزيد في ذلك انظر: فرات فائق خطاب: الكحالة عند العرب ص٤٣ وما بعدها.

المبحث الرابع
طـــب الأطفـال

على الرغم من أننا لا نجد في أطباء المسلمين من اقتصر تخصصه على طب الأطفال، إلا أنهم -لا شك- كانوا ملمين إلمامًا طبيًا بهذا النوع من الطب إلى جانب درايتهم وتخصصاتهم الطبية الأخرى، ومنهم من اشتغل وكتب في هذا الحقل؛ فمنهم من بحث بطرفٍ في علم الأجنة، والأمراض الوراثية، وهناك من وضع كتابًا خصصه للمولودين في سبعة أشهر وكيفية رعايتهم، كما بحثوا في الإرضاع والمرضع.

فقد اهتم الأطباء المسلمون بمراحل حياة الطفل منذ مولده، ولم يختلف تقسيمهم هذا كثيرًا عن تقسيم المحدثين، وتعرضوا لذكر أطوار الجنين في بطن أمه، وكيفية العناية به حالما يخرج إلى الحياة. كما حظي موضوع إرضاع الأطفال بنصيب وافر من العناية، فقد كتبوا فصولاً كثيرة في الخصائص التي ينبغي أن تتوافر في المرضع، ولبنها، وما عليها أن تتبعه من غذاء حتى يظل لبنها مغذيًا وصحيًا. وتحدثوا عن الأمراض التي تصيب الأطفال؛ كالإسهال والربو والبول في الفراش، والتشنج، والحَوَل، والقروح، والخراجات، والبثور، والتسنين، والقلاع، وأنواع الديدان، والأعصاب (شلل الأطفال)، والحُمَّيَات بأنواعها، والكزاز، وآلام الأذنين والعينين[1].

ويعتبر كتاب الطبيب العربي أبي الحسن أحمد بن محمد الطبري (ت ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) من أقدم المخطوطات الموجودة في طب الأطفال؛ نظرًا لعدم توافر نسخة

(١) انظر: الرازي: رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم، ترجمة محمود الحاج قاسم، ص٩٨.

عربية من مؤلف الرازي السابق، الذي توجد له ترجمات بالإيطالية والإنجليزية، وقديمًا بالعبرية واللاتينية[1].

وإلى جانب اهتمام الأطباء المسلمين وعنايتهم بالأطفال الذين يولدون لسبعة أشهر، اهتموا كذلك بالمواليد منذ الوهلة الأولى لمقدمهم، ولا يختلف كلام ابن سينا في هذا الصدد كثيرًا عمّا يستقبل به الطفل في المستشفيات الحديثة؛ فيذكر ابن سينا في الفصل الأول من الكتاب الأول من (**القانون**) أن أول ما يجب على الطبيب عمله أن يبدأ بقطع السُّرة نحو أربع أصابع ويغسل جسمه، ويلبس ويقطِّر في عينيه وينظف منخره، وينبغي أن يوضع في مكان معتدل الهواء ليس ببارد ولا حار... ويجب أن يكون إحمامه بالماء المعتدل صيفًا وبالماء المائل إلى الحرارة غير اللاذعة شتاءً... ثم يقطر في أنفه الزيت العذب[2].

وأجمع الأطباء المسلمون على أن لبن الأم أفضل أنواع الحليب للطفل، وهذا ما يقرره الطب الحديث. وتطرقوا إلى نوع الغذاء الذي ينبغي أن تتناوله المرضع أثناء فترة الرضاعة، بحيث يكون ما تتناوله ذا قيمة غذائية متوازنة ومدرًّا للبن، فيجب أن يُعتنى بغذائها فيجعل من الحنطة ولحوم الخرفان والجداء والسمك، كما نصحوا المرضع بالتوقف عن الإرضاع في أحوال معينة؛ كتعرضها لمرض مؤلم أو مُعدٍ، أو إسهال شديد، أو احتباس للبول أو إمساك. كذلك تتوقف عن الرضاعة إذا أدت الضرورة أن تتناول دواء قوي المفعول حتى لا يتأثر الطفل بذلك[3]، وهذا ما يؤيده الطب الحديث.

أما مدة الإرضاع فقد حدّدوها بعامين، ولعلهم اهتدوا في ذلك بما ورد في

---

(١) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) ابن سينا: القانون في الطب ١/ ٢٠٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٠٥.

القرآن ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[1]، واشترطوا أن يكون الفطام في موسم اعتدال الطقس، فلا يكون في الصيف القائظ ولا الشتاء القارس. وهذا ما يؤيده الطب الحديث أيضًا؛ إذ إن ذلك يجنِّب الطفل الإصابة بالنزلات المعوية، حيث تقل كفاءة الجهاز الهضمي للطفل.

ويجب أن يكون الفطام تدريجيًّا كما يقول ابن سينا: «إذا جعلت ثناياه تظهر، نُقِل إلى الغذاء الذي هو أقوى بالتدريج من غير أن يعطى شيئًا صلب المضغ، ثم إذا فطم نقل إلى ما هو من جنس الحساء واللحوم الخفيفة، ويجب أن يكون الفطام بالتدريج لا دفعة واحدة».

كما أشاروا إلى أنه ينبغي إذا تدرّب الطفل على المشي فلا يُمَكّن من الحركات العنيفة، «ولا يجوز أن يحمل على المشي والقعود قبل انبعاثه إليه بالطبع؛ فيصيب ساقيه وصلبه آفة»[2].

* * *

(١) (البقرة: ٢٣٣).

(٢) ابن سينا: القانون في الطب ١/ ٢١٠.

المبحث الخامس
النســـاء والولادة

تناول الأطباء المسلمون الأمراض التي تعرض للنساء تناولاً ينمّ عن سعة اطِّلاع وعمق استنتاج؛ فقد تحدّثوا عن اضطرابات الطمث والدورة الشهرية، والآلام المرافقة لذلك، وتشريح الرحم وأمراضه. وكتب الرازي في أمراض النساء والولادة، وضمَّن ابن سينا الجزء الثالث من قانونه الحادي والعشرين كلامًا مفصلاً عن أمراض النساء والولادة بما في ذلك مختلف الأمراض التي تعرض للرحم ومسبباتها، والحامل وما يعتريها أثناء الحمل والولادة. ونجد في الفصل الأول من المقالة الأولى وصفًا تشريحيًّا دقيقًا للرحم، وأنه «آلة التوليد التي للإناث... وليس يستتم تجويفها إلا عند استتمام النُّمو... لأنه يكون قبل ذلك معطلاً ولا يحتاج إليه... وموضعها خلف المثانة... ومن قدّام المِعَى، وطولها المعتدل في النساء ما بين ستة أصابع إلى أحد عشر إصبعًا... والرحم تغلظ وتثخن وكأنها تسمن، وذلك في وقت الطمث، ثم إذا طهرت ذبلت ويبست. ولها أيضًا ترفق مع عظم الجنين، وانبساطها بحسب انبساط جثة الجنين. ورقبة الرحم عضلية وفيها مجرى محاذية لفم الفرج... ومنها تبلغ المني، وتقذف الطمث، وتلد الجنين، وتكون في حالة العلوق في غاية الضيق»[1].

وشرح ابن سينا وغيره آلية الولادة وكيفية خروج الجنين طبيعيًّا بنزول رأسه أولاً، والولادة غير الطبيعية (القيصرية) بخروج الرجلين أولاً، وقد أجرى الأطباء المسلمون عمليات قيصرية ناجحة، وكتبوا عن العقم وأسبابه، وعزوه إلى أسباب في الرجل وأسباب في المرأة. وعزاه ابن سينا إمّا لسببٍ «في مني الرجل أو مني المرأة،

(١) ابن سينا: القانون في الطب ٢/ ٧٥٤.

وإما في أعضاء الرحم، وإما في أعضاء القضيب وآلات المني. أو السبب في المبادئ، كالغم والخوف والفزع، وأوجاع الرأس وضعف الهضم والتخمة، وإما لخلط طارئ»[١].

وقالوا: إن من العقم ما يعود إلى العوائق الآلية في عنق الرحم من تشنج أو تضييق أو بسبب ندب، أو انسداد، أو انقطاع الطمث، أو انقلاب الرحم، أو أمراض الرحم من ورم وقروح وزوائد لحمية. ومن هذا القبيل ما قال به ابن سينا: «أما السبب في الرحم فإما سوء مزاج مفسد للمني أو مُضْعِف للقوة الجاذبة للمني... أو مانع إياه عن الوصول لانضمام من الرحم، أو التحام من قروح أو لحم زائد ثُؤْلولي... أو يعرض للمني في الرحم الباردة الرطبة، ما يعرض للبذور في الأراضي النزَّة، وفي المزاج الحار اليابس ما يعرض في الأراضي التي فيها نورة مبشوشة، وإما لانقطاع المادة وهو دم الطمث... وإما لميلان فيه (أي الرحم)، أو انقلاب... أو لشدة هزال البدن... أو آفة في الرحم ومن ورم وقروح... وزوائد لحمية مانعة». أما السبب عند الرجل فقد أرجعوه إلى ضعف أوعية المني أو ضعف قوتها المولدة للمني، أو بسبب قصر القضيب نفسه، أو لاعوجاجه فلا يزرق المني في فم الرحم.[٢] والمتمعن في كل ما سبق، يجد أن معظم ما وصفه الأطباء المسلمون من أسباب للعقم، قال بها العلم الحديث وزاد عليها من واقع التطور.

وقد بحث الأطباء المسلمون أيضًا في الحمل والوضع، وتطور الجنين داخل الرحم بعد الإخصاب، وشكاوى الحمل ومخاطره والتغيرات التي تطرأ على الحامل، ووجوب مكافحة الإمساك بالملينات لا المسهلات، وأنواع الأطعمة التي ينبغي أن تتناولها الحامل، والابتعاد عن اضطرابات المعدة، وبضرورة ممارسة نوع

(١) انظر: ابن سينا: القانون في الطب ٢/ ٧٦٢.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٦٣.

من الرياضة المعتدلة المتمثلة غالبًا في المشي دون إفراط، واجتناب الحركة المفرطة، والوثب، والضرب، ومراعاة الجانب النفسي لديهن، «ولا يورد عليهن ما يغمهن ويحزنهن، ويبعد عنهن جميع أسباب الإسقاط وخصوصًا في الشهر الأول... ويجب أن تشتد العناية بمعدتهن»[1].

كما شخصوا أعراض ما نسميه الآن بالحمل الكاذب (الرحا). وبيّنوا الصفات التشريحية المرضية له، فمثلاً يقول ابن سينا: «إنه ربما تعرض للمرأة أحوال تشبه أحوال الحبالى من التباس دم الطمث وتغيير اللون وسقوط الشهوة، وانضمام فم الرحم. ويعرض انتفاخ الثديين وامتلاؤهما وربما عرض تورمهما، وتحس في بطنها بحركة كحركة الجنين وبحجم كحجم الجنين... وربما عرض طلق ومخاض ولا يكون مع ذلك ولد؛ وربما كان السبب فيه تمددًا وانتفاخًا في عروض الطمث، ولا تضع شيئًا»[2].

وتحدث الأطباء المسلمون عن عسر الولادة، وبينوا أن ذلك يعود إلى واحد من:

١- الحامل. ٢- الجنين. ٣- الرحم. ٤- القابلة. ٥- أسباب أخرى.

وبينوا تفاصيل مسئولية كل واحد منها في عسر الولادة. وبحثوا في أنواع أمراض الرحم من أورام حميدة وخبيثة، وهبوط الرحم وتشوهاته وسيلاناته ونزفه. ولم تغب عنهم الأدوية التي تعالج كلاً من هذه الأمراض، سواء أكانت عقاقير عشبية، أم حِمْيات غذائية أو أبخرة أو مسهلات منقية. وتكلم ابن سينا بإسهاب عن آفات وضع الرحم وأورامها، ونتوء الرحم وانقلابها وميلانها واعوجاجها، وكذلك الورم الحار في الرحم والورم البلغمي والورم الصلب[3].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٧٧١.

(٢) السابق نفسه ٢/ ٧٨١.

(٣) انظر: ابن سينا: القانون ٢/ ٥٩١-٥٩٨.

المبحث السادس
الطـــب النفســـي

لقي الطب النفسي والعقلي في تاريخه المتعثر الطويل الكثير من الإنكار والجحود فاق غيره من فروع العلوم الطبية، إلا أن ما أسداه الأطباء والعلماء المسلمون لهذا العلم بلغ من العظمة ما لا يتسع لسرده كتاب، في الوقت الذي كان الجنون يعدّ في أوربا من الأمراض الشيطانية، وفي الوقت الذي كان الأوربيون يقيِّدون المجانين بسلاسل، وكانوا يعالجونهم بالضرب عند ارتفاع أصواتهم بالصراخ[1]!!

فإن الطب عند المسلمين لم يقتصر على العلاج العضوي فحسب، بل تعدّاه إلى العلاج النفسي، فكان الأطباء المسلمون يرون الوهم والأحداث النفسية من العلل التي تؤثر في البدن؛ وقد خصص الأطباء جناحًا في كل مستشفى كبير للأمراض العصبية والعقلية[2].

وأشار الرازي إلى أهمية العامل النفسي في العلاج، وكان أول طبيب يتوصل إلى الأصول النفسية لالتهاب المفاصل الروماتيزمي، وقد فرّق بينه وبين مرض النقرس، وقرر أنه مرض جسدي في ظاهره إلا أنه ناشئ عن الاضطرابات النفسية، وأن أكثر من تظهر عليهم هذه الأعراض من أولئك الذين يكظمون الغيظ؛ وبتراكمه يتعرضون لهزات نفسية كبيرة. بل إن الرازي رأى أن بعض أنواع سوء الهضم تنشأ عن أسباب نفسية؛ فقد يكون لسوء الهضم أسباب بخلاف رداءة الكبد والطحال، منها حال الهواء والاستحمام ونقصان الشرب، وكثرة إخراج الدم والجماع والهموم النفسانية.

---

(١) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢١٧.

(٢) انظر: رحلة ابن جبير ص١٩، ٢٠.

وينبغي للطبيب أن يوهم المريض بالصحة ويُرجّيه بها، وإن كان غير واثق بذلك؛ فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس(١).

وقد كتب بعض الأطباء رسائل ومؤلفات في الصحة النفسية، فكتب ابن عمران كتابًا عن المالنخوليا، كما كتب ابن ميمون (ت ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) رسالة سماها(الرسالة الأفضلية) تبحث في الحالات النفسية المختلفة؛ كالغضب والسرور والحزن، وأثرها في الصحة، وأشار إلى أن علاجها يتم برياضة النفس وتقويتها. وتدل هذه الرسالة على أنه قد أدرك فائدة تسخير قُوى النفس في علاج أمراض البدن(٢).

وليس بعيدًا أن يكون هناك أطباء عرفوا مبادئ التحليل النفسي ووقفوا من خلاله على عدد من الحقائق المرضية؛ فنجد أن ابن سينا قد عالج في جرجان فتًى بعد أن استعصى علاجه على جميع الأطباء، وتوصل عن طريق الاستقصاء إلى أن الفتى لم يكن به أي مرض عضوي، وأنه مشغوف بإحدى فتيات حي معين. وبملاحظة اضطراب نبض الفتى توصل ابن سينا لمعرفة اسم الحي واسم الفتاة(٣).

ونظير ذلك ما تردد من قصة علاجه أحد أمراء بني بويه الذي كان قد أصيب بمرض عصبي امتنع معه عن تناول الطعام، وتوهم أنه صار بقرة وينبغي ذبحه. فلما عُرِض عليه أخذ شفرة حادة، وتقدم نحو الأمير وأضجعه موهمًا إياه أنه يريد ذبحه وهو مستسلم. وعند لحظة معينة صاح ابن سينا بصوت مرتفع: «هذه بقرة نحيفة هزيلة، أعلفها أولاً حتى تسمن». وهنا بدأ الأمير في الأكل بشراهة، وكان ابن سينا يدسّ في طعامه الدواء حتى تم له الشفاء(٤).

---

(١) انظر: الرازي: منافع الأغذية ص١٨.

(٢) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢١٨، ٢١٩.

(٣) انظر: السابق ص٢٣١.

(٤) القصة عند: النظامي العروضي السمرقندي: كتاب جهار مقالة ص٨٥، وراجع محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٢٧.

وقد عزا ابن سينا بعض حالات العقم إلى عدم التوافق النفسي بين الزوج والزوجة، وممن اهتموا بالبحث في الأمراض النفسية أبو البركات هبة الله ابن ملكا (ت ٥٦١هـ/ ١١٦٥م). وقد حاول جادًّا استحداث علاج لها، ونجح في ذلك إلى حدٍّ أدهش علماء الطب في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وصارت نظرياته في هذا الميدان متداولة بين أطباء العالم في زمانه.

* * *

المبحث السابع
الأمراض والعلاجات

للمرء أن يتخيل القدر الكبير من الأمراض المستوطنة والطارئة في أمة امتدت حدودها من الصين شرقًا إلى الأندلس (إسبانيا) غربًا. هذا إلى جانب المسمَّيات العديدة للمرض الواحد، وذلك باختلاف الأمصار التي حلّ بها المسلمون.

فعلى سبيل المثال يذكر ابن العين زربي (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) في خاتمة مقالته عن الشقفة -ويسمَّى الآن الجمرة والخزفة-: «اعلم أن هذا المرض الذي شاهدناه يعرض في أكثر البلاد مثل أرض الشام والعراق وخراسان ومصر وأرض المغرب، ويسمونه بالشقفة، وقد يسمونه خزفة، وقد يسمى بأرض المغرب إسفنجة، وإنما هو ورم حار... يبتدئ صغيرًا كالدُّمَّل... ثم تتفقأ تلك البثور...» [(١)].

وقد عرَّف الأطباء المسلمون المرض بأنه حالة يكون فيها العضو في الجسم فاشلاً جزئيًّا أو كليًّا عن أداء وظيفته. وحصروا أسباب الأمراض وأعراضها. ومعظم من صنف منهم في الأمراض العامَّة وعلاجها، كان يبدأ من أمراض الرأس متنقلاً عبر الجسم حتى يصل القدم. أما الذين كتبوا كتابات تخصصية فكانوا يكتبون إما عن مرض بعينه وكيفية علاجه، أو عما يصيب عضوًا معينًا في الجسم كالأمراض التي تصيب الرأس، والتي تعرض للعين أو الأذن أو البطن... إلخ. فعلى سبيل المثال، كتب ابن العين زربي حول الأمراض الجلدية وتناول فيها تناول مرض الشقفة، وهي الآن تعدّ من القروح الناتجة عن إصابة الجلد بعدوى جراثيم المكورات العنقودية (نوع من البكتيريا) [(٢)].

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية الإصدار الرقمي الإلكتروني.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٤/ ٤٢٧.

ومن أمثلة التصانيف المتخصصة كتاب (عشر مقالات في العين) لحنين بن إسحاق، ويذكر فيه الأمراض التي تصيب العين والأدوية التي تعالج هذه الأمراض وأنواعها؛ المفردة منها أو المركبة، وطريقة تحضير المراهم[1].

ويورد الرازي في كتابه (الحاوي) نماذج مما ينبغي اعتماده في تشخيص الأمراض من مثل «جس النبض، ومراقبة درجة الحرارة، والرَّعشة، واحتقان الوجه، والعينين، والتنفس، والأظافر»[2]. أما ابن سينا فيُولِي في (القانون) أهمية لفحص البول وتغيُّر لونه، ومدى صفائه ورائحته، ويوصي الأطباء في المستشفى بضرورة مراقبة المريض بدقة، وتدوين الملاحظات التي تطرأ عليه، وتعليق البيانات على سريره[3].

وفي مجال العلاج النفسي، ركزوا على ضرورة دراسة الأحوال العائلية والمادية والاجتماعية للمرضى، وكان علي بن عيسى البغدادي يستقصي تاريخ المرض عند المريض بسؤاله عن الأمراض التي أصيب بها في حياته.

ويصف الرازي مرض ذات الجنب وذات الرئة وكيفية مداواتها، وفرّق بين الألم الذي يسببه القولنج والذي تسببه الكُلَى، وعالج التهاب اللوزتين[4]. كما ميّز ابن سينا بين الشلل الناجم عن سبب مركزي في الدماغ، والآخر الناجم عن سبب محلي خارج الدماغ، وميّز بين الالتهاب السحائي الحاد والثانوي. وشخّص الالتهاب الرئوي، والأمراض المختلفة التي تعرض للكبد، ووصف المغص المعويّ والكلوي[5].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ١٢٨.

(٢) الرازي: الحاوي ٧/ ٧١، ٧٢.

(٣) انظر: ابن سينا: القانون ١/ ١٩٧.

(٤) انظر: الرازي: الحاوي ٢/ ٧.

(٥) انظر: ابن سينا: القانون ٢/ ٣٦٩-٣٧١.

وقد عالج الأطباء المسلمون الشلل والنزف بالأدوية المبردة وبالماء البارد. وعالجوا خلع الكتف بطريقة تشبه إلى حدٍّ كبير الطريقة الجراحية الحديثة. وكان لسان الدين بن الخطيب أول من أشار إلى أن الطاعون مرض مُعْدٍ، ينتقل عن طريق العدوى من شخص إلى آخر. ويتبين من مؤلفات ابن التميمي أنه عمل عدة معاجين ولباخ طبية ودخنًا دافعًا للوباء، وكان هذا الدخن الدافع للوباء هو الذي أوحى للأطباء -فيما بعد- بفكرة استعمال التبخير لقتل الجراثيم. وكان للأطباء المسلمين السبق العلمي حين وصفوا الجذام، وأمراض العيون، واستعمال الماء البارد في علاج التيفوئيد.

واتبع الأطباء المسلمون إلى جانب العزل في المستشفيات أساليب متنوعة أخرى في العلاج؛ فكانوا يدرسون سير المريض اليومي، ويلاحظون المريض من حيث تنفسه ولون بوله ورواسبه وبرازه، ونبضه، ولون جلده وأظافره، وقياس درجة حرارته، ويراقبون تقدم حاله مع استخدام العلاج الموصوف؛ كل هذا يُعرف اليوم بـ«الفحص السريري».

ويعدّ الرازي أول من وصف الجدري والحصبة بوضوح، ويعتبر كتابه (الحاوي) بمنزلة سجل دقيق لملاحظاته على مرضاه وسير المرض لديهم. كما أن ابن زُهْر كان أول من وصف خُرّاج الحيزوم والتهاب التامور الناشف والانسكابي، وكان دقيق الوصف للحوادث السريرية. والأطباء المسلمون أول من لفتوا الأنظار إلى شكل الأظافر لدى مرضى السل[1].

وكان ابن سينا في كتابه (القانون) في الفصل الخاص بالديدان المعوية، أول من أشار إلى دودة الإنكلستوما والمرض الذي تسببه، والذي سمّاه الرهقان

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الرقمي الإلكتروني.

(الإنكلستوما). وقد سمى ابن سينا هذه الدودة باسم الدودة المستديرة، وهي التي أعاد دوبيني اكتشافها في إيطاليا عام (١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م). ووصف ابن سينا مرض الفيل (الفيلاريا) وانتشاره في الجسم، كما كان أول من وصف النار الفارسية[١] (الجمرة الخبيثة)[٢].

ويُحمد للأطباء المسلمين تمييزهم بين الأمراض ذات الأعراض المتشابهة؛ مما ساعدهم على علاجها، فقد ميزوا بين الالتهاب الرئوي والتهاب البلورة، وبين الأخير والتهاب الحجاب الحاجز، وبين الالتهاب السحائي الأولي والثانوي، وبين المغص المعوي والكلوي، وبين الشلل الناتج عن سبب مركزي والناتج عن سبب خارجي.

وقد حافظ الأطباء المسلمون في كتاباتهم عن الأمراض العقلية وعلاجها على روح علمية صادقة تؤازرها الملاحظة والتجرِبة، فلم يعزوا -كما فعل أطباء الحضارات التي سبقتهم- تلك الأمراض إلى التأثيرات الخارجة عن النطاق الطبيعي؛ كعمل الأرواح الشريرة التي أتت بهذه الأمراض عقابًا لآثام البشر، بل نجد استقراء وتشخيصًا ومعالجة في الحدود الطبيعية لجسم المريض وظروفه البيئية والاجتماعية التي تؤثر فيه[٣].

وهكذا كانت أبرز إسهامات وإنجازات المسلمين في العلوم الطبية.. تلك التي فاقت إمكانات عصرها، وظلت آثارها باقية وشاهدة على مدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في هذا المجال.

---

(١) النار الفارسية: اسم يطلق على كل بثر أكال منفط محرق، انظر: ابن سينا: القانون في الطب ٣/ ١٥٩.

(٢) ابن سينا: القانون في الطب ٣/ ١١٨.

(٣) انظر: العلوم عند العرب والمسلمين، الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الرقمي الإلكتروني.

الفصل الرابع

المستشفيات في الحضارة الإسلامية



كما رأينا فإن إسهامات المسلمين في مجال الطب لا تُحصى.. ولعل من أجَلِّ هذه الإسهامات وأعظمها غير ما سبق أن المسلمين هم أول من أسسوا المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقوا غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!!

فقد أُسِّس أول مستشفى إسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، الذي حكم من سنة ٨٦هـ إلى سنة ٩٦هـ، وكان هذا المستشفى متخصصًا في الجذام[١]، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأوًا عظيمًا، حتى كانت هذه المستشفيات تُعدّ قلاعًا للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم.. بينما أُنشِئ أول مستشفى أوربي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!!

وكانت المستشفيات تُعرف بـ(البيمارِسْتانات)، وكان منها **الثابت ومنها المتنقّل**؛ فالثابت هو الذي يُنشَأ في المدن، وقلَّما تجد مدينة إسلامية -ولو صغيرة- بغير مستشفى، أما المستشفى المتنقل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحارى والجبال..!!

وكانت المستشفيات المتنقّلة تُحمَل على مجموعة كبيرة من الجِمال (وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملاً!! وذلك في عهد السلطان محمود السلجوقي، الذي حكم من سنة ٥١١هـ إلى سنة ٥٢٥هـ)، وكانت هذه القوافل مُزوَّدة بالآلات

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٩.

العلاجية والأدوية، ويرافقها عدد من الأطباء، وكان بمقدورها الوصول إلى كل رقعة في الأمة الإسلامية[1].

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًّا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفى العضُدي ببغداد الذي أنشئ في سنة ٣٧١هـ، والمستشفى النوري بدمشق الذي أنشئ في سنة ٥٤٩هـ، والمستشفى المنصوري الكبير بالقاهرة الذي أُنشئ سنة ٦٨٣هـ، وكان بقرطبة وحدها أكثر من خمسين مستشفى[2]!!

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقسّم إلى أقسام بحسب التخصص؛ فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور وغيرها.

ولم تكن تلك المستشفيات مجرد دور علاج، بل كانت كلّيات طب حقيقية على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصص (الأستاذ) يمرُّ على الحالات في الصباح، ومعه الأطباء الذين هم في أولى مراحلهم الطبية، فيعلّمهم، ويدوّن ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يراقبون ويتعلمون، ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله الطلاب فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضّح، ويجيب عن أسئلتهم.. بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل برنامج تعليمي معين ينتهون من دراسته، ومن ثَمَّ يعطيهم إجازة في الفرع الذي تخصصوا فيه.

وكانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عددًا هائلاً من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلة وعلم التشريح ووظائف الأعضاء.. إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهمّ الطبيب.

---

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص٤٠٥.

(٢) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٣٢٨، ٣٢٩.

ومما يذكر على سبيل المثال -لنعرف ضخامة هذه المكتبات- أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كانت تضم بين جنباتها أكثر من مائة ألف كتاب!!

وكانت تُزرَع -إلى جوار المستشفيات- المزارع الضخمة التي تنمو فيها الأعشاب الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفى بما يحتاجه من الأدوية.

أما الإجراءات التي كانت تُتخذ في المستشفيات لتجنُّب العدوى فكانت من نوع خاص فريد؛ فكان المريض إذا دخل المستشفى يُسلِّم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعطَى ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرض، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختص بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضًا، وينام كل مريض على سرير خاص به، وعليه ملاءات جديدة وأدوات خاصة!!

قارنْ كل ذلك بالمستشفى الذي أُنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون، حيث كان المرضى يُجبرون على الإقامة في عنبر واحد، وذلك بصرف النظر عن نوعية أمراضهم، بل ويُضطرون لنوم ثلاثة أو أربعة، وأحيانًا خمسة من المرضى على سريرٍ واحد!! فتجد مريض الجدري إلى جوار حالات الكسور إلى جوار السيدة التي تلد!! كما كان الأطباء والممرضون لا يستطيعون دخول العنابر إلا بوضع كمّامات على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العنابر! بل كان الموتى لا يُنقلون إلى خارج العنابر إلا بعد مرور أربعٍ وعشرين ساعةً على الأقل من الوفاة!! ولك أن تتخيل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى[1]!!

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٦، ١١٧.

وإذا أردنا أن نستعرض بعضًا من المستشفيات الرائدة في التاريخ الإسلامي، فكان من أعظمها: **المستشفى العضُدي**، الذي أنشأه عضد الدولة ابن بويه عام ٣٧١هـ في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة وعشرون طبيبًا، تزايدوا بعد ذلك جدًّا. كما كان يضم مكتبة علمية فخمة وصيدلية ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظفين والفرَّاشين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفى أربعًا وعشرين ساعة يوميًّا.

ومن المستشفيات الإسلامية العظمى أيضًا: **المستشفى النوري الكبير** بدمشق، الذي أنشأه السلطان العادل نور الدين محمود الشهيد – رحمه الله–، وذلك في سنة ٥٤٩هـ، وكان من أجَلّ المستشفيات وأعظمها، واستمر في العمل فترة طويلة جدًّا من الزمان، حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) أي قُرابة ثمانمائة سنة!!

كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: **المستشفى المنصوري الكبير**، الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون – رحمه الله– في القاهرة، وذلك سنة ٦٨٣هـ، وكان آية من آيات الدنيا في الدقة والنظام والنظافة، وكان من الضخامة بحيث إنه كان يعالج في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض!!

ولا ننسى في هذا المضمار **مستشفى مراكش**، الذي أنشأه المنصور أبو يوسف يعقوب – رحمه الله–، ملك دولة الموحدين بالمغرب، والذي حكم من ٥٨٠هـ إلى ٥٩٥هـ، وكان بناء هذا المستشفى آية من آيات الإتقان والروعة! فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة!! وكان على مستوى عالٍ جدًّا من حيث الإمكانيات الطبية والأدوية الحديثة والأطباء المهرة[1].

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠-١١٨.

لقد كان -بحق- درّة في جبين الأمة الإسلامية.

ليس هذا فقط، بل كانت هناك **المستشفيات المتخصصة**، التي لا تعالج إلا نوعًا معينًا من الأمراض؛ كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك.

وأعجب منه وأغرب: أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدَّث ابن جبير -رحمه الله- في رحلته التي قام بها في سنة ٥٨٠هـ تقريبًا، أنه رأى في بغداد -عاصمة الخلافة العباسية- حيًّا كاملاً من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وقفًا على المرضى، وكان يؤمّه الأطباء من مختلف التخصصات، فضلاً عن الصيادلة وطلبة الطب، وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها الأغنياء من الأمة لعلاج الفقراء وغيرهم[(١)].

وبعد، فهذه نماذج أربعة من مئات المستشفيات التي كانت منتشرة في شرق العالم الإسلامي وغربه، يوم كانت أوربا تتيه في ظلام الجهل، ولا تعرف شيئًا من هذه المستشفيات ودقتها ونظافتها وسموّ العاطفة الإنسانية فيها. وإليك ما قاله المستشرق الألماني ماكس مايرهوف عن حالة المستشفيات في أوربا في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناها... قال الدكتور ماكس: إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درسًا قاسيًا مُرًّا لا نقدره حق قدره إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوربا في ذلك الزمن نفسه. مرّ أكثر من ثلاثة قرون على أوربا، اعتبارًا من زمننا هذا، قبل أن تعرف للمستشفيات العامة معنى، ولا نبالغ إذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن

(١) المصدر السابق ص١٠١.

عشر (١٧١٠م) والمرضى يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة كانت المستشفيات الأوربية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومأوى لمن لا مأوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين.

وقالت زيجريد هونكه: «إن كل مستشفى مع ما فيه من ترتيبات ومختبر، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أيامنا هذه، إنما هي في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقرية العربية، كما أن كل حَبَّة من حبوب الدواء، مذهَّبة أو مسكَّرة، إنما هي - كذلك- تذكار صغير ظاهر، يُذكِّرنا باثنين من أعظم أطباء العرب[١]، ومُعلِّمي بلاد الغرب»[٢].

ونختم هذا الحديث بالنتائج التي نحب أن نلفت الأنظار إليها بعد هذه المقارنات، أننا في حضارتنا كنا أسبق من الغربيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل، وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة إنسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم، وأننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدًّا لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم؛ حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمرضى بالمجَّان، بل حين كنا نعطي الفقير الناقه من المال ما ينفق على نفسه حتى يصبح قادرًا على العمل.. إن هذه نزعة إنسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة، فأين نحن منها اليوم؟! وأين منها هؤلاء الغربيون؟!



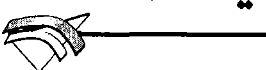
---

(١) تُريد: ابن سينا والرازي.

(٢) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٢٣٤.

الفصل الخامس

البعد الإنساني للطب عند المسلمين



بعدما رأينا إنجازات وإبداعات المسلمين في مجال العلوم الطبية، نلفت النظر في هذا الفصل إلى بُعدٍ رائع ومهم، تميَّز به الأداء الطبي عند المسلمين في زمن حضارتهم؛ ذلكم هو البعد الإنساني، والذي يكمن في احترام الإنسان بصفة عامَّة، والسعي الحثيث لرفع المعاناة والألم والحرج عنه، أيًّا كان هذا الإنسان، وأيًّا كانت معاناته.

ولم يكن غريبًا على أطباء المسلمين أن يهتمُّوا بالبعد الإنساني في تعاملهم مع المريض؛ لأن قوانين التشريع الإسلامي تنطق بهذا النهج الأخلاقي الفريد؛ فالإسلام ينظر إلى المريض على أنه إنسان في أزمة، ومن ثم يحتاج إلى من يقف إلى جواره، ويأخذ بيده، ويرفع من معنوياته، ويهدِّئ من روعه، ويخفِّفُ عنه آلامه الجسدية، فضلاً عن المعنوية.

فالتشريع الإسلامي يسعى إلى رفع الحرج عن المريض بكل وسيلة، ويخفف عنه الأعباء إلى أقصى درجة؛ فجعل للمريض رخصة الإفطار في نهار رمضان، وإن عاقه اعتلال صحته عن الحج فلا حجَّ عليه وليس عليه إثم، كما أن المريض الذي لا يستطيع الصلاة على صورتها الطبيعية يُعطى رخصة الصلاة في أوضاع تناسبه، جالسًا أو نائمًا أو حتى بعينيه! والمريض الذي يضره الماء في الوضوء يتيمم، والذي لا يستطيع الوضوء ولا التيمم لسبب أو آخر يصلِّي دون أيٍّ منهما، ويُسَمَّى فاقد الطهورين!

حتى في أوقات الجهاد في سبيل الله، رفع التشريع الإسلامي الحرج عن

المريض، فلا يجاهد ولا إثم عليه. يقول ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، [الفتح: ١٧].

بل إن التشريع الإسلامي لم يكتفِ برفع بعض التكليفات، والترخيص في بعض العبادات والفروض، وإنما يحضُّ وبشدَّة على الوقوف إلى جوار المريض، ورفع روحه المعنوية إلى أقصى درجة؛ وفي ذلك فقد جعل رسول الله ﷺ زيارة المريض وعيادته في بيته أو في المستشفى حقًّا له على المسلمين، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ...». وذكر منها: «وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ»[(١)]. وجعل الجنة نصيبًا لمن عاد مريضًا، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً»[(٢)].

وأمر رسول الله ﷺ أن تذكر الخير عند المريض، وأن ترفع من روحه المعنوية، وتُطْمِعَهُ في الشفاء وفي طول العمر، فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَنَفِّسُوا لَهُ فِي الأَجَلِ[(٣)]؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لاَ يَرُدُّ شَيْئًا، وَهُوَ يَطِيبُ بِنَفْسِ الْمَرِيضِ»[(٤)].

بل إن رسول الله ﷺ يرتفع بروح المريض إلى السماء عندما يخبره أن هذا المرض هو كفارة لذنوبه، وهو مدعاة لنجاته في الآخرة إن صبر، فقد روى أبو هريرة ﷺ أن

---

(١) مسلم: كتاب السلام، باب حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢)، وأحمد (٨٨٣٢)، وابن حبان (٢٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٢٥).

(٢) ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا (١٤٤٣)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (٦٣٨٧).

(٣) نفِّسُوا له في الأجل: ارفعوا من أمله في الشفاء وطول الأجل. انظر: السيوطي: شرح سنن ابن ماجه ١/ ١٠٤، والمناوي: فيض القدير ١/ ٤٣٨، والمباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٢٦٣.

(٤) الترمذي: كتاب الطب (٢٠٨٧) وقال: حديث غريب. وابن ماجه (١٤٣٨)، وابن أبي شيبة (١٠٨٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢١٣)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠٨.

رسول الله ﷺ قال: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ[1] وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[2]. ويقول فيما رواه أنس رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ[3] فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ»[4].

وهكذا ترتفع معنويات المريض المؤمن إلى السماء، ولا يشعر بأنه أصبح كمًّا عاجزًا مهملاً في المجتمع، بل إن الجميع يهتم به ويرعاه.

ولم تكن هذه النظرة الإسلامية الراقية للمرضى المسلمين فقط، بل كانت لأي إنسان مريض مهما كانت ديانته، وذلك انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فالإنسان بصفة عامَّة مُكرَّم؛ ولذلك نهتمُّ برعايته حين مرضه، وبعلاجه إذا اشتكى ولو لم يكن مسلمًا؛ وقد زار رسول الله ﷺ غلامًا يهوديًّا عندما مرض[5]، وأفرد البخاري لذلك بابًا خاصًّا في صحيحه فقال: «باب عيادة المشرك».

هذا البعد الإنساني العميق الذي زرعه فينا الشرع الإسلامي الحنيف جعل الأطباء المسلمين في كل عصور الحضارة الإسلامية يتعاملون مع المريض على أنه إنسان، وليس على أنه (شيء لا إحساس له)، ولا على أساس أنه مصدر للرزق عن طريق أخذ الأجر منه، بل كان التعامل معه دائمًا على أنه إنسان في أزمة، ويحتاج إلى

---

(١) الوصب: الوجع اللازم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (الصافات: ٩) أي لازم ثابت، والنصب: التعب. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/ ١٣٠.

(٢) البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في ثواب المرض (٥٣١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣).

(٣) بحبيبتيه: يريد عينيه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ١١٦.

(٤) البخاري: كتاب المرضى باب فضل من ذهب بصره (٥٣٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥٨).

(٥) انظر: البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه؟ وهل يُعرَض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠).

من يقف إلى جواره؛ فلم تكن المساعدة طبية فقط، وإنما تعدَّت ذلك إلى المساعدة النفسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك.

وبهذه الروح النبيلة تعامل الأطباء المسلمون مع مرضاهم، فكانت الخدمة الطبية الراقية تُقَدَّم للمرضى في الدولة الإسلامية دون تفرقة بين غني أو فقير، ولا عربي أو غير عربي، ولا أبيض أو أسود، ولا حاكم ولا محكوم، ولا مسلم أو غير مسلم.. ففي معظم الأحيان كان العلاج مجانيًّا للجميع، وكان المرضى ينعمون بنفس المستوى من الخدمة أيًّا كان مستواهم.

ولنطَّلع معًا على طرف من نظام المستشفيات الإسلامية، والذي يُعطي انطباعًا عن البعد الإنساني الذي نقصده.

فبمجرَّد دخول المريض للمستشفى يُفحص أولاً بالقاعة الخارجية، فإن كان به مرض خفيف يُكتب له العلاج، ويُصرف من صيدلية المستشفى، وإن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يُقيد اسمه، ويُدخل إلى الحمام للاغتسال، وتُخلع عنه ثيابه التي دخل بها فتوضع في مخزن خاصٍّ، ثم يُعطى ثيابًا جديدة خاصة بالمستشفى، ويُدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويُخَصَّص له سرير مفروش بأثاث جيد، ولا يُسمح بوجود مريض آخر معه في نفس السرير مراعاة لنفسيته.

وبعد دخول المريض للمستشفى الإسلامي يُعطى الدواء الذي يعيِّنه الطبيب، كما يُوصف له الغذاء الموافق لصحته، وبالمقدار المفروض له، ولم يكن يُضَيَّق أبدًا على المرضى في نوع الطعام الذي يأكلونه، بل كان يُقَدَّم لهم أطايب الطعام، فقد كان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج.. كذلك لا يُضَيَّق عليهم أبدًا في كميات الطعام، بل كانت من علامات الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا

كاملاً ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة!

فإذا أصبح المريض في دَور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تمَّ شفاؤه أُعطِيَ ثيابًا جديدة دون أجر، وليس هذا فقط بل كان يُعْطَى مبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل! وذلك حتى لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة فتحدث له انتكاسة[1]!

ولا تسلْ بَعْدُ عن مدى الطمأنينة التي ينعم بها الفقير في المجتمع الإسلامي عندما يعلم أنه إذا مَرِض فسيجد مثل هذا المستوى من الرعاية المجانية دون أن يحتاج إلى إراقة ماء وجهه أو البحث عن وساطات أو شفاعات لينال ما يستحقُّ من الاهتمام والعلاج.. فضلاً عن مدِّ يده متسولاً ليتمَّ علاجه!

وما أروع توجيه أبي بكر الرازي لتلاميذه أن يكون هدفهم الأول إبراء مرضاهم أكثر من نيل أجورهم منهم! وأن يُعالِجوا الفقراء بمثل الاهتمام والعناية التي يعالجون بها الأمراء والأغنياء! وأن يُوهموا المرضى بالشفاء حتى لو كانوا هم أنفسهم لا يعتقدون بذلك؛ فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس[2].

ولم يكن هذا المستوى العالي من الرعاية الصحية مقصورًا على المدن والحواضر الكبرى، بل حظيت كل بقاع الدولة الإسلامية بذات الاهتمام، وذلك من خلال المستشفيات المتنقِّلة، والتي كانت تجوب القرى والنجوع والجبال والمناطق النائية بصفة عامَّة.. والشاهد هنا أنه كان يُنظر إلى رعايا الدولة المسلمة - في مجال الرعاية الطبية - نظرة متساوية بغضِّ النظر عن بيئاتهم ومستوياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية.

---

(١) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠.

(٢) عبد المنعم صفو: تعليم الطب عند العرب ص٢٧٩.

بل إن النظرة الإسلامية الرحيمة للمريض تعدَّت كل طبقات المجتمع السوية لتشمل نزلاء السجون ممن أساءوا لمجتمعهم! فهؤلاء أيضًا كانوا يجدون الرعاية الطبية الكافية؛ فهم بَشَرٌ، ومن أبناء المجتمع على أي حال، وما ينزل بهم من الحبس والعقاب إنما هو لإعادة إصلاحهم لا للقضاء عليهم بالموت البطيء الذي يتعرَّض له نزلاء كثير من السجون في عالم اليوم.

وقد كتب الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد: «.. فكرت في أمرِ مَن في الحبوس (السجون)، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض؛ فينبغي أن تُفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم، وتُحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس... ويعالجون فيها المرضى»[1].

وما كان لهذا الفيض الإنساني أن يستمرَّ على مرِّ عصور الحضارة الإسلامية لولا ينابيع العطاء المتدفِّقَة من قلوب أبناء الأمة المسلمة والموازية لدعم الدولة نفسها؛ ونقصد هنا نظام الأوقاف الخيرية، وما كان يقوم به من دور في حُسن رعاية المرضى وإكرامهم؛ فقد كانت مستشفيات راقية بأكملها تعتمد على ريع وقف يرصده أحد المسلمين - بمن فيهم الحاكم نفسه - لتغطية كل احتياجات المستشفى بمرضاه وأطبائه ومفروشاته وأغذيته ونباتاته الطبية وأدويته.. إلى حدِّ الإنفاق على طلاب الطبِّ المتدرِّبين في هذا المستشفى!

ولعلَّ من أشهر الأمثلة على ذلك المستشفى المنصوري الكبير الذي أسسه في القاهرة الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة (٦٨٣هـ)، وأوقف عليه ما يُغَطِّي نفقاته سنويًّا.

---

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص١٤٨.

وفي صدد ذِكْر الأوقاف الخيرية وأثرها في تغطية الجانب الإنساني في الطبِّ عند المسلمين لا بُدَّ أن نشير هنا إلى بعض الصور المبتكرة وغير المسبوقة في التعامل الإنساني مع نفسية المريض؛ فقد كان رِيع بعض الأوقاف يُخَصَّص لتوظيف اثنين يمرَّان بالمستشفيات يوميًّا، فيتحدَّثَان بجانب المرضى حديثًا خافتًا يَسمعه المريضُ دون أن يراهما؛ يوحيان إليه من خلال حديثهما بتحسُّن حاله! فيما كان يُعرف «**بوقف خداع المريض**»! وذلك لترتفع معنوياته، وبالتالي يتماثل للشفاء بصورة أسرع[1]!

ولم يكن ذلك البعد الإنساني الراقي في التعامل مع المرضى سلوكًا فرديًّا يمارسه بعض الأطباء، ولا كان مجرَّد حُبٍّ شعبي للخير والرحمة ينبع من قلوب العامَّة، بل كان سلوكًا عامًّا تتبنَّاه سياسات الدولة، وينتهجه أفراد الأُمَّة حُكَّامًا ومحكومين؛ فكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقَّد بنفسه المرضى، ويُشْرِفُ على حسن معاملتهم، ويُذْكَر هنا أن المنصور الموحدي (ملك دولة الموحدين بالمغرب) كانت له زيارة أسبوعية للمستشفى المنصوري بمرَّاكش بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع؛ يَطْمَئِنُّ فيها بنفسه على أحوال المرضى[2].

ومن الجوانب الإنسانية في تعامل الطبِّ الإسلامي مع المرضى ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من آداب تحفظ كرامة المريض وتصون حياءه، وتضمن سير مراحل الفحص والعلاج دون انتهاك لخصوصياته؛ فلا يجوز - مثلاً - كشف عورة المريض إلاَّ لضرورة، وبالقدر المطلوب فقط في الفحص أو الجراحة وما إلى ذلك، كما لا يجوز أن يشهد فحص المريض أو المريضة شخصٌ غير ذي صفة - وخاصة إذا كان من جنس مختلف - إلى جانب عدم جواز خَلْوة الطبيب بمريضة من النساء، إلاَّ مع وجود ذي

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٢.
(٢) المصدر السابق ص١١٦.

مَحْرم لها، أو وجود امرأة أخرى كالممرضة مثلاً، كذلك راعت المستشفيات في الحضارة الإسلامية الفصل في أقسامها الداخلية بين الرجال والنساء.

كذلك كان من الجوانب الإنسانية في تعامل الطبِّ الإسلامي مع المرضى أن راعى الشرع حقوق المريض في العلاج، بأن سمح للطبيب الرجل أن يعالج المرأة، والعكس كذلك، وذلك إن لم يُوجد البديل الكفء من نفس الجنس، والذي يستطيع أن يقوم بالمهمة على الوجه الأكمل، وذلك حتى لا يفوت على المريض - رجلاً كان أو امرأة - فرصة العلاج الصحيح، بل إن الشرع أجاز كذلك أن يبحث المريضُ المسلم عن العلاج عند الأطباء غير المسلمين إن تعذَّر وجود مَنْ يستطيع علاجه من المسلمين؛ وذلك حفاظًا على صحَّة المريض وحياته.

كل هذه وغيرها ضوابط وآداب إسلامية تنقل مبدأً سماويًّا - كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1] [الإسراء: ٧٠] - من حيِّز النظريات المجرَّدة إلى التطبيق الواقعي؛ لترتقي حياة الإنسان عن أنماط أخرى للحياة عند سائر الكائنات.

وسبحان الذي أنزل شرعًا بهذا التكامل!

* * *

---

(١) الإسراء: ٧.

الفصل السادس

الطب الوقائي في الإسلام

اهتمَّ المنهج الإسلامي منذ بداية نزوله بتوعية المسلمين لكل ما فيه الخير لدينهم ودنياهم؛ فأمرهم بالعلم وحضَّ عليه، ورغَّبهم في استخدام هذا العلم في إصلاح كل جوانب الحياة.

ومن أهمِّ هذه المجالات التي أبدع فيها المنهج الإسلامي **مجال الوقاية من الأمراض**؛ فقد ظهر فيه بجلاء حرص الإسلام ليس فقط على الأمة الإسلامية ولكن على عموم الإنسانية؛ فإن الأمراض إذا انتشرت في مجتمع فإنها لا تخصُّ دِينًا دون دين، ولا تختار عنصرًا دون عنصر، ولكنها تؤثِّر سلبًا على حياة العموم من الناس.

وعليه فقد جاء الإسلام بمنهج معجز؛ فيه سلامة الجسد والنفس والمجتمع.. وكيف لا يكون معجزًا وقد جاء من عند رب العالمين؟!

ففي الوقت الذي كانت القذارة في كل شيء سمة مميزة لحياة الأوربيين - حتى اعْتُبِرَت الأوساخ التي تعلق بالجسم والملبس هي من البركة، ومن الأشياء التي تُعطي القوة للأبدان! وحتى وصل الأمر إلى أن الإنسان كان لا يغتسل في العام كله إلاَّ مرَّة أو مرتين[1] - في هذا الوقت نزل المنهج الإسلامي في عمق الصحراء، وبعيدًا عن حياة المدن والحضارات العملاقة؛ يُرشد الناس إلى **الطهارة** ووجوب الغُسْل وإلى استحبابه.

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٤.

فالغُسْل واجب عند الجنابة وعند الحيض، وغير ذلك، وهو مستحَبٌّ في العيدين والإحرام وغيرهما، واختلف العلماء في وجوبه أو استحبابه يوم الجمعة، والغالب أنه مستحَبٌّ؛ فقد قال رسول الله ﷺ كما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: **«غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَسِوَاكٌ، وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ»**(1).

بل إنه حدَّد للمسلم فترة زمنية قصوى للفارق بين الغُسْلَين، فقال ﷺ: **«حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ»**(2).

ووصل بعض الفقهاء بأنواع الغُسْل المختلفة إلى سبعة عشر نوعًا من الغُسْل للدلالة على أهميته، ودعا الإسلام إلى طهارة الأعضاء المختلفة من الجسم، واهتمَّ بالأعضاء التي تكثر فيها الأمراض أو يحتمل فيها حدوث الوسخ.

ففي طهارة الفم قال ﷺ: **«لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ»**(3). وقال ابن عباس: **«لقد كنَّا نُؤْمَرُ بالسواك، حتى ظننَّا أن سينزل به قرآن»**(4).

ودعا رسول الله ﷺ إلى طهارة ونظافة الأماكن التي يُتَوَقَّع فيها العرق والأوساخ والميكروبات، بل جعل ذلك من سنن الفطرة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: **«خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ»**(5).

---

(1) البخاري: كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة (٨٤٠)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٦)، واللفظ له.

(2) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟ (٨٥٦)، ومسلم في الجمعة باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٩).

(3) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٨٤٧)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك (٢٥٢).

(4) ابن أبي شيبة: المصنف (١٧٩٣).

(5) البخاري عن أبي هريرة: كتاب اللباس، باب قص الشارب (٥٥٥٠)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة (٢٥٧).

ولك أن تتخيل مدى رُقِيِّ هذا الدين الذي يأمر بهذه الآداب في هذا العمق من التاريخ، وفي هذا المكان في الصحراء، وفي هذه الظروف الصعبة التي نشأ فيها الإسلام.

وقد أمر رسول الله ﷺ - أيضًا - بالتنزُّه من قذارة البول والغائط[1]، وشدَّد في ذلك حتى إنه مرَّ على قبرين؛ فقال لأصحابه يُحدِّثهم عن صاحبي هذين القبرين، وذلك كما روى ابن عباس: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[2].

وفي غير الطهارة، فقد حضَّ الرسول الحكيم ﷺ المسلمين على حماية أنفسهم من آثار الطعام الزائد عن الحاجة، وحذَّرهم من آثار التخمة؛ فقال: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**»[3].

كما أمرهم بالحفاظ على نظافة الأطعمة والأشربة، فقال ﷺ: «**غَطُّوا الإِنَاءَ**[4] **وَأَوْكُوا السِّقَاءَ**[5]»[6].

وقد ذهب التشريع الإسلامي إلى أبعد من ذلك، حين منع أتباعه من كل خبيث

---

(١) تنزَّه من البول: يَسْتبرئ ويتطهر منه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (نزه) ١٣/ ٥٤٨.

(٢) البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألا يستتر من بوله (٢١٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٤٠).

(٣) ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦)، والحاكم (٧٩٤٥)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٥٦٧٤).

(٤) غطوا الإناء: أي استروه، والتغطية الستر. انظر: المناوي: فيض القدير ٤/ ٥٣٢.

(٥) أوكوا السقاء بمعنى: سدُّوا فتحة الوعاء الذي به الشراب، واربطوا رأس السقاء بالوكاء وهو ما يشد به فم القربة. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٥/ ٥٣١.

(٦) مسلم: كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء (٣٧٥٥)، وأحمد (١٤٨٧١)، وأبو يعلى (٢٢٥٨)، والترمذي (٢٨٥٧).

يؤدِّي إلى ضرر بالصحة الجسدية والنفسية ويضرُّ كذلك بالمجتمع؛ فحرَّم الإسلام الخمر وما يندرج في حكمها كالمخدرات، فقال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ**»[1].

وبذلك حمى المسلمين من الأضرار الصحية الخطيرة للخمور والمخدرات، كما حمى البشرية جميعًا من الآثار الضارَّة للمخمورين، سواء نتيجة للحوادث أو للجريمة، أو لغير ذلك من الآثار السيئة لغياب العقل.

والذي ذكرناه في الخمر ينطبق كذلك على تحريم الفواحش؛ فالإسلام حرَّم الزنا وكل العلاقات غير المشروعة؛ وبذلك لم يحفظ فقط صحَّة المسلمين ونسلهم وأخلاقهم، ولكن كان لذلك مردود على المجتمع بكامله مسلمين وغير مسلمين، ولا يخفى على أحد أن انتشار الأمراض الجنسية في البلاد الإسلامية أقل بكثير منه في البلاد غير الإسلامية؛ وما ذلك إلاَّ لكون الإسلام يمنع هذه الموبقات.

وما أروع ما قاله ﷺ حين قال: «**لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا**»[2]. ولا يخفى على أحد أن أمراض الإيدز والإيبولا، وغيرها من الأمراض الجنسية القاتلة لم تكن معروفة قبل ذلك، ولم تظهر إلاَّ بظهور الفاحشة في المجتمعات.

وحرَّم الإسلام - أيضًا - أكل الميتة؛ لما في ذلك من أضرار جسيمة بالصحة أثبتَها الآن الطبُّ الحديث.

---

(١) البخاري: كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر (٢٣٩)، مسلم عن عبد الله بن عمر: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر (٢٠٠٣) واللفظ له.

(٢) ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات (٤٠٠٩)، والحاكم (٨٦٢٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٧٩٧٨).

ومما جعلني أشعر بالفخر الشديد وأنا في زيارة لأمريكا، أني وجدتهم يفتخرون بأنه إذا مات لهم طائر أو حيوان قبل الذبح فإنهم لا يأكلونه؛ لأنه يكون ضارًّا بالصحة، وهذا لم يكتشفوه إلاَّ منذ أعوام قليلة، بينما أوربا إلى الآن تأكل الميتة! وهذا يجعل الأمريكان يفتخرون بمنهجهم الصحي على الأوربيين!

فقلتُ في نفسي وأمام الأمريكان، وغيرهم: ما أروع ديننا الذي حرَّم علينا هذا الذي اكتشفتموه حديثًا! فإنه حرَّم ذلك علينا منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.. فسبحان الذي يعلم السر وأخفي!

ولا أشكُّ - من هذا المنطلق - في أن السجائر حرام، وأن الذي يتناولها آثم، فالدين الذي حرَّم على أتباعه الخبائث لا يمكن أن يُحِلَّ لهم شرب السجائر بكل ما فيها من خبث وضرر؛ فإنها لم تترك عضوًا من أعضاء الجسم إلاَّ وألحقت به ضررًا خطيرًا، فعودة إلى الإسلام أيها المسلمون!

ولم يهتمّ الإسلام فقط بصحة الجسد بل اهتمَّ كذلك بصحة النفس؛ فأمر بذِكْرِ الله ﷻ، وجعل ذلك اطمئنانًا للقلب؛ فقال ﷻ: ﴿ **أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨]. وحضَّ المسلمين على الرفق والرحمة، وحُسن الخُلق ولين الجانب وطيب الكلام، وجعل في التبسم صدقة، وجعل في أدب المعاملات أجرًا، وشجَّع المسلمين على نسيان أخطاء الآخرين، وعلى العفو والمغفرة، وعظَّم لهم قيمة الرضا بما قسم الله ﷻ، وجعل لهم الجنة عوضًا عمَّا أصابهم من مصائب إذا صبروا عليها.

ولا شكَّ أن كل هذا يصبُّ في تكوين صحة نفسية جيدة، ويسمو بالروح ويُطمْئِن القلب، ويرتفع بأخلاق المسلم وقيمه وأهدافه إلى درجات راقية لا يتخيَّلها غير المسلم، ولا شكَّ أن معدل الأمراض النفسية من قلق واضطراب واكتئاب أعلى بكثير في بلاد الغرب منها في بلاد المسلمين، وليس أدلّ على ذلك من مراجعة نسب الانتحار هنا وهناك لتعلم قيمة الإسلام.

وانطلاقًا من حفاظ الإسلام على صحة الفرد والمجتمع فإن الإسلام لم يحضَّ فقط على الاهتمام بالجسد والنفس، بل اهتمَّ كذلك بما يُلبس من ثياب؛ فالثياب النظيفة الجميلة تعود بالفائدة على صاحبها وعلى من يعيشون إلى جواره، بل على من يراه وإن كان لا يعرفه.

ففي أول ما نزل من القرآن نجد قول الله ﷻ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]. وما أروع أن يكون اهتمام الإسلام من أول يوم نزل فيه للبشر بظاهرهم كما يهتمُّ بباطنهم، فهو يقرن التوحيد بنظافة الإنسان فيقول: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٣، ٤]. واللفظ يحتمل ظاهر المعنى، وإن كانت له تأويلات أخرى.

كما أنَّ التشريع الإسلامي عدَّ الثوب نجسًا بمجرَّد وصول شيء من النجاسة إليه؛ كالبول والغائط والدم، ولا تصحُّ الصلاة فيه إلاَّ أن تزول النجاسة، حتى لو كانت النجاسة قليلة.. قال أحمد بن حنبل – رحمه الله– عن الثوب الذي أصابه بول أو غائط: «يعيد الصلاة من قليله وكثيره». أي من قليل النجاسة أو كثيرها[1]، كذلك ينجس الماء إذا وقع فيه من النجاسة ما يُغَيِّر لونه أو طعمه أو رائحته[2]، وكل ذلك يهدف إلى عدم استعمال شيء وصل إليه قذر أو وسخ.

ولا يهتمُّ المسلم فقط بنظافة نفسه وثيابه، بل يجب أن يهتم بنظافة البيئة التي حوله، وهذا بحث يحتاج إلى كثير تفصيل، ليس هذا موضعه.

وإذا كان عطاء الإسلام فيما يخصُّ الوقاية من الأمراض على هذا النحو من الرقي؛ فإنه لا يقف عاجزًا أمام الأمراض إذا حدثت، فلا يكتفي فقط بالأمر بالتداوي، ولكن يحضُّ – وبشدَّة – على منع انتشار الأمراض في المجتمع، فيما يُعرف بـ «**الحَجر الصحي**»!

---

(١) انظر مسائل الإمام أحمد ص٤١. وهذا رأي غيره أيضًا من العلماء والفقهاء.

(٢) ابن قدامة: المغني ١/ ٥٢.

وإنَّ المرء ليقف مبهورًا أمام عظمة التوجيه النبوي الذي يحدُّ من انتشار الأمراض في المجتمع، حيث قال رسول الله ﷺ: **«لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»**[1]. فهو بذلك يوضِّح لك أبسط وسائل الوقاية من الأمراض - وأنجحها في ذات الوقت - وهذا كله منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام!

ثم هو يختار أمراضًا خطيرة بعينها - عُلِم الآن على وجه اليقين أنها تنتقل بالعدوى - ويحذِّر منها تحذيرًا بيِّنًا ظاهرًا لا يحتمل التأويل؛ فتراه يقول - مثلاً - في أمر مرض الجُذام الخطير: **«فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»**[2].

ثم هو يضع أعظم قواعد الحجر الصحي بالنسبة للأوبئة الخطيرة كالطاعون فيقول: **«إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا»**[3]. وهذا هو قمة ما وصل إليه الطب الحديث في محاولة الحدِّ من انتشار الأوبئة الخطيرة كالطاعون.

وأخيرًا.. فإن المنهج الإسلامي في الوقاية من الأمراض لكي يضمن الدقَّة في التطبيق، والحرص في أداء القواعد الصحية، فإنه يربط كل هذه القواعد برضا الله ﷻ، وبالزجر والمثوبة، والجنة والنار؛ فليس الغرض فقط هو الحياة الدنيوية السعيدة - وإن كان هذا متحققًا إن شاء الله - ولكن الهدف أسمى من ذلك وأجلّ، وهو سعادة الآخرة.

فنجد مثلاً في تعظيم أمر السواك وطهارة الفم ونظافته أن الرسول ﷺ يقول:

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الطب، باب لا هامة (٥٤٣٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة... (٢٢٢١).

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الطب، باب الجذام (٥٣٨٠)، وأحمد (٩٧٢٠)، وابن أبي شيبة (٢٤٥٤٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٣٥٥٠).

(٣) البخاري عن أسامة بن زيد: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٣٩٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والكهانة ونحوها (٢٢١٨).

«**السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ**»[1]. فهو لا يحقق نظافة وصحة فقط، بل يحقق أجرًا ومثوبة! ونجده ﷺ يقول في أمر الوضوء والغُسْل، وذلك كما روى أبو مالك الأشعري رضي الله عنه: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ**»[2]. فجعل هذا الطهور وهذه النظافة نصف الإيمان.

ونجده يعطي أجرًا عظيمًا لمن ساهم في منع انتشار الطاعون، حتى يصل هذا الأجر إلى الشهادة في سبيل الله! فيقول لأُمِّ المؤمنين عائشة –رضى الله عنها–، عندما سألته عن الطاعون: «**إِنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ**»[3].

وهذا هو روعة ما جاءت به الحضارة التشريعية فيما يخصُّ الطبّ الوقائي في الإسلام.

***

(١) النسائي عن عائشة: كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك (٥)، وابن ماجه (٢٨٩)، وأحمد (٧)، والدارمي (٦٨٤)، وابن خزيمة (١٣٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع (٣٦٩٥).

(٢) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٥٣)، والدارمي (٦٥٣).

(٣) البخاري: كتاب الطب، باب أجر الصابرين في الطاعون (٥٤٠٢)، وأحمد (٢٤٤٠٣).

الفصل السابع

شهادات غير المسلمين على عظمة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية



لقد شهد كثير من الغربيين من غير المسلمين على عظمة الحضارة الطبية الإسلامية، وإسهاماتها التي لا تنكر في رقي الأمم وتقدمها، ولم تأت هذه الشهادات إلا بعد دراسة موضوعية قائمة على منهج علمي دقيق لتراث المسلمين الطبي، وما نقدمه هنا إنما هو غيض من فيض، وقليل من كثير كتب عن الحضارة الطبية الإسلامية، ولكنها تعطينا في مجملها إشارة واضحة على عظمة ما قدمه المسلمون للبشرية.

مونتجمري وات William Montogmery Watt



«لم يكن غريبًا أن نجد رجالاً عظيمي الكفاءة في أكثر من ميدان واحد، فابن سينا الذي ربما كان أعظم فلاسفة المسلمين، كان أيضًا طبيبًا عظيمًا، وأن ابن رشد، وهو في مصاف ابن سينا في الفلسفة، كان يعمل في نفس الوقت قاضيًا ويكتب عددًا من الكتب في الطب»[1].

(١) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص ٥٣.

سديو[1] Sudaio



«كان أطباء العرب من الرجال الممتازين على الدوام.... وذاع صيت عدد من الأطباء ومن هؤلاء نذكر بختيشوع بن جبرائيل الذي اشتهر بمداواته العجيبة، غير أنه لا أحد يعدل الرازي وابن سينا اللذين سيطرا بكتبهما على مدارسنا زمنًا طويلاً»[2].

مايرهوف[3] Mayerhof ,max

«راحت العلوم ولا سيما الطب، تنتقل بسرعة من أيدي النصارى والصابئة إلى أيدي المسلمين ومعظمهم من سكنة بلاد فارس. ففي الطب صرنا نجد عوضًا عن المجموعات المأخوذة من المصادر العتيقة، موسوعات منتظمة صنفت فيها معارف الأجيال السابقة تصنيفًا دقيقًا ووضعت مقابل المعلومات الجديدة»[4].

---

(١) أستاذ التاريخ في كلية سان لويس.

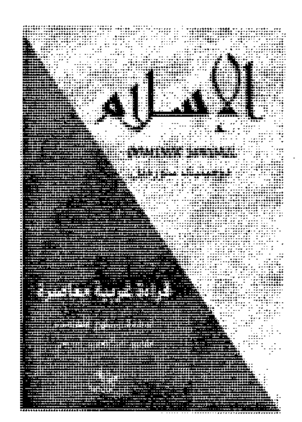
(٢) سيديو: تاريخ العرب العام ص ٣٨٤-٣٨٥.

(٣) مستشرق ألماني.

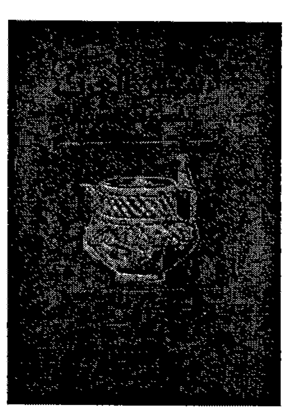
(٤) العلوم والطب دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص ٤٦٢-٤٨٨، نقلاً عن محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية منصفة ص٢٣٤-٢٣٥.

دومينيك سورديل[1] DOMINIK SORDAIL

«وفي الطب اشتهر العلماء العرب بمراقبتهم السريرية وبعلمهم المنهاجي. وكان الرازي وهو من أكبر الأطباء المسلمين والمقيم في الري، ثم في بغداد أحد المتمرسين النابهين والدقيقي الملاحظة، وقد ترك نوعين من الأعمال : أبحاثا علمية أشهرها يدور حول الجدري، وموسوعة كبرى حول المعارف الطبية هي كتاب الحاوي، الذي حل محله القانون لابن سينا، وعرف العرب الجراح الشهير الزهراوي، وعلماء مثل ابن زهر وابن رشد وابن ميمون اليهودي، الذين أفادت المسيحية من مصنفاتهم وعلومهم»[2].



زيجريد هونكه[3] Sirgid Hunke



وتتحدث زيجريد هونكه عن الرازي قائلة: «هذا الطبيب العظيم بنظرته الفاحصة كان إنسانًا كبير القلب وطبيبًا إنسانيًا إلى أقصى الدرجات. وقد كان سباقًا في إنسانيته القصوى تلك، كما كان سباقًا في كثير من الاكتشافات العلمية، وتعدى الآفاق الخلقية التي وصل غليها الطب لدى الإغريق»[4].

(١) أستاذ مقيم في المعهد الفرنسي بدمشق سابقًا، وأستاذ في جامعة السوربون بباريس.

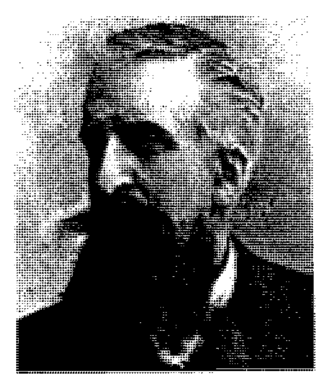
(٢) دومينيك سورديل: الإسلام ص ١٥٧.

(٣) مستشرقة ألمانية.

(٤) سيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب ص٢٥٣.

شهادة المستشرق الفرنسي الكبير

«جوستاف لوبون»[١] Gustave Le Bon



«يعد الطب .... أهم العلوم التي عنى بها العرب،وأتم العرب أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم، وترجمت مؤلفات العرب الطبية في جميع أوربة، ولم يتلف قسم كبير منها كما أصاب كتبهم الأخرى»[٢].

بير بورمان[٣] Per Burman

«إن إنجازات المسلمين في العالم واضحة جليَّة في كل شئون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطب لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان (الطب الإسلامي في القرون الوسطى)». وقال: «دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أدين بالفضل في جزء من ثقافتي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أحاول توضيحه وتأكيده رغم محاولات البعض طمس الدور المهم الذي لعبه المسلمون في أوربا والعالم، ولقد عكفت أنا وزميلتي الباحثة «**إيميلي سافاج سميث**» على رصد إنجازات المسلمين في مجال الطب في القرون الوسطى...... إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارة عن أوقاف إسلامية، وكانت تقدم الخدمة الطبية

---

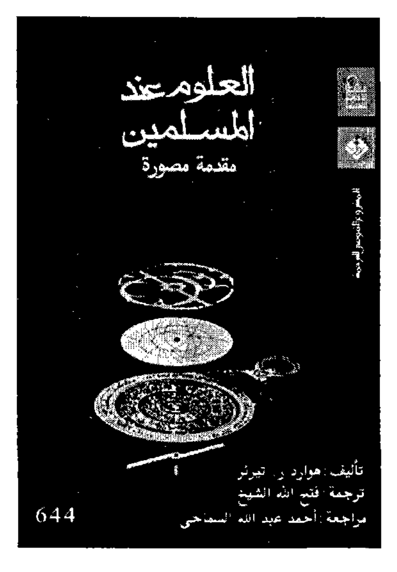
(١) جوستاف لوبون: مستشرق فرنسي وُلِدَ في عام ١٨٤١م، ومن أشهر كتبه "حضارة العرب" الذي يُعَدُّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية. تُوُفِّي في عام ١٩٢١م.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٨٨.

(٣) باحث ألماني.

لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم، فهناك اليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتيون وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع، وهذا يعني تسامحًا إسلاميًّا كبيرًا مع غير المسلمين».. وعن أهم الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد، قال: «الكثير من الأمراض، إلا أن أخطرها هو مرض المالنخوليا»[١].

هوارد ر. تيرنر[٢] Howard r turner



«استخدم المسلمون عبقريتهم التنظيمية إلى جانب مهاراتهم الخاصة في مجال العلاج والجراحة بنجاح متميز في إنشاء مستشفيات عظمى في المدن الكبرى في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. وقد تفوقت هذه المؤسسات الطبية سواء في حجمها أو في خبرتها المهنية على كل المؤسسات الطبية المعروفة في الأزمنة القديمة، وكذلك الموجودة خارج البلاد الإسلامية بشكل هائل»[٣].

---

(١) حوار له بجريد الأخبار المصرية بتاريخ ١٣/ ٤/ ٢٠٠٧.

(٢) أستاذ بجامعة تكساس الأمريكية.

(٣) هوارد ر. تيرنر: العلوم عند المسلمين ص ١٦٧.

ألفريد جيوم[1] Guillaume



«كانت سالرنو بوصفها جامعة طبية، فيها نفوذ عظيم للطب العربي، إن لم يكن تأثيرًا ابتداعيًّا خلاقًا فهو على أقل تقدير تغذية وإدامة»[2].

أوسلر Osler

«لقد عاش كتاب القانون مدة أطول من أي كتاب آخر كمرجع أوحد في الطب، ولقد وصلت عدد طبعاته إلى ١٥ طبعة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر...... إن ابن سينا مكن علماء الغرب من الشروع بالثورة العلميّة في مجال الطب، والتي بدأت فعلا في القرن الثالث عشر، وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر»[3].

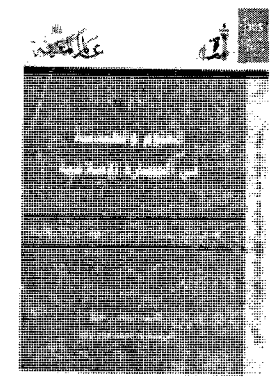
---

(١) مستشرق إنجليزي.

(٢) جيوم: الفلسفة وعلم الكلام، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) – تصنيف أرنولد ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٣) مجلة بريد اليونسكو، عدد تشرين الأول، عام ١٩٨٠م.

دونالد ر. هيل[1] Donald r . hill



«أصبحت الكتب العربية واسعة الانتشار في أوروبا في أواخر العصور الوسطى لدرجة أن العديد من الأسماء العربية اصطبغت باللاتينية، فأصبح ابن سينا (أفيسنا) Avicenna.... والبتاني (الباتينيس) albatenius وغيرهما كثير جدًّا»[2].

بلنسر مارتن[3] Plessner, m

«لقد اتضح من خلال الميادين العلمية التي بحثت حتى الآن الاتجاه العلمي للعلم الإسلامي، ويتجلى هذا الاتجاه أوضح ما يكون في المؤلفات التي وضعها العلماء المسلمون في النبات والحيوان والمعادن، ففي الحالات التي لم توضع فيها كتب النبات لأغراض لغوية فإن المؤلفات الإسلامية في هذا الميدان كانت ذات طبيعة زراعية أو صيدلانية...»[4].

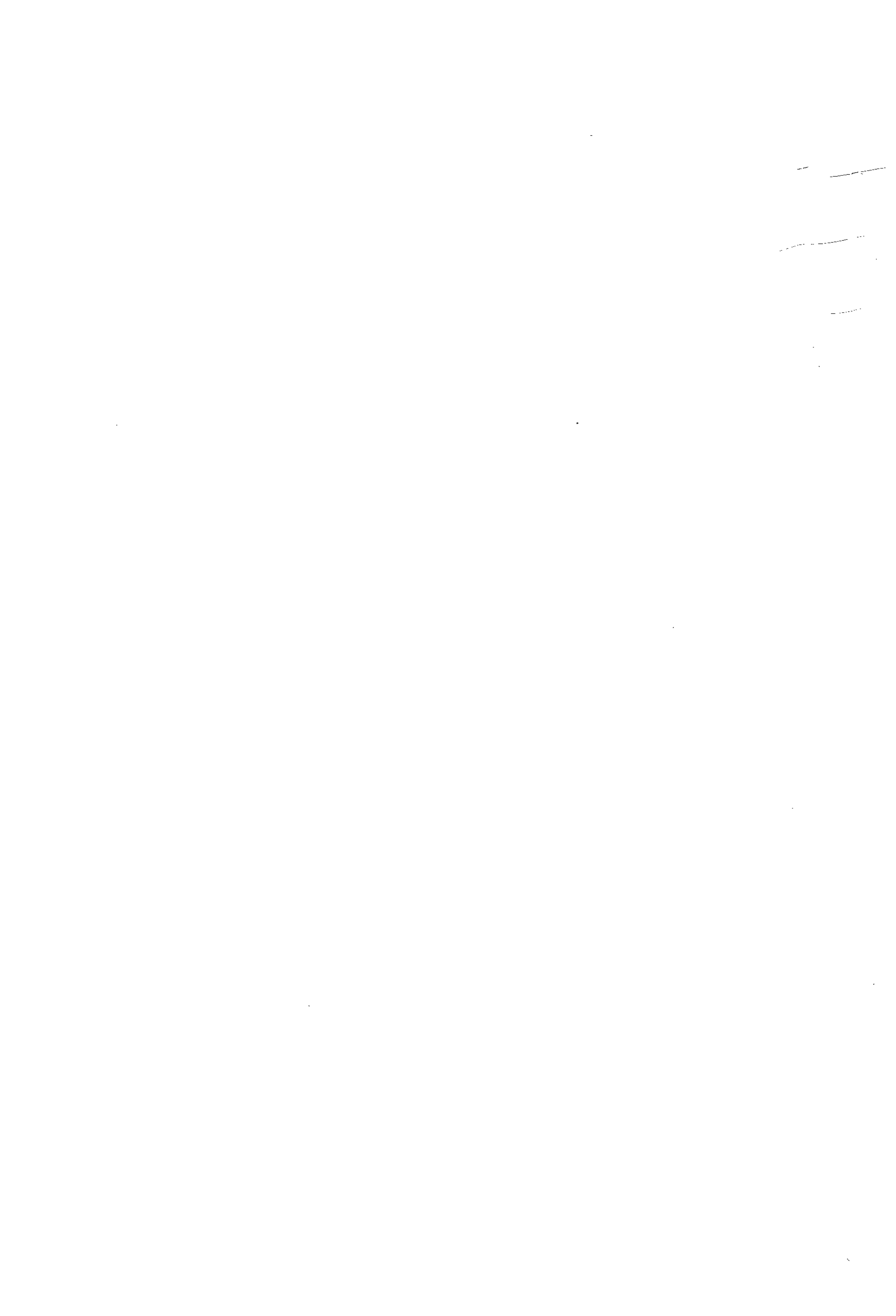
* * *

(١) مؤرخ بريطاني.

(٢) دونالد ر.هيل العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية- لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، ص ٢٩٠.

(٣) مستشرق ألماني.

(٤) بلنسر: العلوم الطبيعية والطب – دراسة منشورة بكتاب (تراث الإسلام) إشراف (شاخت) وبوزورث – القسم الثالث ص ١٣٠.





البـــــاب الثاني

علوم ذات صلة بالعلوم الطبية





مما لا شكَّ فيه أن العلوم الطبية عند علماء المسلمين لم تقتصر على فنون مداواة المرضى، وطرق علاجهم فقط، بل فتح المسلمون أبواب المعرفة أمامهم؛ فلم يتقيدوا بما كتبه السابقون عليهم من الأمم الخالية؛ لذا كانت التجربة الحية، والواقع العملي هو المحكّ الرئيسي لكل شئونهم وأحوالهم؛ وقد نتج عن ذلك أن تطرق المسلمون إلى علوم أخرى، كانت وما زالت ذات صلة وثيقة بالعلوم الطبية، ومن ثم فإننا سنتناول هذه العلوم المتصلة بالعلوم الطبية من خلال الفصول الآتية:

- **الفصل الأول: المسلمون وعلم الصيدلة**
- **الفصل الثاني: المسلمون وعلم النبات**
- **الفصل الثالث: المسلمون وعلم الحيوان**
- **الفصل الرابع: المسلمون وعلم الوراثة**
- **الفصل الخامس: المسلمون وعلم الطفيليات**

الفصل الأول

المسلمون وعلم الصيدلة



لا يزال العجب والدهشة يراودان الفرد الحين بعد الآخر إذا قرأ أو اضطلع أو عرف أن المسلمين كانوا من المصادر الأساسية التي اعتمد عليها علماء الشرق والغرب في ميدان الصيدلة، ولقد كان هذا العلم من العلوم اللصيقة بعلم الطب طوال تاريخ العلوم التجريبية؛ إذ إن كليهما لم يستغنِ عن الآخر في تقديم العون والمساعدة العاجلة للمريض؛ لذلك فإننا سنتناول في هذا الفصل – المسلمون وعلم الصيدلة – ما قدّمه المسلمون للبشرية في هذا الميدان من خلال المبحثين الآتيين:

- المبحث الأول: بدايات المسلمين مع علم الصيدلة
- المبحث الثاني: إسهامات المسلمين في علم الصيدلة

***

المبحث الأول
بدايات المسلمين مع علم الصيدلة

تُعَدُّ الصيدلة من العلوم التي ابتكرها المسلمون، وأسهموا فيها إسهامات واضحة يشهد العالم كلُّه بها؛ حيث جعلوها علمًا تجريبيًّا قائمًا على الدراسة والملاحظة، وتتَّصل الصيدلة -وهي علم يبحث في العقاقير وخصائصها وتركيب الأدوية وما يتعلَّق بها- اتصالاً وثيقًا بعِلْمَي النبات والحيوان؛ إذ إن معظم الأدوية ذاتُ أصل نباتي أو حيواني، كما ترتبط ارتباطًا قويًّا بعلم الكيمياء؛ لأن الأدوية تحتاج إلى معالجة ودراية بالمعادلات والقوانين الكيميائية، كما تُكمِل الصيدلة علم الطبِّ الذي يُشَخِّص المرض، ويَصِفُ العلاج، ويحتاج إلى مَنْ يُرَكِّب له ذلك الدواء ويصنعه.

والحقُّ أن الصيدلة كانت من العلوم التي جذبت عظيم انتباه علماء المسلمين، فاستطاعوا أن يميِّزوا عصر حضارتهم باعتباره أوَّل عصر من عصور الحضارة عُرِفَتْ فيه المركَّبات الدوائيَّة بصورة علميَّة وفعَّالة وبطريقة جديدة، حتى نستطيع مع غيرنا أن ننسب -بلا أدنى حرج- علم الصيدلة إليهم، ونقول: إنه اختراع عربي (إسلامي) أصيل[1]. فقد أضافوا إلى الأدوية التي كانت معروفة قبلهم مركَّبات عديدة من اختراعهم، وألَّفوا أوَّل كتاب في العقاقير[2].

ومع أن شعوب ما قبل التاريخ اكتشفوا قدرة بعض النباتات على تسكين آلامهم وشفائهم من بعض الأمراض، وربما يكونون قد لاحظوا أيضًا التهام بعض الحيوانات المريضة لبعض النباتات وشفائها، ومن ثَـمَّ قاموا بتناول هذه النباتات نفسها عند مرضهم، إلاَّ أن ذلك لم يكن عِلْمًا قائمًا ذا أصول ومبادئ يقاس عليها.

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٩٤.

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٦.

وتُعَدُّ لوحة الصلصال التي يرجع تاريخها إلى عهد الحضارة السومرية في الشرق الأوسط -عام ٢٠٠٠ ق. م- أوَّل سجلٍّ مكتوب لاستعمال الأدوية، وبهذه اللوحة اثنتا عشرة وصفة طبِّيَّة، وكذلك يحتوي قرطاس مصري يرجع تاريخه لعام ١٥٥٠ ق. م على أكثر من سبعمائة دواء، وقد استعمل قدماء الصينيين والرومان الكثير من الأدوية، ويُعَدُّ الرومان أوَّل مَنْ قاموا بافتتاح صيدلية وكتابة أوَّل وصفات طبِّيَّة تُحَدِّد كَمِّيَّة كلِّ مادَّة يحتوي عليها الدواء.

ولكن على الرغم من استعمال القدماء للعديد من الأدوية، إلاَّ أن معظم علاجاتهم لم تكن ناجحة، وقد يرجع الشفاء الناتج عن تعاطي بعض هذه العلاجات الطبيعية إلى أن بعض الأمراض يُشفى المريض منها تلقائيًّا بعد مُضِيِّ عدَّة أيام من حدوثها؛ مما يدفع بعض الناس للظنِّ بأن الشفاء قد يرجع إلى تلك العلاجات. وعلى الجانب الآخر علينا أن نعترف بأن هناك عددًا من الأدوية النافعة التي اكتشفها القدماء؛ فقد استعمل قدماء الإغريق والرومان الأفيون لتسكين الآلام، واكتشف قدماء المصريين زيت الخروع لعلاج الإمساك، كما اكتشف الصينيون أكل الكبد لعلاج فقر الدم[1].

وعندما جاء الإسلام ووجد العالَمَ على هذه الحال؛ فأَوْلى اهتمامًا كبيرًا لصحَّة الإنسان، ودعا إلى التداوي، وأشار إلى بعض العلاجات والأدوية على سبيل المثال لا الحصر، ومن ذلك قول الله تعالى: **﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2]، فتحرَّكت العقول للبحث في أسباب الأمراض وطُرُقِ علاجها.

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية، النسخة الإعلامية http://www.mawsoah.net.

(٢) (النحل: ٦٨، ٦٩).

ثـم جـاءت أحاديـث النبـي ﷺ لتؤكِّـد عـلى ضرورة التـداوي فكـان حقًّـا عـلى المسلمين أن يبحثوا عن العقاقير التي تشفي الأمراض؛ فرسولنا القائل للأعراب عندما سألوه ﷺ: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال ﷺ: «تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ»[1]. كما قال عاصم بن عمر بن قتادة: سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِي»[2]. فانطلق المسلمون من رؤية إسلامية خالصة ليكتشفوا ويُجَرِّبوا كل أنواع العقاقير للوصول إلى الدواء الناجح الفعال، الذي جعله الله شفاء للأمراض.

* * *

(١) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٣٤).

(٢) البخاري: كتاب الطب، باب الدواء بالعسل (٥٣٥٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٢٢٠٥).

المبحث الثاني

إسهامات المسلمين في علم الصيدلة

لم ينطلق المسلمون من دون سابق معرفة؛ بل أخذوا كل ما كَتَبَهُ اليونانيون عن الصيدلة، ولكنهم لم يَكْتَفُوا بنقله، بل طوَّروه وجعلوه علمًا جديدًا قائمًا على التجربة، فاعتنَوْا بكتاب: (المادَّة الطبِّيَّة في الحشائش والأدوية المفردة) الذي وضعه ديسقوريدس (٨٠م)، وترجموه عدَّة مرات؛ أشهرها اثنتان: ترجمة حنين بن إسحاق في بغداد، وترجمة أبي عبد الله الصقلّي في قرطبة. وفي وقت لاحق قام الصيادلة المسلمون -بفضل خبرتهم وممارستهم- بالزيادة على هذا الكتاب، واسْتِدْرَاك ما فات ديسقوريدس، ومن ثَمَّ بدأ التأليف والتصنيف بغزارة في الصيدلة وعلم النبات، وكان من ذلك (معجم النبات) لأبي حنيفة الدِّينَوَرِيِّ (ت ٢٨٢هـ - ٨٩٥م)، و(الفلاحة النبطية) لابن وحشِيَّة (ت ٣١٨هـ - ٩٣٠م)، و(الفلاحة الأندلسية) لابن العوَّام الإشبيلي، فقد استفاد المصنِّفُون في علم الأدوية كثيرًا من هذه الكتب وأمثالها[1].

ويكمن سِرُّ تأصيل هذا العلم ونسبته إلى المسلمين في أنه لَمَا نَقَلَ المسلمون أسماء الأدوية المفردة (النباتية) من كتب اليونان والهند وفارس لم يستطيعوا التَّعَرُّف على كثير منها، وحتى تلك التي تَعَرَّفوا عليها لم يقفوا على خصائصها؛ لذا لم يكن هناك بُدٌّ من الاستعاضة عنها ببديل مَحَلِّيٍّ؛ فلجأوا منذ وقت مبكر إلى التأليف فيما سمَّوْهُ أبدال الأدوية، ووضعوا مصنَّفات خاصَّة بتلك التي لم يُشِرْ إليها ديسقوريدس وجالينوس، وغيرهما، واستفادوا في هذا الشأن من العقاقير الهنديَّة والفارسيَّة، إلاَّ

(١) انظر: فاضل العباسي: مجلة التراث العربي، مقال بعنوان: «الصيّدلاني الأندلسي أبو العبّاس النّباتي (ابن الرّومية» العدد الثلاثون، يناير ١٩٨٤، دمشق. وانظر نفس المجلة العددين ١٣، ١٤.

أن الحاجة للبديل المحليِّ كانت ضرورة اقتصادية وانتمائية، عبَّرَ عنها البيروني في عِتَابه للصيادلة بقوله: «**لو كان منهم ديسقوريدس في نواحينا لصرف جهده على التَّعَرُّف على ما في جبالنا وبوادينا، ولكانت تصير حشائشها كلها أدوية...**»[1].



مخطوط يوضح بعض الأعشاب الطبية

واستجابة لمثل هذه الحميَّة جَرَتْ بعض محاولات للاستفادة من الأعشاب المحليَّة؛ كان من بينها في بادئ الأمر تصنيف ما يشبه المعاجم على هيئة جداول تحتوي على أسماء النباتات المختلفة باللغات العربية، واليونانية، والسريانية، والفارسية، والبربرية، بشرح أسماء الأدوية المفردة. ومن المحاولات التطبيقية في هذا المجال ما قام به رشيد الدين الصوري (ت ٦٣٩هـ - ١٢٤١م)، الذي كان يَخْرُجُ إلى المواضع التي بها النباتات يُرَافقه رسَّام، فيشاهد النبات ويسجِّله ثم يُرِيه للرسَّام في المرَّة الأولى وهو في طَوْرِ الإنبات أو لا يزال غضًّا، ثم يريه إياه في المرَّة الثانية بعد اكتماله وظهور بذره، وفي الثالثة بعد نضجه ويبسه، ويقوم الرسام بتصويره في جميع هذه الأطوار[2].

ولعلَّ من أهمِّ مآثر المسلمين في بدايتهم لهذا العلم أنهم أدخلوا نظام الحِسْبَةِ

---

(١) انظر: الصيدلة عند المسلمين، الرابط: http://www.alargam.com/general/arabsince/5.htm.

(٢) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢١٩.

ومراقبة الأدوية[1]، ونقلوا المهنة من تجارة حُرَّة يعمل فيها مَنْ يشاء، إلى مهنة خاضعة لمراقبة الدولة، وكان ذلك في عهد المأمون، وقد دعاه إلى ذلك أن بعضًا من مزاولي مهنة الصيدلة كانوا غير أمينين ومدلِّسين، ومنهم من ادَّعى أن لديه كل الأدوية، ويُعطون للمرضى أدوية كيفما اتُّفِقَ؛ نظرًا لجهل المريض بأنواع الدواء؛ لذا أمر المأمون بعقد امتحان أمانة الصيادلة، ثم أمر المعتصم من بعده (ت ٢٢٧هـ) أن يُمْنَحَ الصيدلاني الذي تثبت أمانته وحذقه شهادة تُجِيزُ له العمل، وبهذا دخلت الصيدلة تحت النظام الشامل للحسبة. وقد انتقل هذا النظام إلى أنحاء أوربا في عهد فريدريك الثاني (٦٠٧- ٦٤٨هـ/ ١٢١٠- ١٢٥٠م)، ولا تزال كلمة مُحْتَسِب مستخدمة في الإسبانية بلفظها العربي حتى الوقت الراهن، وكان يُنَاط بمفتِّش رسمي في كل مدينة الإشراف على الصيادلة وكيفية تحضير العقاقير، وقد يَسَّرَ ذلك للصيدلة أن تَرْتَقِيَ بوضوح علمًا قائمًا بذاته؛ ممَّا جعل الصيادلة ينتقلون إلى مملكة النبات التي وجدوا فيها مجالاً خصبًا للعمل؛ فزُرِعَت النباتات الطبية بشكل منتظم، وَفْقَ شروط خاصَّة في مزارع خاصَّة رعاها الحُكَّام، وجلبوا لها البذور اللازمة من كل مكان يطلبه الصيادلة، وذلك ما فعله عبد الرحمن الأول في قرطبة، ووَفْقَ تنظيم مهنة الصيدلة أصبح في كل مدينة كبيرة عميد للصيادلة يقوم بامتحانهم، كابن البيطار في القاهرة. كما فَرَضَ الدستورُ الجديد على الأطباء أن يكتبوا ما يصفون من أدوية للمريض على ورقة سمَّاها أهل الشام (الدستور)، وأهل المغرب (النسخة)، وأهل العراق (الوصفة)، وبذلك كان المسلمون أوَّل من أنشأ فنَّ الصيدلة على أساس علمي سليم، وأقاموا الرقابة على الصيدليات والصيادلة من خلال وظيفة الحسبة[2].

---

(١) انظر جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣١٢.

(٢) انظر: الصيدلة عند المسلمين، على الرابط: http://www.alargam.com/general/arabsince/5.htm.

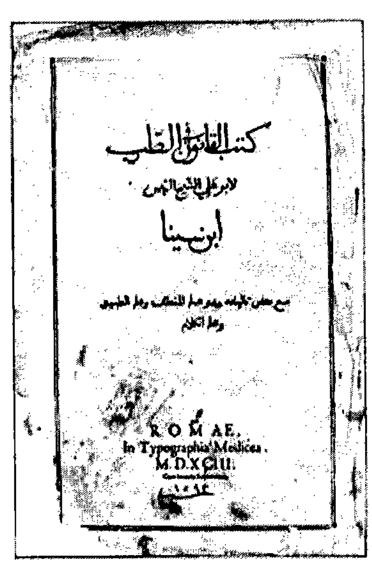
وقد زاد الأمرُ إحكامًا بتولِّي سنان بن ثابت الطبيب أمر الحسبة؛ حيث تحوَّل هذا النظام إلى امتحان ومحاسبة ومراقبة دورية؛ للأوزان والمكاييل، وتفتيش الصيدليات مرَّة كل أسبوع، ومن بين الطرق التي طبَّقُوها لمعرفة الأدوية المفردة وفاعليتها: الإحراق بالنار أو السحق، وفحص الرائحة واللون والطعم. وقام بعض الأطباء باختبار مدى فاعلية العقاقير على الحيوانات قبل إعطائها الإنسان؛ ومن ذلك **تجربة الزئبق** على القرد التي قام بها الرازي، كما كان ابن سينا يَذْكُرُ مع كل عقار خصائصه وأوصافه، ونجد ذلك جليًّا في كتاب: **(منهاج الدكان)** لكوهين العطار، الذي جمع عمل ابن سينا في هذا الصدد في فصل سمَّاه: «**امتحان الأدوية المفردة والمركَّبة، وذِكْرُ ما يُسْتَعْمَل منها وما لا يُسْتَعْمَل**». وقد أورد كوهين العطار في هذا الفصل الطرق المستعملة في ضبط معايير جودة العقاقير، إضافة إلى فصل عن المدَّة الزمنية التي لا تعود صالحة للاستعمال بعدها، والأوصاف المميِّزة للأدوية وأنواعها، وما تُغَشُّ به، وكيفيَّة كشف هذا الغش عن طريق الأوصاف الحسيَّة والفيزيائيَّة للدواء[1].

وبازدهار صناعة الصيدلة وجد الصيادلة المسلمون مجالاً خصبًا للإبداع، الذي انتهَوْا فيه إلى تركيب عقاقير من البيئة المحلية ذات أوزان معلومة مُبَسَّطة، وقطعوا شوطًا كبيرًا عندما استفادوا من علم الكيمياء في إيجاد أدوية جديدة ذات أثر في شفاء بعض الأمراض؛ كاستخراج الكحول، ومركبات الزئبق، وملح النشادر، واختراع الأشربة والمستحلبات والخلاصات الفطرية. إضافةً إلى ذلك قادهم البحث الجادُّ إلى تصنيف الأدوية استنادًا إلى منشئها وقُوَّتها، كما قادتهم تجاربهم إلى أدوية نباتية جديدة لم تكن معروفة من قبل كالكافور، والحنظل، والحناء[2].

(١)انظر: الصيدلة عند المسلمين، على الرابط: http://www.alargam.com/general/arabsince/5.htm

(٢) انظر: قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص٢٧.

وقد قادت غزارة التصنيف في كتب الصيدلة والبحث الدءوب الذي كشف عن عقاقير جديدة -إضافة إلى ما هو موجود أصلاً- إلى أهمية تقسيم هذه العقاقير وَفق معايير ارتآها المؤلفون أو الصيادلة، ونجد الأمثلة على ذلك واضحة في (الحاوي) للرازي، و(الصيدلة في الطب) للبيروني، و(كامل الصناعة) لعلي بن عباس، و(القانون) لابن سينا.



كتاب القانون في الطب لابن سينا

ومن أمثلة ذلك تصنيف الرازي، الذي وضع أُسُسًا صحيحة لعدَّة علوم صيدلانية، وبيَّن أوصافها، وطُرُق تحضيرها، وكشف غِشِّها وقُواها، وبدائلها، والمدَّة الزمنية التي يمكن أن تُحْفَظَ خلالها؛ فقد صَنَّف العقاقير إلى أربعة أقسام، كما يلي: موادّ ترابية (معادن)، ومواد نباتية، ومواد حيوانية، وعقاقير مُوَلَّدة (مشتقات)، وذكر تحت الصِّنف الأول سبعة أنواع. ومِثْل الرازي صَنَّفَ أيضًا البيروني وابن سينا، وكان لكلٍّ إسهامه في ذلك.

وفي عمليات تحضير العقاقير وتركيبها استخدم الصيادلة المسلمون طرقًا مبتكرة، ظلَّ بعضها معمولاً به حتى الوقت الحاضر من حيث المبدأ؛ فنجد أن الرازي استخدم:

١- التقطير: لفصل السوائل.

٢- الملغمة: لمزج الزئبق بالمعادن الأخرى.

٣- التنقية: لإزالة الشوائب.

٤- **التسامي**: لتحويل الموادِّ الصلبة إلى بخار، ثم إلى حالة الصلابة ثانية دون المرور بحالة السيولة.

٥- **التصعيد**: لتكثيف المواد المتصاعدة.

٦- **التشوية**: لتحضير بعض المعادن من خاماتها.

٧- **التشميع**: لصهر بعض المواد بإضافة موادّ أخرى إليها.

٨- **التكليس**: لإزالة ماء التبلُّر وتحويل المواد المتبلِّرة إلى مساحيق غير متبلِّرة.

٩- **التبلُّر**: لفصل بلورات المواد المذابة.

١٠- **الترشيح**: لفصل الشوائب والحصول على محلول نقي[١].

وممَّا يُعَدُّ من إبداعات المسلمين وابتكاراتهم في هذا العلم أن ابن سينا وصيادلة آخرين استطاعوا أن يمزجوا الأدوية بالعسل تارة، وبالسكر والعصير تارة أخرى؛ وذلك ليصبح طعمها مستساغًا، وكثيرًا ما جعلوها على هيئة أقراص وغلَّفوها لإخفاء رائحتها، وكان ابن سينا أوَّل مَن استعمل طريقة تغليف الحبوب بالذهب والفضة، كما أن الزهراوي كان أوَّل من حضَّر الأقراص بالكبس في قوالب خاصَّة[٢].

***

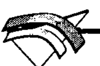
---

(١) انظر: قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص٢٧..

(٢) انظر: أحمد شوقي الفنجري: العلوم عند المسلمين ص٧٦، الرابط: http://www.islamset.com/arabic/asc/index.html.

الفصل الثاني

المسلمون وعلم النبات



لم يترك علماء المسلمين مجالاً من مجالات العلوم المختلفة إلا وأسهموا فيه إسهامًا مباشرًا ومؤثرًا، وبذلك استفاد من جهدهم سائر البشر، ومن هذه العلوم المهمَّة علم النبات، وهذا العلم في غاية الأهمية من حيث الاستخدامات الطبية والصيدلانية المترتبة عليه، ولذلك فإننا سنتناول إسهام المسلمين في هذا العلم من خلال المبحثين الآتيين:

- المبحث الأول: المسلمون وتطور علم النبات
- المبحث الثاني: المسلمون وفن تصنيف النبات

***

المبحث الأول
المسلمون وتطور علم النبات

لقد فهم المسلمون أهمية علم النبات منذ الأيام الأولى لنزول القرآن على رسول الله ﷺ؛ حيث حَفَل القرآن الكريم من أوَّله إلى آخره بالحديث عن النباتات المختلفة ونموِّها وأنواعها وتصنيفها، وما هو موجود في الدنيا، وما هو موجود في الآخرة.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

ويقول تعالى عن نباتات الجنة: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[(٢)].

وكان رسول الله ﷺ يحرِّك أذهان المسلمين للتفكُّر في أنواع النباتات المختلفة، ومن ذلك مثلاً ما رواه ابن عمر، حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ**». فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حَدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»[(٣)]. وحضَّهم أيضًا على التداوي ببعض

---

(١) (الأنعام: ٩٩).

(٢) (الواقعة: ٢٧-٣٣).

(٣) البخاري: كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم (٦٢)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

النباتات، فقال -على سبيل المثال- كما روى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-: «إِنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ السَّوْدَاءَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلاَّ مِنَ السَّامِ». فقالت: وما السام؟ فقال: «الْمَوْتُ»[1].

ومن هنا ظهر اهتمام المسلمين بهذا الفرع المهم من فروع العلم. وكعادة العلماء المسلمين فإنهم كانوا يهتمون بدراسة كل الإنتاج العلمي للحضارات السابقة في كل مجالات العلوم، حتى يستفيدوا من جهود السابقين، ويستكملوا ما توقفوا عنده؛ لتستفيد البشرية كلها من هذا النتاج المشترك لعلماء العالم في مختلف العصور.

ولهذا فإن علماء الإسلام قد قاموا في البداية بترجمة الأعمال المهمَّة التي أنتجها علماء اليونان، فترجموا أعمال أرسطو، وكذلك ترجموا أعمال تلميذه النجيب ثيوفراستس، الذي جمع معظم النباتات الموجودة في العالم في كتابه (أسباب النبات)؛ ولذلك يُعرف ثيوفراستس بأبي علم النبات. ثم ترجم المسلمون كتاب التاريخ الطبيعي للعالم الروماني بليني الأكبر، وهو مرجع ضخم مكوَّن من ٢٧ مجلدًا، وتمت أيضًا ترجمة كتاب (المادة الطبية) تحت اسم (الحشائش)، وهو للعالم اليوناني الشهير ديسقوريدس، وقد قام بترجمة هذا الكتاب الأخير أحد العلماء النصارى في بغداد، وهو إصطفان بن باسيل، وذلك بأمر من الخليفة العباسي المتوكل الذي حكم من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٢٤٧هـ. ولعلّنا نلحظ هنا اهتمام الدولة الإسلامية بنقل الحضارة في جميع مجالاتها، وكذلك انفتاحها على العلوم الأجنبية، وسهولة التعامل ببساطة مع العلماء غير المسلمين، سواءٌ من المؤلفين أو المترجمين. وقد ترك إصطفان بن باسيل بعض المصطلحات التي فشل في نقلها للعربية لعدم معرفته بها، ولم يُكتمل هذا الكتاب إلا في عهد عبد الرحمن الناصر الخليفة الأندلسي، الذي حكم من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٥٠هـ، وذلك عندما أهدى قسطنطين السابع ملك الروم في

(١) البخاري: كتاب الطب، باب الحبة السوداء (٥٣٦٣).

القسطنطينية نسخة أخرى من الكتاب إلى الخليفة المسلم، والذي كان مشهورًا بحبه للعلم وبحثه عنه. ولقد كلف عبد الرحمن الناصر مجموعة من العلماء والأطباء يجمعون بين العربية واليونانية أن يكوِّنوا لجنة لترجمة الكتاب ترجمة صحيحة، وقد تم ذلك بالفعل في سنة ٣٣٧هـ، وبذلك استُكمِل الكتاب القيِّم(١).

وغنيٌّ عن البيان أن العلماء المسلمين لم يكتفوا بالترجمة والنقل عن العلماء الآخرين، ولكن كان هذا النقل مرحلة من مراحل تطور هذا العلم المهم، ثم كانت المرحلة التي بعدها هي مرحلة التعليق على هذه الكتب الأجنبية، وتناوُلها بالدراسة والنقد والشرح، وإقرار بعض المعلومات، ورفض معلومات أخرى، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مرحلة التأليف والابتكار والإبداع، وإضافة فروع جديدة للعلم لم تكن معروفة قبل ذلك.

ومن الطريف أن نعرف أن من أوائل العلماء المسلمين الذين اهتموا بعلم النبات وكُتُبه علماءَ اللغة العربية! وكان سبب اهتمامهم بالنبات أنهم بدأوا في تأليف معاجمهم اللغوية التي تورد كل الأسماء والألفاظ الموجودة في اللغة، وكان منها بالطبع أسماء النبات وأنواعه. ولعل أول هذه الجهود كانت على يد عالم اللغة المسلم عبد الملك بن جريج البصري، وكان ذلك في عام ١٥٥هـ، ثم تبعه العالم الجليل الشهير الخليل بن أحمد، حيث سجل في كتابه (العين) عددًا كبيرًا من أسماء النبات، وسار على نهجه بعد ذلك عددٌ كبير من علماء اللغة، مثل: ابن السِّكِّيت، والجوْهَرِي (صاحب الصِّحَاح)، وابن سِيدَه (صاحب المخصَّص)، وابن منظور (صاحب لسان العرب)(٢).

(١) عبد السلام محمد النويهي: علم النبات عند العرب، ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ص١٥٤، ١٥٥.
(٢) عبد السلام محمد النويهي: السابق ص١٥٩-١٦٢.

ومن الإضافات الجيدة في هذا المجال ما فعله العالم اللغوي هشام بن إبراهيم الكَرْماني (ت ٢١٦هـ)، حيث خصَّص كتابًا منفردًا لأسماء النبات بعنوان (النبات). وكذلك فعل العالم المشهور الجاحظ، الذي كانت له اهتمامات بالغة بعدة علوم في آنٍ واحد، وكان على رأس هذه العلوم بالطبع العلوم اللغوية والأدبية، وكذلك علوم الحيوان، إلا أنه أسهم عِدَّة إسهامات في علوم النبات، حتى إنه ألّف كتابًا منفردًا عن هذا الموضوع سمَّاه (الزرع والنخل)[(١)].

ثم ظهر العالم القدير أبو حنيفة الدِّينَوَرِي (ت ٢٨٢هـ)، الذي يُعَدّ أول من ألَّف كتابًا علميًّا متخصصًا عن النبات، وكان هذا الكتاب باسم (النبات والشجر)، وفيه جمع ما يربو على ١١٢٠ نباتًا من نباتات الجزيرة العربية، وكان يصف النبات وصفًا دقيقًا، ومن أمثلة ذلك وصفه لنبات يعرف باسم (الإسحقان)، فقال: «هو نبات ممتد حبالاً على وجه الأرض، له ورق كورق الحنظل، إلا أنه أرق، وله قرون أقصر من قرون اللوبياء، فيه حَبّ مدوَّر أحمر، يُتَدَاوى به من عرق النسا». فهو في وصفه هذا يقرِّب الصورة لقارئ الكتاب ولطالب العالم بتشبيه أجزاء النبات غير المعروف بأجزاء النباتات المعروفة مثل الحنظل واللوبياء، ثم إنه يذكر استخدامًا مفيدًا لهذا النبات، وهو في علاج عرق النسا، وبذلك لا تصبح دراسة نظرية لا جدوى من ورائها، ولكن عملية مفيدة للأطباء ولعموم الناس[(٢)].

وفي أواخر القرن الرابع الهجري ظهر العلاَّمة الإسلامي الفذّ ابن سينا، وهو من أشهر أطباء العالم، ولم يمنعه تخصصه في عدة علوم كالطب والفلسفة والفقه والكيمياء من دراسة أحوال النباتات الموجودة في الكتب أو على أرض الواقع، ولكنه بطبيعة الحال كان مهتمًّا بصورة أكبر بدراسة النباتات الطبية التي تفيد في

(١) قصي الحسين: من معالم الحضارة العربية الإسلامية ص٢٢٠، ٢٢١.
(٢) محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام ١٩٧/٥.

علاج المرضى؛ وذلك ليستكمل العلوم التي تخدمه في مهنة الطب. ولقد وصف ابن سينا النباتات الطبية وصفًا دقيقًا يدل على سعة اطِّلاعه، وطول باعه في هذا الميدان. كما أجرى عدة مقارنات علمية شرح فيها جذور النباتات، وأوراقها، وأزهارها، وثمارها، ونظائرها، وعلاقة بعضها ببعض، ولم يكن يكتفي بدراسة الكتب السابقة، أو بدراسة النباتات المجفَّفة عند العطَّارين والصيادلة، ولكنه كان يذهب بنفسه إلى البيئة الزراعية فيدرس النبات في أماكن زراعته، أو يذهب إلى الصحراء أو الغابات لدراسة النبات في منبته الأصلي، فيستطيع بذلك أن يكوِّن فكرة أوضح عن النبات.

ولقد ظهر بوضوح إسهام ابن سينا في علم النبات في كتاباته التي من أشهرها كتاب (القانون في الطب)؛ حيث ضمَّن هذا الكتاب الوصف التفصيلي لعدد كبير من النباتات، بل إنه كتب فصلاً ممتعًا عن النبات في كتاب (الشفاء)، ومع أنه كان مهتمًا جدًّا بأمور الطب إلا أنه في هذا الفصل ذكر أنواع النباتات المختلفة حتى التي ليست لها علاقة مباشرة بالعلاج، مثل: حديثه عن الخس، والملوخية، والقصب، وغير ذلك من نباتات[١].

وفي مطلع القرن الخامس الهجري ظهر الطبيب الأندلسي الجليل ابن جِلْجِل، الذي أضاف عدة موضوعات على كتاب المادة الطبية لديسقوريدس، كان قد أغفلها العالم اليوناني الكبير، وبذلك أصبح الكتاب الجديد موسوعة علمية قيمة جدًّا. وقسَّم هذا المرجع الفريد إلى خمسة فصول، كل فصل منها يتحدث عن نوع من أنواع النباتات، واستخدامات هذه الأنواع في الأدوية المختلفة[٢].

---

(١) محمد أمين فرشوخ: السابق ٥/ ١٦٨.

(٢) مجلة التراث العربي، مقالة بعنوان «علم الصيدلة عند العرب»، عدد ٢٧ فبراير ٢٠٠٢م. على الرابط http://www.arabcin.net/areen1/27/sci_heritg.htm.

ثم حدثت طفرة علمية هائلة في علم النبات في أوائل القرن السابع الهجري، عندما ظهر العالم الإسلامي العبقري، والحُجَّة العلمية الباهرة ابن البيطار، وهو من العلماء الذين وُلِدُوا في الأندلس، ولكنه عاش جانبًا كبيرًا من حياته في الديار المصرية في رعاية الدولة الأيوبية، وسنتكلم عنه -بإذن الله- في موضعه في الباب الثالث من هذا الكتاب.



مخطوط لبعض النباتات الطبية

* * *

المبحث الثاني
المسلمون وفن تصنيف النبات

تاريخنا الحضاري يشهد شهادة صادقة على إبداع المسلمين في مجالات وفنون متنوعة، ومن أهمِّ المجالات والفنون التي أبدع فيها المسلمون فنُّ تصنيف النبات، الذي عُدَّ من أهمِّ إنجازاتهم في علم النبات؛ لَمَا أظهرتْهُ هذه التصانيف من مقدرتهم وتمكُّنهم من الإحاطة بكل ما يتعلَّق بها من أوصاف وخصائص فريدة، فقد صنَّفوا النباتات على أساس لُغوي كما ظهر لدى الخليل في معجم العين، والنَّضْر بن شُمَيْل في كتابه (الصفات في اللغة)، وأبو عبيدة البصري في كتاب (الزرع). ولم يكن تدوين أسماء النباتات وتصنيفها عملاً نظريًّا فقط بل كان قائمًا على المشاهدة والمعاينة؛ وهذا ما نلاحظه عند قراءة أسماء النباتات في معجم العين للخليل، حيث يقول: «القِرفُ: نبتُ يَنْبُتُ نبْتَةَ الطَّرانيث، يخرجُ مع المَطر في وقت الصَّيف وفي وقت الخريف مِثلَ جِروِ القِثَّاء، إلاَّ أنَّها حمراءُ مُنْتَنَةُ الريح»[1].

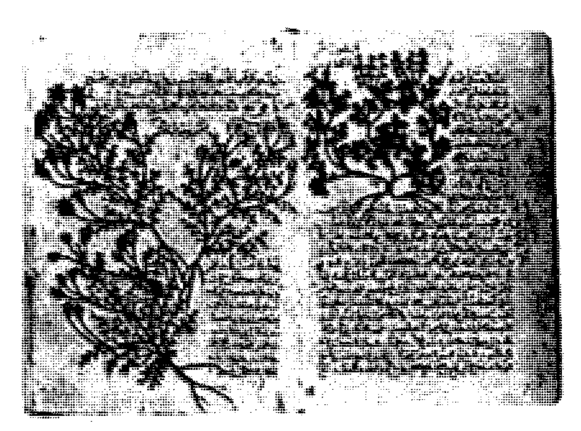
ثم أبدع العلماء المسلمون تصنيفًا آخر كان رائده الأصمعي، الذي صنَّف النباتات فيه على أساس بيئيٍّ، فقال في كتابه (النبات والشجر): النباتات الحجازية؛ كالغَرْقَد، والسدر، والعوسج. أما النباتات النجدية فهي كالثَّغام، والحُمَّاض، والقَتاد، والبُطْم (الحبة الخضراء). والنباتات الرملية كالغَضَى، والأَرْطَى، والأُمْطِيِّ، والعلْقَى، والمُصَاص. والنباتات السبخيَّة كالقَرْمَل، والعِكْرِش، والقُلاَّم، ونباتات جبال السراة كالشَّثِّ، والعَرْعَر، والطُّبَّاق، والياسمين البريّ[2].

كما أبدع المسلمون كذلك تصنيفًا تفصيليًّا عامًّا للنباتات، مثل تصنيف ابن سينا

(١) الخليل بن أحمد: معجم العين ٢/ ٢٧٨.
(٢) قصي الحسين: معالم الحضارة العربية الإسلامية ص٢٢١، ٢٢٢.

الـذي قسَّـم فيـه النبـات إلى «نبـات مُطلَق»؛ هـو عنـده النبـات القـائم عـلى سـاقه، و«حشيش مطلق»؛ ويقصد به النبـات المنبسـط عـلى الأرض، و«بقـل مطلـق»؛ وهـو النبات الذي لا ساق له مثل الخسِّ، و«شـجر حشيش» وهـو الـذي لـيس لـه سـاق منتصبة، أو ساق منبسطة مستندة إلى الأرض، أو الذي يتكَّون ويتفرَّع من أسفل مع انتصاب كالقصب، وأمَّا الحشائش العظيمة وبعض الحشائش العشبيَّة، فمنهـا الـذي له توريق[1] من أسفله، وله مع ذلك ساق كالملوكية (الملوخية) [2].

ومن علماء المسلمين الذين اهتمـوا بتصنيف النباتـات والأعشـاب، نجـد العـالم المسلم أبا القاسـم محمـد بـن إبـراهيم الغسـاني (ت ١٠١٩هــ) وهـو مـن أهـل فـاس بالمغرب، صاحب كتاب (حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار).



The Useful Chamomile. MS Illustration from *Al-Adwiya al-Mufrada* (On Simples) by Abu Ja'far al-Ghafiqi. Probably Spain. Thirteenth Century

This familiar herb has been used for centuries to deal with everything from upset stomach to a variety of nervous conditions, as well as neuralgia and rheumatism. This decorative page from a thirteenth-century copy of an Arabic manuscript by the twelfth-century Andalusian physician al-Ghafiqi, is one of more than three hundred and fifty colored renderings of plants and animals arranged alphabetically in an encyclopedic text entitled On Simples (medicinal plants). Al-Ghafiqi, a pioneer in medical botany, pharmacy, and materia medica, brought the identification of drug properties up to date.

نباتات طبية استعملها المسلمون

وقـد رتـب الغسّـاني كتابه على الحروف الأبجدية باصـطلاح المغاربـة مبتـدئًا بحـرف الألـف ومنتهيًـا بحرف الشين، يـذكر الاسـم العلمي للمادة الطبية المفـردة، ثـم يشرح ماهيتهـا ويصـف شـكلها وأجزاءهـا ومـا قـد يكـون لهـا مـن زهـر وثمـر، وكثـيرًا مـا يـذكر أسـماءها المتعـددة والبيئـة التـي تنبـت

(١) التوريق: خروج الأوراق من الشجر، انظر: ابن منظور: لسان العرب ١٠/ ٣٧٤.
(٢) محمد أمين فرشوخ: السابق ٥/ ١٨٢.

فيها، إن كانت من الأعشاب، وهو يذكر اسمها الشائع على لسان العامَّة في المغرب بالعربية، أو باللسان الأمازيغي، وبعد أن يوضِّح ماهية المادة النباتية أو الحيوانية أو المعدنية ينتقل إلى بيان طبيعتها، وأخيرًا يذكر خواصها ومنافعها الطبية أو مضارها إن اقتضى الحال من غير دخولٍ في التفاصيل المتعلقة بالمقادير وطريقة التحضير إلا نادرًا، ثم يختم بذكر بدلها إذا تعذَّر وجودها[1].

وذكر الغسّاني في الكتاب ٣٨٥ جنسًا نباتيًّا نذكر منها الأُتْرُجّ حيث قال فيه: أترج: من جنس الشجر، ومن نوع الشجر الشائك، وهو مشهور معروف يسمَّى عند العامَّة التُّرُنج (بضم التاء والراء) وبالبربرية بفتحها وبالعربية الفصحى أُتْرُجّ. وثمره له أنواع: دقيق، وجليل، ومدحرج، وطويل. طبيعته: حارٌّ في الأولى رطب في الثانية، وقيل بارد. منافعه وخواصه: بالنظر إلى ثمر الشجرة وورقها وكثرة جوهرها واختلاف أجزائها؛ فخاصية قشر ثمره تقوية القلب والأمعاء والمعدة، ويسكِّن الغَشْي والخفقان، ويُذهِب برائحة الفم، وإذا جعل في الثياب منع التسوُّس فيها، وإذا حرق وعولج به البرص طلاءً نَفَعَهُ، وخاصيَّة بذره النفع من السُّموم وخصوصًا من سمِّ العقرب إذا شُرب منه مثقالان بماء فاتر وضَمَدَ به موضعَ النَّهْشَةِ. وخاصيَّة ورق شجره: يفتح السُّدود، ويوسِّع الأنفاس، وينفع من الخفقان، ويضر بالكبد، إصلاحه بالعسل[2].

وهناك مجهودات كثيرة لعلماء المسلمين في هذا الشأن، لن نستطيع أن نستقصيها في هذا المبحث الصغير الذي تعمّدنا فيه التنوع الزمني والجغرافي للعلماء المسلمين في هذا الفرع: من مجهودات علماء اللغة، وكذلك مجهود العالم الإسلامي الكبير ابن

---

(١) نظمي خليل أبو العطا، مقال بعنوان (حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار للغساني)، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الرابط:
.http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=660&select_page=18

(٢) السابق نفسه.

سينا، وأخيرًا الغسّاني المغربي الذي قلما سمعنا عنه، أو عرفنا تجربته في هذا الأمر.

خلاصة القول: لقد بذل علماء المسلمين جُهْدًا كبيرًا في تصنيف النباتات بحسب أوجه التشابه والاختلاف بينها، وقد أسفر هذا الجهد عن فرع عظيم من فروع علم النبات، هو علم تصنيف النبات، الذي استفاد منه علماء النبات في العالم كله في دراساتهم طَوَال القرون التالية، فكان جهد المسلمين دافعًا لتقدُّمهم ونهضتهم، ونسأل الله ﷻ أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

* * *

الفصل الثالث

المسلمون وعلم الحيوان



إن الحق الذي لا مساس فيه أن تاريخ الحضارة الإسلامية بصفة خاصَّة، والحضارة الإنسانية بصفة عامَّة يؤكدان على مدى التقدم المذهل الذي حققه علماء المسلمين طوال حقب زمنية متعاقبة قد لا تقل عن سبعة أو ثمانية قرون على أقل تقدير في مضمار علم الحيوان وملحقاته. وسنرى أن المسلمين أضافوا كثيرًا مما لم يكن معروفًا عن هذا العلم قبل ذلك؛ فقد اهتموا بمعرفة وتدوين الملاحظات الدقيقة عن كل حيوان من الحيوانات فيما يختصُّ بحياته وخَلْقِهِ، واهتموا أيضًا بعلم البيطرة والثروة الحيوانية وكل ما يتعلق بتطورها ونمائها، وسبقوا غيرهم من الأمم إلى الحديث عن سلوك الحيوان[1].

وعلم الحيوان عند المسلمين، كما يذكر طاش كبرى زاده في كتابه (مفتاح السعادة) هو: «علمٌ باحثٌ عن خواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضارِّها، وموضوعه: جنس الحيوان البري والبحري والماشي والزاحف والطائر وغير ذلك، والغرض منه: التداوي والانتفاع بالحيوانات والاحتماء عن مضارِّها، والوقوف على عجائب أحوالها، وغرائب أفعالها»[2].

وقد يكون من غمط الحق، والبعد عن جادَّة الصَّواب أن نزعم أن المسلمين لم يتطرقوا لما كتبه السابقون عليهم في هذا المجال؛ فقد درسوا كثيرًا مما كتبه الصينيون والمصريون القدماء والبابليون واليونان والرومان، وترجموا معظم كتبهم عن علم

---

(١) انظر: مصلح بن عبد الحي: الوافي في الثقافة الإسلامية ص٢١٢، سيد رضوان: العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية ص٩٤.

(٢) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ص٤٠١.

الحيوان إلى اللغة العربية، لكنهم -بلا ريب- أضافوا الكثير مما لم ينتبه إليه السابقون، وبرز العديد من العلماء الأجِلاَّء في هذا المضمار[1]، ومن خلال المباحث التالية نستعرض إسهامات المسلمين في علم الحيوان:

- **المبحث الأول: مكانة علم الحيوان عند المسلمين**
- **المبحث الثاني: إسهام المسلمين في علم البيطرة**
- **المبحث الثالث: المسلمون وعلم الطيور الجارحة (البيزرة)**

❋ ❋ ❋

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان ص١٦-٢٦.

المبحث الأول

مكانة علم الحيوان عند المسلمين

وعلى الرغم من أن إسهام المسلمين في حقل الحيوان لم يأخذ حقَّه مثل إسهامهم في بقية العلوم، إلا أن لهم آراء سبقوا بها أفكار بعض المُحْدَثين؛ فعلى سبيل المثال تُنسب نظرية التكافل أو المشاركة الحيوانية للفيلسوف الألماني جوته (ت ١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م)، إلا أننا نجد إشارات واضحة لدى كل من الجاحظ والقزويني والدَّمِيري لهذه النظرية التي مفادها أن بعض الحيوانات التي تعيش في بيئة مكانية واحدة، قد يربط بينها نوع من المصلحة المشتركة؛ لذا تنشأ بينها مودة، كأن يحطُّ طائر البقر فوق البقرة ليلتقط منها الهوامَّ، أو كأن ينظف طائر التمساح أسنان التمساح مما علق بها من بقايا اللحوم[1].

فالجاحظ يقول: إن بين العقارب والخنافس مودَّة، والغراب مصادقٌ للثعلب، والثعلب صديق للحيَّة، وهناك عداوة بين العُقَاب والحية. أما الدَّميري فيؤكد على أن بين الضَّبِّ والعقرب مودة، وأنها تعيش في جُحْره لتحميه من الأعداء، فمن حاول التحرُّش به ودخل جحره، سيجد العقرب مستعدة للسْعه[2].

أما القزويني الذي سبق الدّميري فيقول: إن الببر الهندي الضخم الذي يفوق الأسد في القوة، صديق للعقرب التي تبني لها بيتًا في شعر الببر، وأيضًا هناك صداقة قوية بين الذئب والضبع، وكذلك بين النمر والأفعى[3].

ولا يغيب أثر البيئة عند القزويني الذي يرى أن البيئة تؤثر في التوالد والتفريخ، فيقول في (عجائب المخلوقات): فالفيلة لا تتولد إلا في جزائر البحار الجنوبية،

(١) انظر على سبيل المثال: الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون ٥/ ٣٥٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان ٥/ ٣٥٦.

(٣) انظر: القزويني: عجائب المخلوقات، تحقيق علي صراط الحق ص٣١٨.

وعمرها في أرض الهند أطول من عمرها بغير أرض الهند، وأنيابها لا تعظم مثل ما تعظم بأرضها، والزرافة لا تتولد إلا بأرض الحبشة (إفريقيا الشرقية)، والجاموس لا يتولد إلا بالبلاد الحارة قرب المياه، ولا يعيش بالبلاد الباردة، والسنجاب والسَّمُّور وغزال المسك لا يتولد إلا في البلاد الشرقية الشمالية، والصقر والبازِي والعُقاب لا يتفرخ إلا على رءوس الجبال الشامخة، والنعامة والقَطَا لا يفرخان إلا في الفلوات، والبطوط وطيور الماء لا تفرخ إلا في البساتين، والحَجَل لا يفرخ إلا في الجبال، هذا هو الغالب، فإن وقع شيء على خلاف ذلك فهو نادر(1).

ولإخوان الصفا رأي في الحيوان لم يُسبَقوا إليه، وإن كان رأيًا فلسفيًّا أكثر منه علميًّا؛ ففي ثنايا حديثهم عن الخلائق يدللون على قدرة الخالق بالمقارنة بين الفيل أضخم الحيوانات والبَقَّة أهون الحشرات: إن أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقة، وهي أعجب خلقة وأظرف صورة؛ لأن الفيل -مع كبر جثته- له أربع أرجل وخرطوم ونابان خارجيان، والبقة -مع صغر جثتها- لها ست أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذَنَبٌ وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء، وأعضاء أخرى لا يدركها البصر، وهي -مع صغر جثتها- مسلطة على الفيل بالأذية، ولا يقدر عليها، ولا يمتنع بالتحرز منها(2).

وكان التصنيف الحيواني من جملة إنجازات المسلمين وإسهاماتهم المميزة في علم الحيوان، فلم يكن تقسيمهم للحيوان موحَّدًا، إذ بدأ عامًّا مطلقًا؛ إذ قسموا الحيوانات إلى أليفة ومتوحشة وضارية، ثم لما انتقلوا من الوصف اللغوي إلى التناول شبه العلمي، قسَّموها إلى نوعٍ يمشي وآخر يطير وثالث يسبح ورابع ينساح (يزحف)، ومنهم من قسمها إلى تام وناقص.

---

(1) انظر: القزويني: عجائب المخلوقات، تحقيق علي صراط الحق ص٣٠٩، ٣٤٦.
(2) علي عبد الله الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان ص٣٦.

فالقزويني -مثلاً- يجعل الحيوان في المرتبة الثالثة من الكائنات بعد أن جعل الأولى والثانية للمعادن والنباتات على التوالي، وقسّم الحيوان بدوره إلى أنواع متعددة جعل الإنسان في قمتها؛ فهو أشرف الحيوانات وخلاصة المخلوقات، وصنّف الحيوان إلى سبعة أقسام: الإنسان، والجن، والدواب؛ وذكر منها: الفرس، والبغل، والحمار، وحمار الوحش وغيرها، وبيّن خواصّ كل منها، ثم النَّعَم؛ وهي حيوانات كثيرة الفائدة شديدة الانقياد، ليس لها شراسة الدواب ولا نفرة السباع، كالإبل والبقر والجاموس والزراف وغيرها، ثم السباع كابن آوى وابن عُرْسٍ والأرنب والخنزير والذئب والضبع والفهد والفيل والكَرْكَدَّنِ والكلب والنمر، ثم الطير ومنها أبو بَرَاقِش والأوز والباقش والببغاء والبلبل والحُبَارى والحدأة والحمام والخفاش، ثم الهوام والحشرات، وهذا النوع لا يمكن ضبط أصنافه لكثرته: كالأرضة والبرغوث، والأفعى، والجراد، والحرباء، والحلزون، والخنفساء[1].

أما الجاحظ فقد ذهب في ذلك شوطًا بعيدًا، حيث قسّم الحيوانات إلى فصائل؛ ففي باب الحيوانات ذات الأظلاف يذكر الظباء والمعز والبقر الوحشي والبقر الأهلي والجواميس والوعول والتياتل، ومن خلال حديثه عن هذه الفصيلة تَرِدُ ملاحظات علمية كأن يقول: «والبقرُ الوحشيُّ ذاتُ أظلافٍ، وهي بالمَعْز أشبَهُ منها بالبقر الأهليّ، وهي في ذلك تسمَّى نعاجًا»[2].

ويقسِّم الجاحظ الحيوان عامة إلى أربعة أقسام: شيء يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح، إلا أن كل طائر يمشي، ولا يسمَّى الذي يمشي ولا يطير منها طائرًا، كما أنه ليس كل ما طار من الطير؛ فقد يطير الجِعْلان، والذباب والزنابير والنمل والأرضة لكنها لا تسمَّى طيرًا، كما أن ليس كل عائم سمكًا على الرغم من

---

(١) انظر: القزويني: عجائب المخلوقات، الفهرس.
(٢) الجاحظ: الحيوان ٧/ ٢٣٩.

مناسبته للسمك في كثير من الصفات؛ إذ إن في الماء كلب الماء وخنزير الماء والسلحفاة والضفدع والتمساح والدلفين[1].

أما الحيوان عند إخوان الصفا فصنفان: تام الخلقة، وناقص الخلقة؛ تام الخلقة: هو الذي ينزو ويحبل ويلد ويرضع، أما ناقص الخلقة: فهو كل حيوان يتكون من العفونات، ومنها ما هو كالحشرات والهوام وما هو بين ذلك، كالتي تنفذ وتبيض وتحضن وتربي. وأشار إخوان الصفا إلى التطور في خلق الحيوان: ثم إن الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخلق، وذلك أنها تتكون في زمان قصير، والتي هي تامة الخلقة تتكون في زمن طويل. وقسموا الحيوانات وَفْق بيئاتها؛ فمنها سُكَّان الهواء، وهي أنواعٌ: الطيور أكثرها والحشرات جميعًا، ومنها سكَّان الماء، وهي حيوانات تسبح في الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف ونحو ذلك، ومنها سكان البر؛ وهي البهائم والأنعام والسباع، ومنها سكان التراب وهي الهوام[2].

***

(١) الجاحظ: الحيوان ١/ ٣٠.

(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية (الإصدار الرقمي الإلكتروني، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

المبحث الثاني
إسهام المسلمين في علم البيطرة

يعدُّ الطب البيطري وتطوره عند المسلمين من العلامات المميزة على إنجازاتهم في مجال علم الحيوان بصفة عامة؛ فلقد تطور الطب البيطري في ظل الإسلام ولاقى عناية كبيرة بفضل تعاليمه التي تأمر بالرفق بالحيوان، وبحسن تغذيته والعلاج في حينه، وعدم تحميله فوق طاقته، ومنع قتل الحيوان إلا لمنفعة أو لسبب إنساني.

ومن قواعد الشريعة (قوانين الدولة الإسلامية) تحريم استعمال المناخس المعدنية الجارحة لدفع الحيوان على الإسراع، وتحريم خرم الأنف لشد الحيوان منه لأنه يؤلم، وتحريم الوشم على الوجه لأنه يشوِّه، وإذا ذُبح الحيوان ذبحًا غير شرعي -أي بما يشترطه الشرع من الرفق والتكبير وسَنِّ الشفرة- فإن لحمه يصبح حرامًا[1].

وقد نهى الإسلام عن اتخاذ أي حي -سواء كان حيوانًا أو طائرًا- غرضًا لمجرد التدريب على الرماية أو جرحه لمجرد التسلية أو اللهو (كما في مصارعة الثيران)؛ فقد كانت محرَّمة على عهد الدولة الإسلامية في الأندلس؛ لما فيها من تعذيب للحيوان[2].

وقد كان لهذه التعاليم الفضل في عناية المسلمين بعلم الحيوان والطب البيطري، وكان اهتمام المسلمين الأعظم بالفَرَس؛ لأنه رفيقهم في الحرب والجهاد، فكتبوا عن أنواع الخيل وخصائص كل نوع وعيوبه ومميزاته، ثم كتبوا عن أمراضه وعلاجاتها،

---

(١) انظر: نظام الدين البلخي وآخرون: الفتاوى الهندية ٥/ ٢٨٨.
(٢) انظر: وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٤/ ٢١٦.

كما أعطوا اهتمامًا كبيرًا للصقور لعلاقتها بالصيد والرياضة، ومع أن كتاب (الحيوان) للجاحظ قد غلب عليه الطابع الأدبي إلا أنه يحوي من الحقائق العلمية عن الحيوانات ما يستحق وضعه في أبواب العلم[1].

ومن ذلك ما فصَّله عن خصاء الحيوانات ومنافعه ومضاره؛ فقد أوضح أن خصاء الحيوان يكون في سبيل تسمينه أو توفير قوته للحمل، أو الجر، أو الجري في السباق، أو لإخفاء صوته كما تُخصى خيل الغزو كيلا تصهل فتنبِّه العدو لمكانها[2].

وقد تحدَّث عن أثر التزاوج بين جنسين من الحيوان مثل الذئب والكلبة[3]، والحمار والفرس[4]، والحمام البري والأليف، وهو أول من بيَّن أن خصية واحدة تكفي للتناسل، وأن الحيوان منزوع إحدى الخصيتين يعيش طبيعيًّا.

وقد اهتم المسلمون بعلم تشريح الحيوان، وأقيمت أول مشرحة على نهر دجلة في بغداد، وكان الهدف منها:

أولاً: تعليم طلبة الطب جسم الإنسان عن طريق ما يسمَّى (بالتشريح المقارن)؛ فكان الاهتمام في هذا المجال بالقردة المستوردة من النوبة، وهي فصيلة خاصة شبيهة في تركيبها بجسم الإنسان.

ثانيًا: تعلُّم الطب البيطري ورعاية الحيوان:

ويذكر سارتون أن من أهمية علم البيطرة عند المسلمين ولشدة احترامهم لهذه المهنة تجد الكثير من العائلات تأخذ كُنية البيطري؛ ومن ذلك عالم النبات المشهور (ابن البيطار) الذي يدلنا نسبه أن أباه كان متخصصًا في علاج الحيوانات، وأن هذا

---

(١) انظر: القزويني: عجائب المخلوقات ص٣٠٣، ٣٤٧، الجاحظ: الحيوان ٦/ ٤٧٨.
(٢) الجاحظ: الحيوان ١/ ١٣٠-١٣٢.
(٣) الجاحظ: السابق نفسه ١/ ١٨٣.
(٤) الجاحظ: السابق ١/ ١٣٧.

العلم قد أصبح فرعًا متخصصًا من فروع العلاج في ذلك الوقت المبكر في التاريخ الإسلامي.

ولكي نعطي القارئ فكرة عن المدى الذي وصل إليه المسلمون من التطور العلمي في ميدان الطب البيطري.. حسبنا أن نسرد بعض الأبواب من كتاب (الفروسية) الذي ألّفه أحمد بن الحسن بن الأحنف (البيطار) في سنة (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)، وهو عبارة عن موسوعة علميَّة في أمراض الخيل ورعايتها (موجودة في المكتبة التيمورية بالقاهرة رقم ١٠٨).

فالباب الأول: يتناول دراسة أسنان اللبن والأسنان الثابتة، والباب الثاني: عن المظهر الخارجي والصفات العامة المميزة للفرس والحمار والبغل، والباب الثالث: وظائف الأعضاء الخارجية، والباب الرابع: عن الفروسية وطريقة الركوب، والباب الخامس: عن سباق الخيل، والباب السادس: عن العيوب الوراثية في الخيل، والباب السابع: عن الصفات السيئة والعيوب الجسميَّة، والباب الثامن: تقسيم البطن، والباب التاسع: عن أمراض الرأس والعيوب الخِلْقيَّة، ومن جملة أمراضها: الرقبة والحلق، وأمراض الكتف والصدر، وأمراض الظهر، والأمراض الداخلية والباطنية، والذيل وعيوبه، والفخذ والساق، وأمراض الأعصاب، والكسور والخلع وجبرها، وحميات الخيل، والأمراض الجلدية مثل الجرب والحكة والدمامل والجدري والجذام والحروق[1].

هذه الموضوعات العريضة والدقيقة التي يطرقها المؤلف في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تدلنا على مدى اهتمام المسلمين بالبيطرة وعلاج الحيوان منذ وقت مبكر، وعلى إنجازاتهم وتفوقهم في هذا الميدان[2].

(١) أحمد بن الحسن: الفروسية ص٢٨٧، مخطوطة بالمكتبة التيمورية.
(٢) انظر: موقع المنظمة العالمية للعلوم الإسلامية، الرابط: www.islamset.com.

المبحث الثالث

المسلمون وعلم الطيور الجارحة (البيزرة)

يكاد الصيد بالطيور الجارحة كالبازي والصقر والشاهين وغيرها أن يكون من أكثر الظواهر الحضارية تغلغلاً في حياتنا العربية والإسلامية على مرِّ الزمن؛ سواء في ذلك الشِّعر والرسم والأمثال والقصص الشعبي، ولشدة تعلق الناس على مختلف المستويات بهذا النوع من الصيد تطور من مجرد «هواية» ترضي طلاَّب الرياضة والمتعة إلى علم ذي قواعد وأصول تتناول كيفية تدريب الطيور في الإرسال والدعاء، وكيفية تغذيتها ومراعاتها في فترة القرنصة، وعلاجها إذا ألمّ بها مرض في أي جزءٍ من أجزاء الجسم، وغدا لهذا العلم الذي يسمى (البَيْزَرة) مصطلحاته الخاصة به، وخبراؤه وعلماؤه الذين يعرفون كل ما يهمُّهم في هذا الميدان على المستويين النظري والعلمي.

إذن فعلم معرفة الطيور الجارحة من حيث صحتها ومرضها، ومعرفة العلائم الدالة على قوتها في الصّيد كان معروفًا عند المسلمين باسم (البيزرة). وتكاد تتفق المصادر على أن كلمة (البيزرة) مأخوذة من اسم الباز أو البازي، وهو نوع من الصقور، ولعل الاقتصار في إطلاق اسم البازي على هذا العلم دون غيره، يرجع إلى كونه أشهر طيور الصيد وأمهرها في الإمساك بالفريسة، وقد وصفه أبو عبد الله القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) بأنه «أشد الجوارح تكبُّرًا وأضيقها خلقًا (مزاجًا) يوجد بأرض الترك»[1].

أما الذي يقوم بحرفة البيزرة فهو (البيزار) الذي يُدرِّب جوارح الطير على الصيد، وأصل هذه الكلمة فارسي أُخذ من كلمة (البازيار) أو (الباز دار)، وهي

---

(١) القزويني: عجائب المخلوقات ص٣٣٧.

تعني القائم بأمر البازي أو الحامل له في الصيد.

ولا يُعرف على وجه الدقة أول من وضع قواعد هذا العلم وفنونه، غير أن من الآراء من تحدو بهذا العلم صوب الهنود، ومنها ما يُعزيه نحو البطالمة، لكن الصيد كان عند العرب حرفة وهواية مشهورة، وقد وضعه الإسلام موضع نعمة منَّ الله بها على عِباده؛ فقال تعالى في كتابه الكريم: ﴿يسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[1]﴾. فتعليم وتأديب الإنسان لهذه الجوارح، سواء من الطير أو السباع، ثم الاستعانة بها على الصيد هو نعمة من نعم الله على عباده، والتي لا يعلم حقيقتها إلا المشتغلون في هذا العلم؛ فمن ثمرات هذا العلم أنه يحفظ ماء وجه الفقير المحتاج، أو كما قال بازيار العزيز بالله الفاطمي في كتابه (البيزرة): «لا يكاد يحب الصيد ويؤثره إلا رجلان متباينان في الحال، متقاربان في علوِّ الهمة، إما ملك ذو ثروة...، والفقير الزاهد لظلف نفسه عن دنيِّ المكاسب، ورغبتها عن مصرع المطالب، وحقنه ماء وجهه عن غضاضة المهن»[2].

وقد كان (البازيار) في الخلافتين الأموية والعباسية يُدعى: (صاحب الصيد)، وسرعان ما أصبحت البيزرة من مقومات حياة الخلفاء، ينُفق عليها من بيت المال كما ينفق في غيرها من القوى والأوضاع، حتى كان المُعطَى إلى البيَازِرة في أيام نزار (الخليفة الفاطمي) يُقدَّر بخمسين ألف دينار؛ وذلك لأرزاقهم وطعام جوارحهم، سوى الدواب التي تُشترى لهم في كل سنة.

أما إسهامات علماء المسلمين في هذا العلم فكانت كثيرة ومتنوعة، كل منهم قد

(١) (المائدة: ٤).

(٢) بازيار العزيز بالله: البيزرة ص٢، ٣.

عني بهذا العلم من نواحٍ متعددة؛ فمنهم من عني بالجانب اللغوي مثل كتاب (الطير) للسجستاني، وكتاب (الوحوش) للأصمعي، وكتاب (البازي) و(الحمام) وكتاب (العُقاب) لأبي عُبيدة، ومنهم من عُني بالناحية الفقهية، وحكم الشرع الحنيف في الصيد بالجوارح، مثل كتاب (الصيد والذبائح) للإمام الشافعي، وكتاب (الصيد والذبائح) لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة - رحمه الله-، ومنهم من تناول علم البيزرة العام: مثل كتاب (الكافي في البيزرة) لعبد الرحمن بن محمد البلدي، وكتاب (الجمهرة في البيزرة) لعيسى الأزدي، وكتاب (البيزرة) لبازيار العزيز بالله الفاطمي، وكتاب (نزهة الملوك والسادات بالطيور والجوارح والجياد الصافنات) لمؤلف مجهول وهو مطبوع، وكتابي (البيزرة) و(ضواري الطير) للغطريف بن قدامة الغسّاني[1].

وقد رأينا الجاحظ في كتابه (الحيوان) يهتم بالبيزرة، ويضع لذلك فصلاً مستقلاً بعنوان (جوارح الملوك)، فيذكر أن من جوارح الملوك «الباز والفَهد، والشاهين، والصَّقر، والزُّرَّق، واليُؤْيُؤ، وليس ترى شريفًا يستحسِنُ حمْلَ البازي -لأنّ ذلك من عمل البازيار- ويستهجن حمل الصُّقور والشواهين وغيرها من الجوارح، وما أدري علَّة ذلك إلا أنّ البازَ عندهم أعجميّ، والصَّقر عربيّ»[2]. وقد صرّح الجاحظ في كلامه السابق بما كان يدور في عصره من النزعة الشُّعوبية التي طالت كل شيء حتى وصلت إلى استحسان أو استهجان حمل الطيور الجارحة تبعًا لصاحبها: العربي أو الأعجمي.

ومهما يكن من أمر الجاحظ فإن مجرد ذكره الطيور الجارحة، وعَنوَنة ذلك الموضوع باسم (جوارح الملوك) ليُدلل على اهتمام علماء المسلمين بهذا الشأن في تلك

---

(١) أحمد فؤاد باشا: دائرة سفير للمعارف الإسلامية، مدخل البيزرة، ص٣٩، ٤٠.
(٢) الجاحظ: الحيوان ٦/ ٤٧٨.

الفترة الزمنية (أي في القرن الثالث الهجري). وقد لاحظنا أن الجاحظ قد تطرّق إلى ذكر النوع الجيد من هذه الجوارح الذي يستجيب للتدريب، كما تطرّق إلى ذكر بعض مساوئ هذه الجوارح، فقال: «ومن الحيوان الذي يُدرَّب فيستجيب ويَكيس؛ ويُنصَح العَقْعَقُ فإنّه يستجيبُ من حيثُ تستجيبُ الصُّقور ويُزْجر فيعرف ما يُرَاد منه، ويخبأ الحَلي فيُسأل عنه ويُصاح به فيمضي حتى يقفَ بصاحبه على المكان الذي خبَّأه فيه ولكن لا يلزم البحث عنه، وهو مع ذلك كثيرًا ما يُضيع بيضه وفِراخه»[1].

ونجد (بازيار العزيز بالله الفاطمي) -ويُعتقد أن اسمه أبو عبد الله الحسن بن الحسين المتوفَّى في القرن الرابع الهجري- في كتابه (البيزرة) -وهو كتاب صغير الحجم لا يتعدى متنه الستين صفحة- قد قسَّم كتابه إلى عدد متنوع من الفصول المتعلقة بجوارح الطير والسباع، إلا أن غالبية صفحات الكتاب تدور حول البيزرة وجوارح الطير، من حيث أسمائها وصفاتها وأمراضها وطرق معالجتها، ثم طريقة تدريبها والاستفادة بأقصى ما يمكن الاستفادة به منها. ثم يُضيف في نهاية كتابه موضوعًا مهمًّا يتناول فيه كيفية الصيد في ضوء القمر، وهذا الباب لم يتناوله أحد من قبله، والكتاب مع هذا كله قد تطرّق لأشعار وأنثار وحكم السابقين في هذا المضمار، وأخبار الخلفاء والملوك الذين عنوا بالصيد واهتموا به.

وتظهر خبرة بازيار العزيز بالله الفاطمي واضحة جلية في هذا الكتاب؛ فالمؤلف قد صقَّلته الخبرة، وعلّمته السنون؛ فقد امتدت به التجرِبة مدةَ عشرين عامًا كاملة قبل أن يبدأ في تأليف هذا الكتاب؛ لذلك كانت لديه مكانة مرموقة عند الخليفة نزار الفاطمي الذي عينه وزيرًا من وزرائه مدة سنة ونصف، ثم أصبح كبير رؤساء البيازرة عنده، حتى قدّر له راتبًا بعشرين ألف دينار، وهذا راتب ضخم جدًّا يُدلل على مكانة البيزرة في نفوس الخلفاء والملوك والسادات في هذا العصر.

(١) الجاحظ: الحيوان ٦/ ٤٧٨.

وقد رأيناه في كتابه (البيزرة) يُفضِّل الصقور على الشواهين مع أن غالبية المشتغلين في هذا الأمر يرون العكس، وقد علّل ذلك بسبب فراهة ألوانها وأوزانها، وقدرة الصقور على اصطياد ما لا تقدر عليه الشواهين[1].

وممن اهتم بعلم الطيور الجارحة، وذاع صيته في هذا الشأن، نجدُ عبدَ الرحمن بن محمد البلدي المتوفَّى في القرن السابع الهجري في كتابه (الكافي في البيزرة)، وقد أوضح فيه الأُسُسَ المنهجية في هذا العلم، فذكر أن البيزرة تنقسم إلى أربعة أقسام، يقع كل منها في أربعة أبواب.

فأما القسم الأول فيتناول معرفة أجناس الجوارح، ويبحث الباب الأول منه في عدد أصناف الجوارح، والباب الثاني في الفرق بين كل جنس منها والآخر، والباب الثالث في ذكر النافع من أصنافها، والباب الرابع في عدد ألوانها.

ويختصُّ القسم الثاني بمعرفة النوع الفاضل المختار من الجنس النافع من الجوارح، ومعرفة الرديء منها، ويتناول الباب الأول من هذا القسم: معرفة الجيد والرديء من قِبل معدنه، والثاني: معرفة الجيد والرديء من قبل صورته وهيئته، والثالث: معرفة الجيد والرديء من قبل لونه، والرابع معرفة الجيد والرديء من قبل أخلاقه وأفعاله.

كما يهتم القسم الثالث بمعالجة «تدبير الجوارح النافعة ورياضتها»، ويبحث الباب الأول منه في ذكر من لعب بالضواري، وتصيّد بها، والثاني في وصية المتعلِّم لهذه الصناعة والمتعرض لها، والثالث في نعت الإجابة والتعلم لكل نوع، والرابع في تقدير طعم الضواري على طبيعة كل واحد منها.

ويتناول القسم الرابع: «مداواة أمراض الجوارح» وفيه أربعة أبواب؛ الأول في

---

(١) بازيار العزيز بالله الفاطمي: البيزرة ص٥٠ وما بعدها.

صفة طبائع الجوارح الضواري وأمزجتها وامتحانها عند ابتياعها، والثاني في ذكر أسباب أمراضها وعلامات كل مرض، والثالث في صفة مداواتها وعلاج أمراضها وتدبير أدويتها، والرابع في تدبير قرنصتها وعلامات موتها وهلاكها.

ويتضح من هذا العرض المنهجي لموضوعات علم البيزرة، الذي أوضح جوانبه وأركانه «البلدي» أن ثمة علاقة وثيقة بين هذا العلم وبين علوم أخرى يأتي على رأسها علم البيطرة؛ فقد اهتم البلدي بالبحث في طب الطيور الجارحة، وسجّل ملاحظات قيِّمة عن أنواع الطفيليات التي تُصيبها، منها قوله عن الديدان في دُبر الطائر: «علامات الدود إذا كان في دُبر الجارح، أن تراه يحك دُبره دائمًا وذرقه متصلاً على حاله لا خضرة فيه بل متغير الشكل الطبيعي، وربما خرج من ذرقه[1] دود». ثم نراه يهتم بأنواع الحشرات التي تُصيب الطيور الجارحة، فيتحدث عن القمل بقوله: «القمل قملان: صغار وكبار، والصغار أشدها على الجارح مضرة وأذية له من الكبار؛ لأن الصغار تُذيبه وتنهكه وتُسقم جسمه، وتمنعه من الأكل والنوم للصوقها بجلده، والكبار تسعى في بدنه، وتنتقل من مكان إلى مكان فيجد لذلك راحة، والقمل الكبار يأكل القمل الصغار، والقمل يُنشِّف رطوبة الطير حتى يتركه جلدًا وعظمًا إن لم يُعالج»[2].

وتتجلى ثقافة عبد الرحمن بن البلدي العمليَّة في مواطن كثيرة من كتابه، فهو يخبرنا مثلاً عن أفضل لون في الجوارح حسب خبرته الطويلة فيقول: «وعندي أن الأصفر من البزاة ومن الشواهين ومن الصقور ومن البواشيق ومن اليوايىء أصيد الألوان كلها بالتجربة». وهو حين يتحدث عن تخيُّطِ عيني الجارح فإنه يشرح كيفية ذلك، ثم يحذِّر من أن الخطأ قد يُذهِب بعيني الجارح ويضيف: «فقد رأيت أعين

---

(١) ذَرْقُ الطائر: خُرْؤُه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ذرق) ١٠/١٠٨.

(٢) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٨٤، ٨٥.

جوارح كثيرة هلكت بذلك السبب».

وأما ثقافته النظرية فقد اعتمد فيها على مصدرين: شهادات سماعية، وأخرى منقولة عن مؤلفات سابقة في البيزرة؛ فقد روى سماعًا عن عدد من معاصريه من المشتغلين بهذا الفن أمثال غنيم العمادي ويوسف البازيار، وله من البازيار الفرنجي موقفان، فهو يقول مرة: «سمعت البازيار الفرنجي يقول...». ويقول في مواطن كثيرة أخرى: «وقال البازيار الفرنجي...». وقد يعني هذا أنه في حال السّماع كان ينقل رأي بازيار بعينه، وفي حال «قال البازيار...» كان ينقل عن كتاب تتمثل فيه خلاصة تجربة الفرنجة لمؤلف معيَّن أو لغير مؤلف واحد، ولما كان كتاب الكافي متأخرًا نسبيًّا من الناحية الزمنية فهو يعتمد على تراثٍ واسع قد سبقه في البيزرة، ويردِّد حتى الجوانب الأسطورية من ذلك التراث. وأما المصادر التي اعتمد عليها صاحب الكافي فهي تصدر دائمًا باسم مؤلِّف الكتاب -دون تعيين لاسم الكتاب نفسه- أمثال: أدهم بن محرز الباهلي، والغطريف بن قدامة الغساني، ومهدي بن أَصْرَم صاحب كتاب الصيد، ومحمد بن عمر البازيار المعروف بعرجة، وعبد الله بن يوسف البازيار الأصفهاني، والبازيار الفرنجي، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وغيرهم[1].

وممن كان له إسهامه الواضح في هذا العلم، نجدُ الغطريف بن قدامة الغساني في كتابه (ضواري الطير) الذي عني فيه بطب الطيور الجارحة؛ فقد سجل مجموعة من الملاحظات الدقيقة التي تُدلِّل على عمق معرفته بهذا العلم، وطول خبرته في هذا المجال، منها قوله عن ديدان الحوصلة: «إذا رأيت الطائر قد ألقى ريمجه[2] فكان له الدود، فاعلمْ أن في حوصلته دودًا». وكذلك قوله عن الديدان المعويَّة: «إذا رأيتَ

(١) نظر: الرابط http://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb29530-27877&search=books.

(٢) الرَّامِجُ: المِلْواحُ الذي يصاد به الصُّقُور ونحوها من جوارح الطير. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (رمج) ٢/ ٢٨٤.

الطير قد ورم ما فوق كتفيه، فاعلم أن في بطنه ديدانًا عِراضًا مثل حَبِّ القَرْع (الديدان الشريطية) التي تكون في الصبيان». وقوله أيضًا: «أن ترى الطير ينتف ريش مَرَاقِّه، أو ينتف ريش فخذيه، فذلك يدل على العِراض، أمثال دود الخل يعرض للصبيان في بطنه»[1].

وهذه الملاحظات القيِّمة من الغطريف تُدلل على استخدام المسلمين للتجربة والاستقراء ثم التوصُّل إلى أفضل النتائج في المجالات العمليَّة والتطبيقيَّة؛ وأما تدرُّج المسلمين من الاستمتاع بالبيزرة باعتبارها مجرد هواية في أول الأمر، ثم وضع القواعد والأصول المنهجية لتلك الهواية ثم الارتقاء بها حتى جعلوها علمًا متفردًا، فكل ذلك مما يُدلل على ابتكار المسلمين لعلم البيزرة، وأسبقيتهم قبل غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى في هذا العلم؛ لذلك وجدنا أن عددًا من الكتب التراثية المعنيَّة بعلم البيزرة قد تُرجم في عصر النهضة الأوربية الحديثة إلى اللغة اللاتينية، ثم انتشرت هذه الترجمات بعد ذلك في مختلف بلدان أوربا، وانتشرت معها رياضة الصيد بواسطة الصقر.

***

(١) انظر: الغطريف بن قدامة الغساني: ضواري الطير، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت ١٩٨٤م.

الفصل الرابع

المسلمون وعلم الوراثة

لقد تعمّق المسلمون في علوم شتى، فلم يتوقف إنتاجهم العلمي والفكري عند القشور أو الأمور المبسّطة الميسورة التي غالبًا ما وسِمَ المسلمون بأنهم أصحاب علوم ساذجة لا ترقى للعمق المعرفي المتأصل عند الغربيين !

والحق الذي لا جدال فيه أن علم الوراثة من العلوم الدقيقة التي ما زال علماء العصر الحديث يكتشفون أسراره وأغواره يومًا بعد يوم، لكن الإسلام أوضح من خلال كثير من نصوصه الصريحة أن علم الوراثة علم إسلامي المنشأ والتطور؛ فلقد سبق الإسلام النظريات الغربية في علم الوراثة بأكثر من ألف وثلاثمائة عام، وسنتأكد من هذه الحقيقة الـمُغيّبة، وما قدمه علماء الإسلام لهذا العلم منذ قرون خلت، من خلال المبحثين الآتيين:

- **المبحث الأول: المسلمون وابتكار علم الوراثة**
- **المبحث الثاني: علم الأجنة عند المسلمين**

❋ ❋ ❋

المبحث الأول

المسلمون وابتكار علم الوراثة

جاء ظهور الإسلام رحمة بالإنسانيَّة، ذلك الدين الذي دفع أتباعه إلى السبق والريادة، وحَضَّهم على الابتكار والإبداع في شتى أنواع المعرفة والعلوم؛ وهو ما جعل الأمم المنصفة تشهد بفضلهم ودورهم الحضاري في مسيرة الإنسانية.

ولعلَّ المشهور عند عموم الناس في الشرق والغرب -ويُؤَرِّخ له المؤرخون، ويدرسه طلاب المدارس والجامعات- أن عِلْمَ الوراثةِ عِلْمٌ حديث النشأة، وُلِدَ مع علوم الحياة الأساسية الكبرى؛ كالفسيولوجيا، وعلم الأجِنَّة، وعلم الخلايا، وبيولوجيا التناسل، والهندسة الوراثية، وعلم التحسين الوراثي، وغيرها، وترجع نشأته إلى الراهب النمساوي (مندل) (١٨٢٢- ١٨٨٤م)، وأنه هو الذي ابتكر أُسُسَه وقوانينه، حتى صار له أبًا. كما كان تَطَوُّره -فيما بعد- على يَدِ ثُلَّة من علماء البيولوجيا الغربيين أمثال: دي فريز، وباتسيون، ومورجا، وغيرهم.

ولكن الحقيقة التي لا يدركها الكثيرون أن القرآن والسُّنَّة المُدَوَّنَيْنِ قبل العلم المعاصر بِعِدَّة قرون وردت فيهما إشارات تتوافق مع قواعد هذا العلم، وتُوَضِّح وجود آليات وراثية مختلفة، والتي تُعْرَفُ الآن بمسئوليتها عن النشأة الطبيعية أو الشاذَّة للإنسان!

ولا يخفى أن التاريخ الحقيقي لعلم الوراثة لَيَشْهَد -بما لا يدع مجالاً للشكِّ- بأن علماء الحضارة الإسلامية هم أول من استخدم مصطلح **(القيافة)**[1]، وتَحَدَّثُوا عن

---

(١) القِيافَةُ في اللغة: تَتَبُّعُ الأَثَرِ، والقائف هو الذي يُلْحِقُ الفروع بالأصول بالشبه والعلامات أي الذي ينظر إلى شبه الولد بأَبيه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة (قوف) ٩/ ٢٩٣.

تحسين النسل والولد، كما مارسوا الانتقاء الوراثي على الخيول العربية، وعنوا أيضًا بدراسة التهجين في الإنسان والحيوان والطيور، كما فطنوا إلى حكمة التشريع الإسلامي في الترغيب من الزواج بالأغراب وليس بالأقارب[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علم الوراثة هو أحد علوم الأحياء، ويعني بدراسة الموروثات (الجينات)، والصفات الوراثية التي تَنْتَقِل من الآباء للأبناء، كما يدرس تباين الأنواع واختلاف صفاتها نتيجة اختلاف المادَّة الوراثية (الصبغيات Chromosomes)، وتفسير أوجه التشابه والاختلاف بين أفراد النوع الواحد، وقد تَطَوَّر هذا العلم وتَفَرَّع إلى علوم تتناول موضوعات ذات صلة بحياة الإنسان ومستقبله؛ مثل تحسين الإنتاج النباتي والحيواني والهندسة الوراثية، وما يَتَرَتَّبُ عليها من نتائج تَعُود على البشرية بالخير إذا أُحسن استخدامها.

وإذا جئنا إلى البداية، فإن مصطلح (قيافة البشر) الذي هو بداية علم الوراثة عند المسلمين، قد ورد في كثير من كتب التراث الإسلامي، وكان غرضه تفسير التشابه بين السلف والخلف؛ فقد جاء في كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) للقزويني قوله: «القيافة على ضربين: قيافة البشر، وقيافة الأثر؛ أمَّا قيافة البشر: فالاستدلال بهيئات الأعضاء على الإنسان، وأمَّا قيافة الأثر: فالاستدلال بآثار الأقدام والخفاف والحوافر»[2].

وقد اشتهر بنو مُدْلِج[3] بقيافة البشر؛ حيث كان يُعْرَض على أحدهم مولود في عشرين امرأة فيهن أُمُّهُ، فيستطيع ذلك القيافي المُدْلِجِيُّ أن ينسب المولود إلى أُمِّه. وهناك قصة مشهورة حدثت في زمن الرسول ﷺ حَدَّد فيها مُجَزِّزٌ المُدْلِجِيُّ نسب

(١) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٦٩، ٧٠.
(٢) القزويني: عجائب المخلوقات ص٢٠٤.
(٣) بنو مُدْلِج: قبيلة من كنانة ومنهم القافَة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة (دلج) ٢/ ٢٧٢.

أسامة بن زيد الذي كان أَسْوَدَ، بينما كان أبوه شديد البياض؛ فقد روت السيدة عائشة -رضي الله عنها- قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَسْرُورٌ فَقَالَ: **«يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ فَرَأَى أُسَامَةَ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ، قَدْ غَطَّيَا رُءُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»**[1].

ثم إن العلماء المسلمين استطاعوا أن يَتَعَرَّفُوا على حقائق وراثية جديدة لأول مَرَّة من نصوص القرآن الكريم والسُّنة النبوية، وقد قَرَّر الإمام ابن القيم -رحمه الله- (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) في كتابه (تحفة المودود بأحكام المولود) أن أصل التشكيل الصحيح للكائن الحي ما هو إلاَّ اتحاد نطفة الذَّكَرِ ببُوَيْضَة الأنثى[2]، وكان شاهده في ذلك قول الله تعالى: **﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾**[3]. فالولد إذن لا يَتَكَوَّن إلاَّ من الذكر وصاحبته.

وقد أخبر القرآن الكريم أن أساس خَلْق الجنين هو (النطفة الأمشاج)، وهو العامل الوراثي الأساسي في عملية التكاثر البشري، فقال الله تعالى: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾**[4]. والنطفة الأمشاج تَتَأَلَّف من اندماج بويضة الأنثى وخلية الرجل (حيوان منوي)، ويُسَمِّيها العلم الحديث باسم (الزيجوت Zygote)، ويكون مقرُّها في رحم الأنثى، مصداقًا لقول الله تعالى: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾**[5].

وإن هذا التأصيل الإسلامي لتظهر أهميته واضحة جليَّة -كما يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا- حين نعلم أن البشرية لم تَعْلَم شيئًا عن النطفة الأمشاج أو

---

(١) البخاري: كتاب الفرائض، باب القائف (٦٣٨٩)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد (١٤٥٩).

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية: تحفة المودود بأحكام المولود ١/ ٢٧٨.

(٣) (الأنعام: ١٠١).

(٤) (الإنسان: ٢).

(٥) (المؤمنون: ١٣).

(الزيجوت) المكوَّنَة من أخلاط الرجل والمرأة إلاَّ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وذلك بعد أن تَطَوَّرَتْ طرق التشخيص وتقنية الميكروسكوبات، فقد تخبَّطَ الغرب قرونًا طويلة حيال موضوع تكوين الجنين؛ فاعتقد البعض أنَّ المولود الجديد يُولَدُ من بويضة الأنثى فقط، بينما اعتقد آخرون أن الكائن الحي ينشأ ويَتَطَوَّر من الحيوان المنوي فقط، بل إن أحدهم -وهو (هارتسوكر)- عندما كان ينظر عبر المجهر إلى السائل المنوي للرجل تخيَّل أنه يرى في رأس الحيوان المنوي كائنًا صغيرًا يُذَكِّر بالمظهر الخارجي للرجل، وهذا الكائن الصغير الملتفُّ ذو أعضاء قادرة على النموِّ في وجود الظروف الملائمة، ودور المرأة في تكوينه لا يَعْدُو كونها حاضنة فقط[1].

وإن هذا ليُدَلِّل على أن الإسلام وعلماءه لهم فضل السبق في معرفة حقيقة تكوين الجنين البشري -وهو من صميم علم الوراثة- قبل علماء الغرب بثلاثة عشر قرنًا كاملة!

***

(١) محمد مروان السبع: أعمال ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية، طرابلس، ليبيا، ديسمبر ١٩٩٠م، نقلاً عن: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي ص٧١.

المبحث الثاني
علم الأجنة عند المسلمين

وإذا ما تَعَمَّقْنَا بعض الشيء وخُضْنَا في الوحدات الوراثية، فإن عَالِمًا كابن القيِّم - رحمه الله- المتوفَّى في القرن الرابع عشر الميلادي يذكر أن في نطفة الرجل (عناصر) مختلفة صغيرة جدًّا من أجزاء الجسم كله، وأن في بذرة الأنثى مثل ذلك[1]. ويُعَلِّق على ذلك الدكتور أحمد فؤاد باشا فيقول: «وهذا الكلام من ابن القيِّم يُعَدُّ أساسًا لنشأة نظرية الموروثات أو (الجينات Genes) التي قال بها علماء الوراثة حديثًا»[2].

فقد أطلق العلم المعاصر على هذه (العناصر) التي قال بها ابن القيم اسم الموروثات أو الجينات، وأثبتت أجهزة الفحص الدقيق أن هذه الموروثات تحملها أجسام بروتينية دقيقة جدًّا تُسَمَّى الصبغيات أو الكروموسومات، وقد تأكَّدَ مؤخَّرًا أن هذه الكروموسومات والموروثات هي المسئولة عن الصفات والملامح التي تُعطِي الإنسان صفته وشكله واستعداده لكثير من الصفات البدنية والنفسية والخلقية[3].

بل إن علماء المسلمين توصَّلُوا إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فكان لهم السبق في المعرفة بالمصطلح العلمي الحديث: «النزوع إلى الأصل في الصفات الوراثية Atavism». ويظهر ذلك فيما رواه الطبري في كتابه (فردوس الحكمة) من أن امرأة وَلَدَتْ بنتًا بيضاء من رجل حبشي، وأدركتِ ابنتها تلك وتزوَّجَتْ من رجل أبيض،

---

(١) انظر ابن القيم: تحفة المودود بأحكام المولود ص٢٧٧.

(٢) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي ص٧.

(٣) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي ص٧٢.

فولدت ولدًا أسود؛ لأن الولد -كما يقول الطبري- نزع إلى لون الجدِّ (أبي الأم) [1].

والنزوع إلى الأصل في الصفات الوراثية أَكَّدَه رسول الله ﷺ من قَبْلُ؛ ومما ورد في ذلك أنه ﷺ جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي وَلَدَتْ غلامًا أسود! فقال: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**» قال: نعم. قال: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**» قال: حُمْرٌ. قال: «**هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟**» قال: نعم. قال: «**فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ؟**» قال: أُرَاهُ عرقٌ نزعه. قال: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ**» [2].

ففي هذا الحديث يطرح الرسول الكريم ﷺ بكلِّ موضوعيَّة نظريَّة النزعات أو النزوع إلى الأصل والصفات السائدة، تلك التي باتت من مفردات ومصطلحات علم الوراثة الحديث.

هذا، وإن عِلْمَ الوراثة الحديث «يؤكِّد أن الشَّبَه بين المولود ووالديه قد يكونُ غيرَ ظاهر لتسلسل الصفات الجسدية من لَدُن أبينا آدم وأُمِّنَا حواء -عليهما السلام- إلى أن يُولد الفرد من بني الإنسان، وبعض هذه الصفات يكون ظاهرًا (الصفات السائدة)، وبعضها يكون مستترًا (الصفات المتنحِّيَة)، فإذا اتَّفق وكان كلٌّ من الأب والأم -أو أي من أسلافهما- يحمل نفس الصفة المتنحية، فإن عددًا من ذُرِّيَّتهما سوف يحمل هذه الصفة المتنحِّيَة، ومن هنا فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ نهى عن زواج الأقارب من الدرجة الأولى؛ لئلاَّ يُضْعِف النسل، وذلك بقوله: «**اغتربوا لا تُضْوُوا**» [3]. أي: تَزَوَّجُوا الأغراب حتى لا يَضعُف نسلكم [4].

---

(١) المصدر السابق ص٧٢.

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب ما جاء في التعريض (٦٤٥٥)، ومسلم: كتاب اللعان (١٥٠٠) الأورق: الأسمر.

(٣) أَضْوَى الرجلُ: وُلِدَ له وَلَدٌ ضَاوٍ أي: ضعيف هزيل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ضوا) ١٤/ ٤٨٨، وابن الجوزي: غريبُ الحديث ٢/ ٢١.

(٤) انظر: زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية ص٢٨٦.

ولقد حثَّ الإسلام جموع المسلمين أن يَتَزَوَّجُوا من الأباعد؛ لأنه أنجب للولد، وأبهى للخلقة، واتَّضَح ذلك من أقوالهم المأثورة؛ كقولهم: «بناتُ العمِّ أصبر، والغرائبُ أنجب، وما ضرَب رءوسَ الأبطالِ كابن أعجمية»[1].

ومن شعرهم المأثور في ذلك قولهم:

تَجَاوزْتُ بِنْتَ الْعَمِّ وَهْيَ حَبِيبَةٌ   مَخَافَةَ أنْ يضْوِي عَلَيَّ سَلِيلِي[2]

ويَتَّفق هذا المطلب الإسلامي في الحثِّ على الزواج بالأباعد مع معطيات علم الوراثة والتحسين الوراثي اتفاقًا كاملاً؛ ذلك أن استمرار تزاوج الذُّرِّيَّة بالأقارب يُفضي إلى إقلال درجة التناسل، حتى لقد تَصِل أخيرًا إلى العقم، كما يُؤَدِّي إلى إضعاف السلالة، ويَزيد من احتمال ظهور الصفات والأمراض الوراثية المتنحية التي يُحْصِي منها المتخصِّصُون ما يزيد على مائة مرض معروف؛ مثل: البرص الوراثي، والبول الأسود، وبعض أمراض الشبكية، ومرض السكر، وارتفاع ضغط الدم، وغير ذلك من أمراض الجهاز العصبي، وأمراض التَّخَلُّف العقلي، وكثير من العيوب الخَلْقيَّة والخُلُقيَّة[3].

لذلك اهتمَّ علماء المسلمين فيما يَخُصُّ علم الوراثة بالتهجين بصفة عامَّة، وكان لهم السبق في ذلك، وخاصة في الحيوان؛ إذ يزخر التراث العلمي الإسلامي بالعديد من الأمثلة على أنماط التهجين المختلفة، فنجد القزويني يشرح خصائص الحيوانات المهجَّنَة بقوله: «إن الحيوانات المركَّبَة تَتَوَلَّد بين حيوانين مختلفين في النوع، ويكون شكلها عجيبًا بين هذا وذاك، فاعْتَبِرْ حال البغل؛ فإن ما من عضو منه إلاَّ وهو دائر

(١) انظر: أبو بكر الدينوري: المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢٧٧، ٨/ ٤٦، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/ ٢٣٠.

(٢) انظر: الماوردي: أدب الدنيا والدين ص١٧٣، والبيت من بحر الطويل.

(٣) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٧٥.

بين الحمار والفرس»[1]. ويُعلِّق الجاحظ على ظاهرة التهجين تعليقًا علميًّا صحيحًا بقوله: «فقد وجدنا بعضَ النِّتاج المركَّب وبعض الفروع المستخرجة أعظمَ من الأصل»[2].

كما كان للمسلمين دورٌ كبيرٌ في تحسين النسل بالقيام بانتقاء صفات وراثية مُعَيَّنَة، وهو ما يُعْرَفُ اليوم بعلم التحسين الوراثي (الأيوجينيا Eugenics)؛ فقد كانوا يحرصون على أنساب الخيول بحصر التزاوج بينها وبين أفراس أصيلة ذات صفات وراثية مُحَدَّدَة، ومنعوا أي تزاوجات عشوائية، وكأنهم بهذا التحديد يحصرون حدود الصفات الوراثية الممتازة؛ كالرشاقة والجمال وضمور البطن والحسّ المرهف، والذكاء المفرط، وغيرها من الصفات التي شَكَّلَتْ نواة ممتازة لنشوء سلالة الخيول العربية[3].

ولقد اتخذ الإسلام منحًى أشدَّ عمقًا من مُجَرَّد إجلاء الأمور التفصيلية لعلم الوراثة -رغم أهميته- حيث أثبت الإسلام أن هناك عَلاقة وثيقة بين علم الوراثة وبين طبيعة الفرد من الناحية الأخلاقية، وما يترتب على ذلك من النواحي الاجتماعية والنفسية الأخرى؛ فقد جاء في الأثر: «**النَّاسُ مَعَادِنُ وَالْعِرْقُ دَسَّاسٌ، وَأَدَبُ السُّوءِ كَعِرْقِ السُّوءِ**»[4]. وهذا المعنى يُؤَيِّدُه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه بسند مُتَّصل عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ وَانْكِحُوا الأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ**»[5]. وقد عَلَّق الدكتور زغلول النجار على ذلك بقوله: «إن حُسْنَ اختيار الرجل لزوجته، أو المرأة لزوجها لا يجوز الاختصار

---

(١) القزويني: عجائب المخلوقات ص٢٠٤.
(٢) الجاحظ: الحيوان ١/ ١٣٧.
(٣) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٧٤.
(٤) البيهقي: شعب الإيمان ٧/ ٤٤٥. وانظر: ابن الجوزي: العلل المتناهية ٢/ ١٢٧.
(٥) ابن ماجه (١٩٦٨)، والمستدرك (٢٦٨٧)، وقال الألباني: حديث صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة ٣/ ٥٦.

فيه على شخصيهما، بل ينبغي أن تتعدَّاهما عملية الاختيار إلى أهليهما وذويهما؛ لأن قوانين الوراثة قد تَصِلُ إلى الجنين من أبعد الأجداد نسبًا؛ ولأن المحضن الذي تربَّى فيه الإنسان يلعب دورًا أساسيًّا في تكوين أخلاقه، وضبط سلوكياته»[1].

وهكذا يَتَّضِح أن علماء الحضارة الإسلامية قد نجحوا في التَّوَصُّل إلى حقائق - وإن كانت جزئية- في طريق استكمال التصوُّر الإنساني لعلم الوراثة الحديث، ونسأل الله ﷻ أن يُعيد للأُمَّة سالف مجدها وحضارتها، وأن تتيقَّظ همم المسلمين وعقولهم للنسج على منوال أجدادهم العظام.

❊ ❊ ❊

(١) زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية ص٢٩٤.

الفصل الخامس

المسلمون وعلم الطفيليات



قد يتملك أحدنا الاستغراب والتعجب إذا علم أن المسلمين سبقوا غيرهم في مجال علم الطفيليات، ذلك العلم الدقيق الذي يتناول أصغر الكائنات وأدقها؛ من بويضات الديدان ويرقاتها ومراحل نموها، والأمراض التي تسببها وغير ذلك مما هو متعلق بهذا العلم، ويزول هذا العجب، وتلك الدهشة إذا عرفنا أن الحضارة العلمية الإسلامية ما تركت صغيرة ولا كبيرة، ولا شاردة ولا واردة إلا وتضمنتها واكتشفتها، وأخبرت عن حقيقتها ومكانتها في العالم المعيش، وهذا - بلا ريب - من عظمة الحضارة الإسلامية التي لم تتوقف حدود معارفها عند العلوم النقلية الشرعية - رغم أهميتها - بل اخترقت حاجز العلوم المحضة والتجريبية، وكان من جملة هذه العلوم التي تعرّف عليها علماء الإسلام «علم الطفيليات»، ومن ثَمَّ فإننا سنتناول هذا العلم من خلال المبحثين الآتيين:

- **المبحث الأول: المسلمون وابتكار علم الطفيليات**
- **المبحث الثاني: بعض إنجازات علماء المسلمين**

***

المبحث الأول
المسلمون وابتكار علم الطفيليات

ينظر البعض إلى ما نُقَدِّمه هنا من إسهامات المسلمين العلمية على أنه تراث قديم ومعلومات بدائية عفا عليها الزمن، لا تلائم عصرنا الحاضر، ولا تُفيدنا، ولا تُفيد الحضارة الحالية بشيء!

والحقيقة التي لا مناص منها أن التراث الذي قَدَّمَهُ الأقدمون، وتلك المعلومات البدائية التي عفا عليها الزمن، والتي كانت في يومها سبقًا علميًّا وحضاريًّا بكل المقاييس -وأَخُصُّ هنا إسهامات المسلمين العلمية- هي التي بلغت بها حضارةُ اليوم ما بلغته؛ فهي التي مَهَّدَتْ لهذا الرُّقِيِّ الذي تعيشه الحضارة الحديثة، ولولا هذه الجهود وتلك المعارف لما رأينا تَطَوُّرًا يُذْكَرُ لهذه العلوم.

ومن هذه الجهود وتلك الإسهامات التي قَدَّمها المسلمون للإنسانية في هذا الصدد ما كان من دورهم في ابتكار **علم الطفيليات** (parasitology)، ذلك العلم الذي يَعْتَبِرُه البعض عِلْمًا حديث النشأة، ولكن بداياته كانت على أيدي المسلمين.

ويُعنَى علمُ الطفيليات بدراسة الطفيليات (الديدان) وعَلاقتها مع الجسم المضيف، أو هو العلم الذي يدرس العَلاقة بين كائنين أحدهما يتغذَّى على الآخر ويُسَمَّى العائل، والآخر يُسَمَّى الكائن المضيف، وتُسَمَّى العَلاقة بينهما بالتطفُّل.

وكان من الطبيعي في بدايات هذا العلم أن يكون بسيطًا؛ حيث عرض العلماءُ المسلمون لموضوع الديدان معتمدين أساسًا على شكل الديدان البالغة كما تبدو للعين المجرَّدَة؛ إذ لم يكن لديهم المجاهر المعروفة عندنا، والتي تكشف عن دقائق

تركيب هذه الديدان وأطوار نُمُوِّهَا كالبويضات واليرقات[1].

ورغم ذلك فإن العلماء المسلمين استطاعوا أن يصفوا الديدان، ويصفوا أعراضها وصفًا دقيقًا؛ ومن ذلك أنهم قالوا: إنها كثيرًا ما تتولَّد في الأطفال والصبيان، وإنها تهيج عند المساء، ووقت النوم أكثر، كما استطاع المسلمون أيضًا أن يتوصَّلُوا إلى معرفة أعراضها؛ وذكروا من ذلك: الجوع، والخفقان الشديد، والغثيان، والمغص، والإسهال، وانتفاخ البطن، وإذا اشتدَّت العِلَّة والجوع سقطوا، أو تَشَنَّجوا، والْتَوَوْا كأنهم مَصْرُوعُون، وربما تأذَّتِ الرئة والقلب بمجاورتها فحدث سعال يابس وخفقان، ومن علاماتها سيلان اللعاب، أمَّا صِغار الديدان فيدلُّ عليها حكَّة المقعدة، ولزوم الدغدغة عندها، ويَعْرِض صراخٌ وتململٌ[2].

وقد وصف العلماء المسلمون لعلاج هذه الديدان الكثيرَ من الأدوية، وكان المبدأ العام في العلاج هو منع المادَّة المُوَلِّدَة لها من المأكولات الرطبة اللزجة؛ مثل: الفواكه، والبقول، والألبان، واللحم الخام، وأن تُتَّقَى البلاغم التي في الأمعاء التي منها تَتَوَلَّد، وأن تُقْتَلَ بأدوية هي سموم بالقياس إليها، ثم تُسَهَّل بعد القتل إن لم تدفعها الطبيعة بنفسها، ولا يجب أن يطول مقامها في البطن بعد الموت؛ فيَضُرّ بخارها ضررًا سُمِّيًّا[3].

ثم وصف العلماء المسلمون عشرات الأدوية؛ كالشيح، والترمس، وبذر الكرفس، والثوم، وقشر الرومان، وورق الخوخ، وأيضًا التعب والرياضة الشديدة قد تُسَهِّل خروج الديدان[4].

(١) انظر: محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص٧١.
(٢) المصدر السابق ص٧٢، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٩٣، ٢٩٤.
(٣) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص٧٢.
(٤) ابن سينا: القانون في الطب ٤/ ١٨٩.

وإضافةً إلى ذلك فإن مَنْ يتناول مُؤَلَّفات علماء الحضارة الإسلامية باحثًا عن أصول علم الطفيليات -كما يذكر ذلك الدكتور أحمد فؤاد باشا- سوف يجد الكثير من الحقائق العلمية والمنهجية التي تُنْسَبُ زورًا وبهتانًا لعلماء الغرب، دون أدنى إشارة إلى مكتشفيها الأصليين في العصر الإسلامي، وتوضيح ذلك في السطور التالية:

عَرَضَتْ مراجعُ التراث الطبي للمسلمين ملاحظات دقيقة عن أنواع الطفيليات التي تعيش داخل جسم الإنسان، والتي تُعْرَفُ اليوم بـ(الطفيليات الباطنية Endoparasites)، وأنواع (الطفيليات الخارجية Ectoparasites) التي تعيش على ظاهر الجسم. ولا يُقَلِّلُ من أهمية هذه الملاحظات الدقيقة أنها كانت تعتمد في اكتشافها على ملاحظة الديدان الطفيلية بالعين المجرَّدَة، أو على الأعراض المرضية الدالَّة على وجودها.

فقد جاءت في المراجع التراثية أوصافُ بعض (الطفيليات الأولية Protozoa)؛ مثل أنواع الأميبا التي تعيش في جدار وتجويف الأمعاء الغليظة، والتي تُسَبِّبُ مرض الدوسنتاريا، وما جاء عن أعراض بعض الأمراض، مثل حُمَّى الملاريا التي كشف العلم الحديث عن طفيلياتها التي تُصِيبُ الإنسان من جنس البلازموديوم[1].

***

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٨٧.

المبحث الثاني
بعض إنجازات علماء المسلمين

ولقد أَكَّدَتِ البحوث الحديثة ما ذهب إليه أبو بكر الرازي (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م)- الذي يُعَدُّ عَلَمًا من أعلام الطبِّ في الحضارة الإسلامية، ويُعتبر من أعظم مُعَلِّمي الطبِّ الإكلينيكي - أَكَّدَت ما ذهب إليه في كتاب (الحاوي في الطب) عندما ربط في ملاحظاته السريرية للإصابة بالملاريا بين نوبات الحُمَّى وبين حالة تَضَخُّم الطحال؛ حيث قال: «الحميات التي تبتدئ بنافض أعلم أنها من التي تنوب بأدوار؛ وذلك أن الْغِبَّ[1] والرِّبْعَ[2] في الأكثر يحدث مع نافض، إلاَّ أن الْغِبَّ منذ أول حدوثها تبتدئ بنافض شديد، فأمَّا الرِّبْعُ فلا أعلم أنِّي رأيْتها تبتدئ بنافض شديد، لكن بِعَقِبِ حميات مختلفة، أمَّا النائبة كلَّ يوم فلا تكاد تَحْدُث إلاَّ مع عِلَّة في فم المعدة، كما أن الرِّبْع لا تكاد تحدث إلاَّ مع عِلَّة الطحال»[3].

أمَّا الديدان الطفيلية المعوية فقد أفاضت في الحديث عنها مُؤَلَّفاتُ العلماء المسلمين الطبية، وقد مَيَّزَتْ بين أربعة أنواع من هذه الديدان؛ هي: الديدان العراض أو الشريطية، والديدان العظام والمعروفة حاليًا باسم (الإسكارس)، والديدان الصغار التي تشبه الدود المُتَوَلِّد في الخَلِّ وتُسَبِّب داء (الدبوسيات)، والديدان المستديرة أو الشصية، لا سيما الإنكلستوما[4].

هذا، وقد استطاع الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) أن يُقَدِّم

(١) الغِبُّ من الحُمَّى أن تأخذ يومًا وتَدَعَ آخرَ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (غبب) ١/ ٦٣٤.

(٢) الرِّبْعُ في الحُمَّى: إتيانُها في اليوم الرابع، وذلك أن يُحَمَّ يومًا ويُترَك يومين لا يُحَمّ ويُحَمّ في اليوم الرابع. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ربع) ٨/ ٩٩.

(٣) الرازي: الحاوي في الطب ٤/ ٢٨٤.

(٤) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٨٧، ٨٨.

للإنسانية أعظم الخدمات بما تَوَصَّل إليه من اكتشافات في هذا المجال، وإليه يرجع الفضل في اكتشاف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن؛ فهو أول من كشف عن طفيل (**الإنكلستوما**)، وسمَّاه في كتابه (القانون في الطب) في الفصل الخامس الخاص بالديدان المعوية: الدودة المستديرة، ووصفها بالتفصيل لأول مرة، وتَحَدَّثَ عن أعراض المرض الذي تُسَبِّبه[1].

وعن هذا الفتح الكبير كتب الأستاذ الدكتور محمد خليل عبد الخالق مقالاً في مجلة الرسالة، جاء فيه: «... قد كان لي الشرف في عام (١٩٢١م) أن قُمْتُ بفحص ما جاء في كتاب القانون في الطب، وتبيَّنَ لي أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالإنكلستوما، وقد أعاد (دوبيني) اكتشافها بإيطاليا عام (١٨٣٨م)، أي بعد اكتشاف ابن سينا لها بتسعمائة سنة تقريبًا، ولقد أخذ جميعُ المُؤَلِّفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المُؤَلَّفات الحديثة، كما أخذتْ به مؤسسةُ (روكلفر) الأمريكية، التي تُعنى بجمع كل ما كُتِبَ عن هذا المرض... ولذلك كَتَبْتُ هذا لِيَطَّلِعَ عليه الناس، ويضيفوا إلى اكتشافات ابن سينا العديدة هذا الاكتشاف العظيم لمرضٍ هو أكثر الأمراض انتشارًا في العالم الآن»[2].

بل إنَّ بحوث المسلمين التراثية تَطَرَّقَتْ أيضًا إلى بعض أنواع الديدان الطفيلية التي تعيش بعيدًا عن القناة الهضمية؛ مثل: ديدان العين التي تُفَضِّل منطقة العين، وديدان الفلاريا المُسَبِّبَة **لداء الفيل**، والذي يَتَحَدَّث ابن سينا عنه فيقول: «هو زيادة في القدم وسائر الرِّجل على نحو ما يعرض في عروض الدوالي فيغلظ القدم ويكثفه»[3].

كما تَحَدَّث عنه يعقوب الكشكري (عاش في أوائل القرن الرابع الهجري) قائلاً:

---

(١) انظر: ابن سينا: القانون في الطب ٤/ ١٨٦ وما بعدها.

(٢) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة ص١٨٠، ١٨١.

(٣) ابن سينا: القانون في الطب ٤/ ٤٢٨.

«إذا امتلأت عروق الدوالي بالدم العكر في الساقين وورمتا ورمًا عظيمًا حتى صارتا أشبه برجل الفيل، ولا يَتَهَيَّأ للمريض أن ينهض بهما من عِظَمِهِمَا، فإن هذه العِلَّة تُسَمَّى داء الفيل»[1].

أمَّا بالنسبة إلى العرق المدني (دودة المدينة)، والتي لا يكاد كتاب من الكتب الطبية يخلو منها، إلاَّ أنه لا يُعتقد بأن أحدًا وصف هذه العِلَّة حتى عصرنا هذا بأكثر مما قاله الرازي عنها، وقوله فيها صواب كله، والمعروف أنها سُمِّيَتْ كذلك نسبة إلى المدينة المنورة (يثرب)، أو على الأقل نسبة إلى الجزيرة العربية[2]؛ يقول عنها الرازي: «العرق المدني قد يكون في البلاد الحارَّة وبشرب المياه الرديئة... ويحدث في البلاد اللطيفة الهواء الحارَّة، وفي الأبدان الرطبة المترفة إذا انتقلت إليها»[3]، «ويتولد في الهند ومصر، ويعرض في الأعضاء العظمية مثل المعصمين والساقين والفخذين، وأمَّا في الصبيان فقد يعرض في الجنبين»[4].

وعن طريقة علاج هذه الدودة تَحَدَّث الزهراوي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) بما يستوجب الإعجاب؛ حيث يقول: «هذا العرق يَتَوَلَّد في الساقين في البلاد الحارَّة؛ كالحجاز وبُلدان العرب، وفي الأبدان الحارَّة القصيفة القليلة الخصب، وربما تولَّد في مواضع أخرى من البدن غير الساقين... وعلامته أن يَحْدُث في الساق تَلَهُّب ثم تَنَفَّطَ[5] الموضع، ثم يبتدئ العرق يخرج من موضع ذلك التَّنَفُّط كأنه أصل نبات أو حيوان... فإذا ظهر منه طرف فينبغي أن يُلَفَّ على قطعة صغيرة من الرصاص تكون

---

(١) يعقوب الكشكري: كناش في الطب، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٥م، نقلاً عن: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٨٨.

(٢) انظر محمود الحاج: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٩٥.

(٣) الرازي: الحاوي في الطب ٣/ ٥٢٥.

(٤) السابق نفسه ص٥٢٣.

(٥) تنفَّطَ: قَرِحَ، والنَّفْطَةُ بَثْرةٌ ملأى ماء بين الجلد واللحم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (نفط) ٧/ ٤١٦.

زنتها من درهم إلى درهمين، وتعقده وتترك الرصاص مُعَلَّقًا في الساق، فكُلَّما خرج منه شيء إلى خارجٍ لَفَفْتَه في الرصاص وعقدتَه، فإن طال كثيرًا فاقطع بعضه ولُفَّ الباقي، ولا تقطعه من أصله قبل أن يخرج كله؛ لأنك إن قطعته تَقَلَّصَ ودخل في اللحم، فأحدث ورمًا وعَفَنًا في الموضع وقرحة رديئة؛ فلذلك ينبغي أن يُدَارَى ويُجَرَّ قليلاً قليلاً حتى يخرج من آخره ولا يبقى منه شيء في البدن، وقد يخرج من هذا العرق في بعض الناس ما يكون طوله خمسة أشبار وعشرة... فإن انقطع لك في حين علاجك له فأدخل مِرْوَدًا[1] في الثقب، وبُطَّهُ[2] طويلاً مع البدن حتى يُفْرَغَ كل ما فيه من مادَّة، وحاول تعفين الموضع بالأدوية أيَّامًا، ثم عالجه بعلاج الأورام، وقد يكون هذا العرق ذا شُعَبٍ كثيرة، ولا سيما إذا ظهر في مَفْصِل الرِّجْل أو الرِّجْل نفسها، فيحدث له أفواه كثيرة، ويخرج من كل فم شعبة، فعالِجه كما ذكرنا في التقسيم وبما تَقَدَّم»[3]. وغنيٌّ عن الذِّكْرِ أن طريقة العلاج هذه هي الطريقة المستعملة في علاج هذه الدودة حتى اليوم!

وأمَّا بالنسبة إلى **الدود المتولّد تحت الجلد**، فقد خصَّصَ الزهراوي فصلاً خاصًّا له تحت عنوان: (الشق على الدود المتولَّد تحت الجلد ويُسَمَّى عِلَّة البقر)، فقال: «هذا المرض يُسَمَّى في بعض البلدان عندنا عِلَّة البقر؛ من أَجْلِ أنها كثيرًا ما تعرض للبقر، وهي دودة صغيرة واحدة تتولَّد بين الجلد واللحم، وتدبُّ في الجسم كله صاعدة وهابطة، تتبيَّنُ للمس عند دبيبها من عضو إلى عضو حتى تخرق حيث ما خرقت في الجلد موضعًا وتخرج، وتكوُّنها من عفونة بعض الأخلاط... ». إلى أن قال: «وإنما يُتَوَقَّعُ من أذِيَّتِهَا أنها إذا دَبَّتْ في الجسم وارتفعت إلى الرأس، وبلغت العين، فربما

(١) المِرْوَد: أداة من الزجاج أو المعدن. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (رود) ٣/ ١٨٧، والمعجم الوسيط، مادَّة (رود) ١/ ٣٨١.

(٢) بَطّ الجُرْحَ: شقَّه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (بطط) ٧/ ٢٦١.

(٣) الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف ص٢٩٤، نقلاً عن: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٢٩٦، ٢٩٧.

فتحت فيها وخرجتْ فأبطلت العين، ويعرض ذلك كثيرًا، فإذا أَرَدْتَ علاجَها وإخراجَهَا فإنما يكون ذلك عند دبيبها وظهورها للمس؛ فينبغي أن تَشُدَّ ما فوقها وتحتها برباطٍ شدًّا جيدًا، ثم تشقَّ عليها وتُخْرَج، فإن غاصت في اللحم ولم تجدها فاحملْ على الموضع الكيّ بالنار حتى تحرقها»[1].

أمَّا أنواع الطفيليات الخارجية التي تُصيب جسم الإنسان فقد كَثُر حديث الأطباء والعشَّابين المسلمين عنها في مؤلفاتهم، وخاصَّة الصئبان[2] والقمل الذي يتولَّد في الرأس وسائر الجسد.

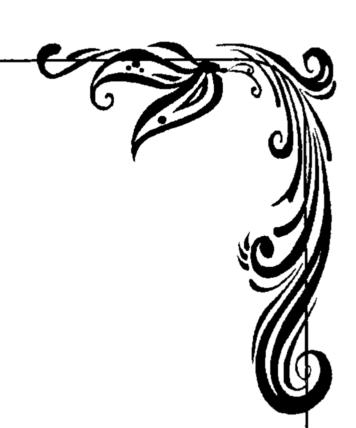
ولم يَبْقَ بَعْدُ إلاَّ أن نُؤَكِّدَ ذلك الدور الرائد الذي قَدَّمه علماءُ المسلمين وساهموا به في تأسيس علم الطفيليات، معوِّلين على إمكانات وظروف عصرهم، ومستندين إلى منهجٍ تجريبي رائد، ومدى أثر ذلك الدور في خدمة الإنسانية. ونسأل الله ﷻ أن يُعِيدَ للمسلمين مجدهم وحضارتهم وريادتهم للإنسانية.

بعد هذه الإطلالة السريعة لهذا الباب القيم الذي أوضحنا فيه مجموعة من العلوم وثيقة الصلة بالعلوم الطبية، نتأكد أن كل هذه العلوم وغيرها تفصح عن أمر لا مناص منه، يكمن في سبق علماء الإسلام إلى كثير من العلوم والمعارف التي اعتمد عليها الغربيون في دراساتهم الطبية، وهو أمر جلل يوضح تتَلمذَ هؤلاء الغربيين على أيدي علمائنا الأجلاء، فكأن الحضارة المدنية التي تسبح في نعيمها الشعوب الغربية ما هي إلا ترجمة لما تكبده المسلمون الأوائل من مشاقِّ البحث العلمي، وما ضيّعه المسلمون الأواخر من روح وفلسفة الإسلام التي تأمرنا بضرورة تحصيل العلم بأنواعه المختلفة.

***

(١) الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف ص٦٠٥، نقلاً عن المصدر السابق ص٢٩٧.

(٢) الصئبان: بيض البرغوث والقمل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (صأب) ١/ ٥١٤.



البـــاب الثالث

علماء الحضارة الطبية





أنجبت الحضارة الإسلامية العديد من العلماء الأفذاذ، الذين أضاءوا الدنيا بعلمهم، ولم تعرف البشرية أمثالهم علمًا وخلقًا، فعَبَّروا أصدق تعبير عن روح الحضارة التي يعيشون تحت جنباتها؛ فكانوا نجومًا في سماء مليئة بالغيوم، وما نُقَدِّمه في هذا الباب من نماذج لعلماء الحضارة الطبية يُعَبِّر - كذلك - حقيقةً عن عظمة هذه الحضارة التي استوعبت كل من عاش في ظلالها، دون النظر إلى لونه أو جنسه أو دينه، فأبدع الجميع، فنالوا جميعًا التقدير والمكانة، ومن هؤلاء العلماء العظام:

- ابن النفيس.. مكتشف الدورة الدموية
- ابن سينا.. موسوعة العلم والعلوم
- الرازي.. معجزة الطب عبر الأجيال
- أبو القاسم الزهراوي.. رائد علم الجراحة
- ابن البيطار.. عبقرية علمية نادرة
- ابن أبي أصيبعة.. الطبيب المؤرخ
- ابن الكحال.. مؤسس طب العيون
- يوحنا بن ماسويه.. الطبيب النابغة
- ابن زهر.. عبقرية أندلسية فريدة
- الكندي.. الطبيب الموسوعي
- عمّار الموصلي.. رائد طب العيون
- علي بن عباس المجوسي.. الطبيب البارع
- ابن الجزار القيرواني.. شيخ الطب
- ابن مندويه الأصفهاني.. النجيب المتميز
- السموأل بن يحيى المغربي.. الطبيب المتوقِّد
- آل بختيشوع.. عائلة طبية رائدة
- داود الأنطاكي.. العبقري الضرير
- النجيب السمرقندي.. الطبيب الحكيم
- ابن الطفيل.. الطبيب الفيلسوف
- ابن رضوان المصري.. إمام الطب

ابن النفيس.. مكتشف الدورة الدموية

أعلم الناس في عصره، وأعظم وأشهر عالم بوظائف الأعضاء في القرون الوسطى برُمَّتِها، والرائد الذي مَهَّد الطريق أمام وليام هارفي، العالم الفسيولوجي الإنجليزي مكتشف الدورة الدموية الكبرى سنة (١٦٢٨م).. استطاع اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، وأن يصفها لأول مرة ليكون رائدًا لمن أتوا بعده!

وبحقٍّ كان مثالاً للعالِم الورع التقيِّ المنقطع للعلم، وواحدًا من أكبر الأطباء العرب والمسلمين الذين حقَّقُوا اكتشافات عظيمة وجليلة، يفتخر به الطب الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى يومنا هذا.

قال عنه السبكي: وأمَّا الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاء بعد ابن سينا مثله. قالوا: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا. وقال الإسنوي: كان إمام وقته في فنِّه شرقًا وغربًا بلا مدافعة، أعجوبةً فيه وفي غاية الذكاء[1].

وكان قد أُشكِل على جالينوس فادَّعى أن في الحاجز الذي بين الجانب الأيمن والجانب الأيسر في القلب ثقوبًا غير منظورة؛ يتسرب فيها الدم من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر، وما وظيفة الرئتين إلاَّ أن ترفرفا فوق القلب فتُبَرِّدَا حرارته وحرارة الدم، ويتسرب شيءٌ من الهواء فيها بواسطة المنافذ التي بينهما وبين القلب فيُغَذِّي ذلك القلب والدم.

فجاء هو وعارض هذه النظرية معارضة شديدة، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن اليونان لم يفهموا وظيفة الرئتين والأوعية التي بين القلب والرئتين، وأنه فهم وظيفتها وأوعيتها، وتركيب الرئة والأوعية الشَّعْرية التي بين الشرايين والأوردة

(١) انظر: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧.

الرئوية، وشرح الفُرَج الرئوية شرحًا واضحًا، كما فهم أيضًا وظائف الأوعية الإكليلية، وأنها تنقل الدم ليتغذَّى القلب به، ونفى التعليم القائل بأن القلب يتغذَّى من الدم الموجود في البُطَيْنِ الأيمن.

ثم كَرَّر تعاليمه في الدورة الدموية الصغرى وطريقة عملها؛ ذلك أنه كَرَّر هذه التعاليم في خمسة مواضع متفرِّقَة، ذاكرًا آراء ابن سينا، ومكرِّرًا أقوال جالينوس التي اعتمد عليها ابن سينا، ثم عارضها بمنتهى الحماسة.. وكان حقيقًا بعد بأن يصفه جورج سارتون بأنه أوَّل مَن اكتشف الدورة الدموية، ليكون بذلك الرائد لوليام هارفي الذي يُنسب إليه هذا الاكتشاف[1].

إنه الفقيه الطبيب العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم (٦٠٧-٦٨٧هـ/ ١٢١٠-١٢٨٨م)، القَرْشي (بلدة ما وراء النهر) الدمشقي، الملقب بابن النفيس، وهو سوري وُلِدَ في قرية (قَرْش) بالقرب من دمشق[2].

نشأة ابن النفيس العالِم:

كغيره من علماء المسلمين بدأ ابن النفيس حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، وكذا درس النحو واللغة، والفقه والأصول والحديث، والمنطق والسيرة وغيرها، ثم وفي سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) وهو في الثانية والعشرين من عمره اتجه إلى دراسة الطب، وذلك بعد أزمة صحية أَلَمَّت به، وتراه يحكي ذلك فيقول: «قد عرض لنا

---

(١) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص ٣٤٦، ٣٤٧، وعلي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص ٤٥١، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، ص ٢٠٥، ٢٠٧، ومصطفى لبيب عبد الغني: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص١٧٠، ومحمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٥١، ٥٢، وأحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص١٤٠.

(٢) انظر: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧، والباباني: هدية العارفين ١/ ٣٧٨، وإدوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٧٩، وكحالة: معجم المؤلفين ٧/ ٥٨، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧١، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٥.

حميات مختلفة، وكانت سنُّنا في ذلك الزمان قريبة من اثنتين وعشرين سنة، ومن حين عوفينا من تلك المرضة حَمَلنا سوء ظنِّنا بأولئك الأطباء (وهم الذين عالجوه) على الاشتغال بصناعة الطب لننفع بها الناس».

وكان تعليمه الطب في دمشق على يد طبيب العيون البارع مهذب الدين عبد الرحمن المشهور باسم الدخوار، وهو أحد كبار الأطباء في التاريخ الإسلامي، وكان في ذلك الوقت كبير الأطباء في البيمارستان النوري العظيم، الذي أنشأه نور الدين محمود واجتذب إليه أمهر أطباء العصر الذين توافدوا عليه من كل مكان، وكان من أساتذته في الطب أيضًا عمران الإسرائيلي، ورضي الدين الرجي.

وكان رفيق دراسته ابن أبي أصيبعة (صاحب طبقات الأطباء)، وقد رحلا معًا إلى القاهرة سنة (٦٣٣هـ)، وعملا في البيمارستان الناصري الذي شغل فيه ابن النفيس منصب الرئاسة، وعميدًا للمدرسة الطبية الملتحقة به، وشغل ابن أبي أصيبعة منصب رئيس قسم الكحالة.

ولم يكتفِ ابن النفيس بما درسه على أساتذة عظام في البيمارستان النوري، بل إنه انكبَّ أيضًا على كُتب ابن سينا وأبقراط وجالينوس، وغيرهم، وقال البعض: إنه كان يحفظ كتاب القانون في الطب لابن سينا عن ظهر قلب.

كما أنه اهتمَّ أيضًا بدراسة الفلسفة والمنطق والبيان، وتعمَّق في دراسة الفقه، وعلوم الشريعة، حتى إنه أصبح أستاذًا للفقه الشافعي في المدرسة المسرورية بالقاهرة، إلى جانب نبوغه وعبقريته في الطب[1].

---

(١) راجع في ذلك: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧، والباباني: هدية العارفين ١/ ٣٧٨، وكحالة: معجم المؤلفين ٧/ ٥٨، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧١، وأكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٤١، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٥، ومحمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٤٩.

العالم المغمور:

لم يكن ابن النفيس مجهولاً في عصره؛ فقد أطنب في الحديث عنه العمري في مسالك الأبصار، والصفدي في الوافي بالوفيات، وابن أبي أصيبعة في إحدى مخطوطاته (طبقات الأطباء)، إلاَّ أن ابن النفيس لم يأخذ حقَّه من الذيوع والشهرة بما يوازي ويضارع إنتاجه واكتشافاته؛ ولعل ذلك بسبب عدم تقدير أو عدم الإحاطة بهذه الاكتشافات في ذلك الوقت.

وقد تناول ابنَ النفيس من المُحْدَثِينَ من الأجانب لكلير في كتابه (الطب العربي)، والمستشرق الألماني مايرهوف في كثير من مقالاته، ووضع الدكتور بول غليونجي كتابًا وافيًا يُعَدُّ أجمع كتاب عن ابن النفيس[1].

ويقرر بول في كتابه هذا بأن أَوَّل مَن كشف عن ابن النفيس في وقتنا الحاضر، وردَّ إليه اعتباره، هو الطبيب المصري الدكتور محيي الدين التطاوي؛ حيث عثر على نسخة من مخطوطة (شرح تشريح القانون) لابن النفيس في مكتبة برلين، وقام بإعداد رسالة في الدكتوراه عنها، وعني فيها بجانب واحد من جوانب هذا الكتاب العظيم، ألا وهو موضوع: (الدورة الدموية تبعًا للقَرْشي)، وذلك سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، وقد ذُهل أساتذته والمشرفون على الرسالة، وأصابتهم الدهشة حين اطلعوا على ما فيها، وما كادوا يصدقونه!

ولجهلهم باللغة العربية بعثوا بنسخة من الرسالة إلى الدكتور مايرهوف المستشرق الألماني الذي كان آنذاك يقيم بالقاهرة، وطلبوا رأيه فيما كتبه الباحث، وكانت النتيجة أن أَيَّد مايرهوف الدكتور التطاوي، وأبلغ حقيقةَ ما كشفه من جهود ابن النفيس إلى المؤرخ جورج سارتون، فنشر هذه الحقيقة في آخر جزء من كتابه

(١) انظر: ابن النفيس: أعلام العرب ص ٥٧.

المعروف (تاريخ العلم)، ثم بادر مايرهوف إلى البحث عن مخطوطات أخرى لابن النفيس وعن تراجم له، ونشر نتيجة بحوثه في عدَّة مقالات.. ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بهذا العالم الكبير وإعادة اكتشافه[1]!

ابن النفيس والدورة الدموية:

اقترن اسم ابن النفيس باكتشاف الدورة الدموية الصغرى، والتي سجَّلَها بدقَّة في كتابه (شرح تشريح القانون)، إلاَّ أن هذه الحقيقة ظلَّت مختفية قرونًا طويلة، ونُسبت وهمًا إلى الطبيب الإنجليزي وليام هارفي (ت ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م) الذي بحث في دورة الدم بعد وفاة ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون، وظلَّ الناس يتداولون هذا الوهم حتى أبان عن الحقيقة الدكتور محيي الدين التطاوي في رسالته كما أشرنا سابقًا.

وكان الطبيب الإيطالي ألباجو قد ترجم في سنة (٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م) أقسامًا من كتاب ابن النفيس (شرح تشريح القانون) إلى اللاتينية، وهذا الطبيب أقام ما يقرب من ثلاثين عامًا في (الرها) وأتقن اللغة العربية؛ لينقل منها إلى اللاتينية، وكان القسم المتعلِّق بالدورة الدموية في الرئة ضمن ما ترجمه من أقسام الكتاب، إلاَّ أن هذه الترجمة فُقدت، واتُّفِقَ أن عالمًا إسبانيًّا ليس من رجال الطب كان يُدعى (سيرفيتوس) كان يدرس في جامعة باريس اطلع على ما ترجمه ألباجو من كتاب ابن النفيس، ونظرًا لاتهام سيرفيتوس في عقيدته، فقد طُرِدَ من الجامعة، وتشرَّد بين المدن، وانتهى به الحال إلى الإعدام حرقًا، هو وأكثر كتبه في سنة (١٠٦٥هـ/ ١٥٥٣م).

على أن مِن عَدْلِ الأقدار أن بقيت بعضُ كتبه دون حرق، وكان من بينها ما نقله

---

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص ٢٠٨، وعلي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١.

عن ترجمة ألباجو عن ابن النفيس فيما يخصُّ الدورة الدموية، واعتقد الباحثون أن فضل اكتشافها يعود إلى هذا العالم الإسباني، ومن بعده هارفي حتى سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) حين صحح الطبيب المصري هذا الوهم، وأعاد الحقَّ إلى صاحبه.

وقد أثار ما كتبه الطبيب التطاوي اهتمام الباحثين، وفي مقدمتهم مايرهوف المستشرق الألماني الذي كتب في أحد بحوثه عن ابن النفيس: «إن ما أذهلني هو مشابهة، لا بل مماثلة بعض الجمل الأساسية في كلمات سيرفيتوس لأقوال ابن النفيس التي تُرجمت ترجمة حرفية... أي أن سيرفيتوس - وهو رجل دين متحرِّر وليس طبيبًا - قد ذكر الدورة الدموية في الرئة بلغة ابن النفيس الذي عاش قبله بما يزيد على القرن والنصف».

ولـمَّا اطلع الدوميلي على المتنين قال: «إن لابن النفيس وصفًا للدوران الصغير تُطَابِق كلماته كلمات سيرفيتوس تمامًا، وهكذا فمن الحقِّ الصريح أن يُعزى كشف الدوران الرئيسي إلى ابن النفيس لا إلى سيرفيتوس أو هارفي»[1].

ويُعتبر اكتشاف الدورة الدموية الصغرى واحدًا فقط من إسهامات واكتشافات ابن النفيس العديدة؛ فهو - بحسب ما كُتِبَ عنه حديثًا - يُعَدُّ مكتشف الدورتين الصغرى والكبرى للدورة الدموية، وواضع نظرية باهرة في الإبصار والرؤية، وكشف العديد من الحقائق التشريحية، وجمع شتات المعرفة الطبية والصيدلانية في عصره، وقَدَّم للعلم قواعد للبحث العلمي وتصوُّرات للمنهج العلمي التجريبي.

---

(١) راجع علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص ٤٥١، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٩، ٢١١، وأكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٤١.

مؤلفات ابن النفيس:

خَلَّف ابن النفيس مؤلفاتٍ علميةً عديدةً، نُشِر بعضها وما زال الآخر في غياهب المكتبات وحبيس رفوف المخطوطات لم يَرَ النور بعدُ، ومن مؤلفاته ما يلي:

١- (شرح تشريح القانون): وهو من أهمِّ كُتب ابن النفيس، وقد نشر في القاهرة سنة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) بتحقيق الدكتور سلمان قطابة، وتبرز قيمته في وصفه للدورة الدموية الصغرى، واكتشافه أن عضلات القلب تتغذَّى من الأوعية المبثوثة في داخلها لا من الدم الموجود في جوفه، كما تَظهر في الكتاب ثقة ابن النفيس في علمه؛ حيث نقض كلام أعظم طبيبين عرفهما العرب في ذلك الوقت؛ وهما: جالينوس، وابن سينا.

٢- (الشامل في الصناعة الطبية): ويُعَدُّ أعظم مؤلفاته، كما يُعتبر أضخم موسوعة طبية يكتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، وقد نجح الدكتور يوسف زيدان في مصر في جمع أجزاء الكتاب المخطوطة، كما تطلع المجمع الثقافي في (أبو ظبي) إلى تلك الموسوعة، وأخذ على عاتقه نشر الكتاب محقَّقًا، حتى خرج إلى النور أوَّلُ أجزائه، وذلك في سنة (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

وكان ابن النفيس قد عكف على إعداد هذه الموسوعة وهو ينوي أن يجعلها مرجعًا طبِّيًّا شاملاً، لولا أن وافته المنيَّة بعد أن أعدَّ منها ثمانين جزءًا فقط، وهي تمثِّل صياغةً علمية للجهود العلمية للمسلمين في الطب والصيدلة لخمسة قرون من العمل المتواصل.

٣- (الموجز في الطب): ويُعتبر هذا الكتاب مرجعًا لكل من أراد دراسة الطب وممارسة هذه المهنة العظيمة، وقد تناقله العلماء بعضهم من بعض، وكثرت شروحه والتعليقات عليه؛ لما نال من منزلة بين علماء العصور كلها حتى يومنا هذا، ويذكر بول غليونجي في كتابه (ابن النفيس) أن كتاب الموجز في الطب لابن النفيس عبارة

عن شرحٍ مختصر جدًّا لكتاب القانون في الطب لابن سينا، تناول كل أجزاء القانون بلغة علمية سهلة؛ ما عدا الجزء الخاصّ بالتشريح ووظائف الأعضاء، الأمر الذي جعله محبوبًا محبَّة بالغة من الوجهة العلمية لممارسي الطب؛ لذا فإنه صار منتشرًا في جميع أنحاء المعمورة، وكان له تأثير عظيم على أطباء العالم أجمع.

والجدير بالذكر أنه توجد نسخ منه على شكل مخطوط في كل من باريس وأكسفورد وفلورنسا وميونيخ والأسكوريال، ويقع الموجز في الطب في أربعة أجزاء، نال تقدير وإجلال أطباء العالم؛ لذا فقد كثرت ترجمته إلى اللغات الأجنبية وتعدَّدت التعليقات عليه، وقد نشر سنة (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) في القاهرة بتحقيق عبد المنعم محمد عمر، وكانت قد سبقتها نشرة ماكس مايرهوف ويوسف شاخت ضمن منشورات أكسفورد سنة (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٤- (شرح فصول أبقراط): وقد طُبِع في بيروت سنة (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، بتحقيق ماهر عبد القادر ويوسف زيدان.

٥- (المهذب في الكحل المجرب): ونُشر في الرباط سنة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، بتحقيق ظافر الوفائي ومحمد رواس قلعة جي.

٦- (المختصر في أصول علم الحديث): ونشر بالقاهرة سنة (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م) بتحقيق يوسف زيدان[1].

ولا شكَّ أن لكتب ابن النفيس قيمة كبيرة بالنسبة لتاريخ الطب العربي والغربي على حدٍّ سواء، وإضافة إلى ذلك فإنه ألَّف في السيرة وعلم الحديث والنحو

---

(١) انظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧، والباباني: هدية العارفين ١/ ٣٧٨، وإدوارد فينديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٧٩، وكحالة: معجم المؤلفين ٧/ ٥٨، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧١، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٧، وعلي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب ص٤٥٢، ٤٥٣، وعبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص١٣٣، وأكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٤٢.

والفلسفة والمنطق، وكان ابن النفيس شجاعًا في عرض آرائه العلمية؛ حيث جاء بعضها مخالفًا لآراء قُطْبَي الطب الكبيرين ابن سينا وجالينوس، وكانت مؤلفاتهما تُسيطر على عقول الأطباء في عصره، وكان من الصعب أن يعلن الطبيب مخالفته لها، حتى وإن كان في شهرة ابن النفيس، إلاَّ أنه فعل ذلك ولم يخشَ شيئًا[1].

وعن طريقته في التأليف يقول ابن قاضي شهبة: «وكانت تصانيفه يمليها مِنْ حفظه ولا يحتاج إلى مراجعة لتبحُّرِه في الفنِّ، وقال السبكي: صنَّف شرحًا على التنبيه وصنَّف في أصول الفقه وفي المنطق، وكان مشاركًا في فنون»[2].

وقال صاحب الأعلام: «وكانت طريقته في التأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته، وقل أن يراجع أو ينقل». ثم تراه يقول آخرًا: «وخلَّف مالاً كثيرًا، ووقف كتبه وأملاكه على البيمارستان المنصوري بالقاهرة»[3]!

وفي أيامه الأخيرة مَرِضَ ابن النفيس مرضًا شديدًا، وقد حاول الأطباء أن يعالجوه بالخمر إلاَّ أنه دفعها عن فمه، وهو يقاسي عذاب المرض قائلاً: «لا ألقى الله تعالى وفي جوفي شيء من الخمر»!

***

(١) انظر: أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٤١، وراجع أيضًا ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧.

(٢) طبقات الشافعية ١/ ١٠٧.

(٣) الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧١.

ابن سينا.. موسوعة العلم والعلوم

ظلَّ الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) لسبعة قرون متوالية المرجع الرئيسي في علم الطب، وبقي كتابه (القانون) في الطب العمدة في تعليم هذا الفنِّ حتى أواسط القرن السابع عشر في جامعات أوربا[١]! ويُعَدُّ ابن سينا أوَّل من وصف التهاب السَّحايا الأوَّليِّ وصفًا صحيحًا، ووصف أسباب اليرقان[٢]، ووصف أعراض حصى المثانة، وانتبه إلى أثر المعالجة النفسانية في الشفاء[٣].

وفي صرح الحضارة الإسلامية برز علماء أعلام وجهابذة عظام، عزَّ تاريخ الإنسانية في القديم والحديث أن يجود بمثلهم؛ ولا غرو فهم أعلام الحضارة، وهم صور رائعة تعكس سمو هذه الحضارة الإسلامية الإنسانية، حتى التصق اسمهم بها؛ فغدا ذِكْرهم ذِكْرًا لهذه الحضارة، وغدت دراسة حياتهم دراسة لها أيضًا!

ومن هؤلاء الجهابذة العظام كان ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله.. الملقب بالشيخ الرئيس، والمعروف عند الأوربيين باسم (Avicenna)، وهو من أعظم علماء المسلمين، ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين، وقد احتلَّ مكانًا سامقًا في الفكر والفلسفة والطب؛ فكان فيلسوفًا، وطبيبًا، ورياضيًّا، وفلكيًّا.. بل إنه لم يترك جانبًا من جوانب العلوم النظرية أو التطبيقية إلاَّ وتعرَّض له، تعرُّض العالم المتخصِّص المحقِّق؛ حتى كانت له إسهاماته الفعالة وإبداعاته الفريدة في كل مجالات المعرفة والعلوم!

---

(١) انظر: شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥١١.

(٢) اليرقان: حالة مرضية تمنع الصفراء من بلوغ المعى بسهولة، فتختلط بالدم فتصفر بسبب ذلك الأنسجة. انظر: الزبيدي: تاج العروس، باب القاف فصل الهمزة مع الراء ٢٥/٨، والمعجم الوسيط ص١٠٦٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ١٥٢، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص ٥١١.

وُلِدَ ابن سينا قرب بخارى - في أوزبكستان حاليًا- سنة (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، ونشأ نشأة علمية؛ حيث تعهَّده والده بالتعليم والتثقيف منذ طفولته، فأحضر له الأساتذة والمربِّين، حتى شبَّ ابن سينا الطفل محبًّا للقراءة والعلم، والاطلاع الواسع في شتى المعارف والعلوم، وقد بلغ فيها ما لم يبلغه غيره، وكل ذلك وهو دون العشرين سنة!

وقد وصف ابن سينا من سيرته ما يغني غيره عن وصفه فقال: «كان أبي رجلاً من أهل بلخ فسكن بخارى في دولة نوح بن منصور[1]، وتولَّى العمل والتصرف بقرية كبيرة، وتزوَّج بأمي فأولدها أنا وأخي، ثم انتقلنا إلى بخارى، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملتُ عشرًا من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقضى مني العجب. وكان أبي ممن أجاب دعوة المصريين ويُعَدُّ من الإسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل وكذلك أخي، فربما تذاكروا وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولانه ولا تقبله نفسي، وأخذوا يدعونني إليه، ويُجْرُون على ألسنتهم ذِكْر الفلسفة والهندسة والحساب، وأخذ يوجِّهُني إلى مَنْ يُعَلِّمني الحساب. ثم قَدِمَ بخارى أبو عبد الله الناتلي[2] الفيلسوف فأنزله أبي دارنا، وقَبْلَ قُدُومه كنت أشتغل بالفقه والتردُّد فيه إلى الشيخ إسماعيل الزاهد، وكنتُ من أجود السالكين...»[3].

وقد قرأ ابن سينا كتاب إيساغوجي على الناتلي، ثم أحكم عليه علم المنطق،

(١) هو المنصور الساماني (٣٥٣-٣٨٧هـ/ ٩٦٤-٩٩٧م) أبو القاسم، نوح بن منصور بن نوح بن نصر الساماني: أمير ما وراء النهر، مولده ووفاته في بخارى (عاصمة إمارته)، ولي بعد وفاة أبيه سنة (٣٦٦هـ) وهو صبي، ولم تسكن الفتن مدة ولايته إلاَّ قليلاً، وكان موفقًا في قمعها، عزيز الجانب، مطاعًا، دام ملكه ٢٢ سنة. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥١٤، والزركلي: الأعلام ٨/ ٥١.

(٢) هو أبو عبد الله الناتلي، وقيل: النائلي، أحد الحكماء العلماء، كان متخلقًا بأخلاق حميدة، انتهت إليه علوم الرياضيات، وله رسائل في علم الإكسير. انظر الشهرزوري: تاريخ الحكماء ص٣٠٤.

(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٧٠-٧٢، والذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٣٠٥٩-٣٠٦٠.

وإقليدس والمجسطي، وفاقه أضعافًا كثيرة؛ حتى أوضح له منها رموزًا وفهمه إشكالات لم يكن للناتلي يد بها، أمَّا تعلُّم الطب فقد تَعَلَّمَه في أقلِّ مدَّة، حتى فاق فيه الأوائل والأواخر -كما يُعَبِّر ابن خلِّكان- وأصبح فيه عديم القرين، فقيد المثل، وقد اختلف إليه فضلاء هذا الفنِّ وكبراؤه؛ يقرءون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة، **وسنُّه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة**[1]!

وفي لفتة إنسانية فإن ابن سينا لما نبغ في الطب قام بعلاج المرضى **تأدُّبًا وبالمجَّان، لا تكسُّبًا أو لجمع المال**؛ وذلك حبًّا للخير والاستفادة بالعلم، وقد واتته فرصة عظيمة عندما نجح في علاج الأمير نوح بن منصور وهو في السابعة عشر من عمره، ذلك الأمر الذي عجز عنه مشاهير الأطباء، فنال بذلك شهرة عظيمة، كما جعل أمراء هذا البيت يُنْعِمُون عليه، ويفتحون له دور كتبهم؛ ليعبَّ منها علمًا غزيرًا لم يتوفر ولم يتحصَّل لغيره، وعمره لم يأتِ بعدُ الثامنة عشرة[2]!

وبعد العشرين من عمره انصرف ابن سينا إلى التأليف والكتابة والاشتغال بالفلسفة والطب، حتى إذا ما وصل إلى سن الثانية والعشرين كان أشهر أطباء عصره، وقد أسند إليه منصب رئيس وزراء شمس الدولة أمير ولاية همذان، ثم خدم الأمير علاء الدين في أصفهان، ولم يكن لاشتغاله بتدبير الدولة أي أثر على إنتاجه ودراساته[3].

ابن سينا.. منهج فريد:

في بحوثه ودراساته كان لابن سينا منهج مغاير لِمَا كان عليه العلماء السابقون، وبخاصَّة علماء وأساطين الفكر اليوناني؛ فقد نزع إلى الاستقلال في الرأي، والتحرُّر

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٨.

(٢) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٧٤،٧٥، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٨.

(٣) للاستزادة من سيرته انظر المصادر السابقة، وقدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٥٨، وعامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٢٠.

من أي فكرة لا يُؤَدِّي إليها نظرٌ عقلي، وقد أدَّاه ذلك إلى ألاَّ يتقيَّد بآراء مَنْ سبقه، بل يبحث ويدرس ويُعمل العقل والمنطق والخبرة التي اكتسبها، فإن أوصلته هذه كلها إلى تلك الآراء الصحيحة أخذ بها، وإن أوصلته إلى غير ذلك نبذها وبيَّن فسادها.

وبذلك فإن ابن سينا خالف أرسطو وأفلاطون، وغيرهما من فلاسفة اليونان في كثير من الآراء؛ فلم يتقيَّد بها، بل أخذ منها ما ينسجم مع تفكيره، وزاد على ذلك كله بقوله بأن: الفلاسفة يخطئون ويصيبون كسائر الناس، وهم ليسوا معصومين من الخطأ والزلل. وهو ما لم يجرؤ على التصريح به الفلاسفة والعلماء في تلك الأزمان[1].

وأكثر من ذلك أن ابن سينا جعل للتجربة مكانًا عظيمًا ومنزلة سامقة في دراساته وبحوثه، وبالأخصِّ الطبية منها، وقد توصَّل عن طريقها إلى ملاحظات دقيقة ونتائج جديدة مبتكرة، في تشخيص الأمراض واكتشاف العلاج وتحضير الأدوية، وفي ذلك يقول ابن سينا: «تعهَّدت المرضى؛ فانفتح عليَّ من أبواب العلاجات المقتبسة من التجربة ما لا يُوصف..»[2].

وإن هذا المنهج العلمي الذي يعتمد على التجربة هو الذي جعل ابن سينا ينأى بعلم الطب عن السحر والخرافة والشعوذة؛ حيث توصَّل إلى أنه لا بُدَّ أن يكون لكل مرض سبب.

أمَّا أروع ما يميِّز هذا المنهج فكان فيما تجلَّى من اتصال دائم بالله ﷻ، وترى ذلك في حديثه حين يقول: «... فكل حُجَّة كنتُ أنظر فيها أُثبت مقدِّمات قياسية، وأُرَتِّبُها في تلك الظهور[3]، ثم نظرتُ فيما عساها تُنْتِج، وراعيتُ شروط مقدِّماته، حتى

---

(١) قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٧٣.

(٣) تلك الظهور: أي تلك الحالات والمشاهدات التي ينظرها.

تحقّق لي حقيقة الحقّ في تلك المسألة، وكلما كنتُ أتحيَّر في مسألة ولم أكن أظفر بالحدِّ الأوسط في قياسٍ تردَّدْتُ إلى الجامع، وصلَّيْتُ وابتهلتُ إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق، وتيسَّر المتعسِّر»[1].

ابن سينا.. ابتكارات سبقت عصرها:

استطاع الشيخ الرئيس ابن سينا - بفضل ما منَّ به الله ﷻ عليه من العقل والعلم وسعة الاطلاع والولع الشديد بالمعرفة - أن يُقَدِّم للإنسانية أعظم الخدمات والاكتشافات والابتكارات التي فاقت عصرها بالقياس إلى إمكانات ذلك العصر ومدى ما وصلت العلوم فيه آنذاك، وبالأخصِّ في جانب الطب؛ فإليه يرجع الفضل في اكتشاف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن؛ إذ إنه أول من كشف عن طفيلة (الإنكلستوما)، وسماها في كتابه (القانون في الطب) في الفصل الخامس الخاص بالديدان المعوية: الدودة المستديرة، ووصفها بالتفصيل لأول مرة، وتحدَّث عن أعراض المرض الذي تُسَبِّبه[2].

وعن هذا الفتح الكبير كتب الأستاذ الدكتور محمد خليل عبد الخالق مقالاً في مجلة الرسالة، جاء فيه: «... قد كان لي الشرف في عام (١٩٢١م) أن قمت بفحص ما جاء في كتاب القانون في الطب، وتبيَّن لي أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالإنكلستوما، وقد أعاد (دوبيني) اكتشافها بإيطاليا عام (١٨٣٨م)، أي بعد اكتشاف ابن سينا لها بتسعمائة سنة تقريبًا، ولقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة، كما أخذت به مؤسسة (روكلفر) الأمريكية التي تعني بجمع كل ما كُتِبَ عن هذا المرض... ولذلك كتبتُ هذا ليطلع عليه الناس ويُضيفوا إلى اكتشافات ابن سينا العديدة هذا الاكتشاف

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٧٣، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٨.
(٢) انظر: ابن سينا: القانون في الطب ٤/ ١٨٦ وما بعدها.

العظيم لمرض هو أكثر الأمراض انتشارًا في العالم الآن..»[1].

ثم إنه تطرَّق إلى بعض أنواع الديدان الطفيلية التي تعيش بعيدًا عن القناة الهضمية؛ مثل: ديدان العين، التي تُفَضِّل منطقة العين، وديدان الفلاريا المسبِّبَة لداء **الفيل**، فتراه يقول عن الأخير: «هو زيادة في القدم وسائر الرِّجْل على نحو ما يعرض في عروض الدوالي فيغلظ القدم ويكثفه»[2].

كما أنه أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرَّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقرَّ عليه أساطين الطب اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أوَّل من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي[3].

وكان ابن سينا صاحب الفضل في علاج القناة الدمعية بإدخال مسبار معقَّم فيها! وابن سينا هو الذي أوصى بتغليف الحبوب التي يتعاطاها المريض، وكشف في دقَّة بالغة عن أعراض حصاة المثانة السريرية، بعد أن أشار إلى اختلافها عن أعراض الحصاة الكُلوية، يقول الدكتور خير الله في كتابه الطب العربي: «ويصعب علينا في هذا العصر أن نُضيف شيئًا جديدًا إلى وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية»[4].

كما كان لابن سينا باع كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقَّة بعض أمراض النساء؛ مثل: الانسداد المهبلي، والإسقاط، والأورام الليفية. وتحدَّث عن الأمراض التي يمكن أن تُصيب النفساء؛ مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يسبِّبه من أورام وحميات حادَّة، وأشار إلى أن تَعَفُّن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة

---

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة ص١٨٠، ١٨١.
(٢) ابن سينا: القانون في الطب ٤/ ٤٢٨.
(٣) انظر: عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٣.
(٤) المصدر السابق ص١٣٤.

أو موت الجنين، وهو ما لم يكن معروفًا من قبلُ.. كما تعرَّض - أيضًا - للذكورة والأنوثة في الجنين، وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أكَّده مؤخَّرًا العلم الحديث[1].

كما كشف ابن سينا - لأوَّل مرَّة أيضًا - طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: «إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًّا لا تُرى بالعين المجرَّدة، وهي التي تسبِّب بعض الأمراض..»[2]. وهو ما أكَّده (فان ليوتهوك) في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخِّرُون من بعده، بعد اختراع المجهر.

ويُظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة؛ فقد ذكر عدَّة طرق لإيقاف النزيف؛ سواء بالربط، أو إدخال الفتائل، أو بالكي بالنار، أو بدواء كاوٍ، أو بضغط اللحم فوق العرق.. كما تحدَّث عن كيفية التعامل مع السِّهام واستخراجها من الجروح، وحذَّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح، كما نبَّه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامَّة بالتشريح[3].

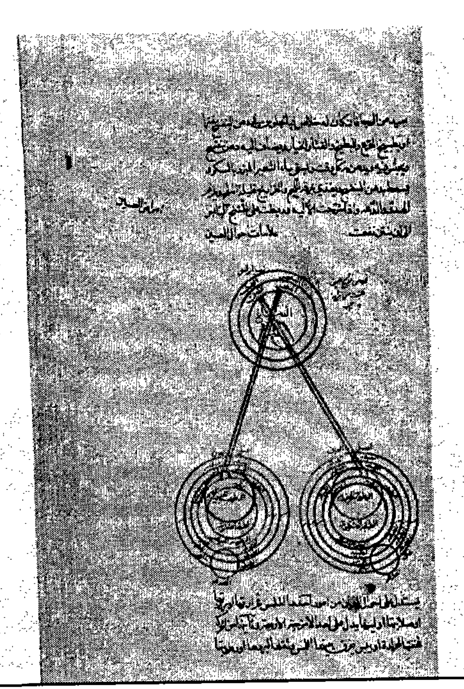
وإلى جانب كل ما سبق - وهناك غيره كثير - كان ابن سينا على دراية واسعة بطب العيون والأسنان، وكان واضحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تآكل؛ وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادَّة المؤدِّية إلى ذلك...». ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعدادًا فنيًّا ملائمًا مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى ملئها بالمادَّة الحاشية المناسبة

---

(١) راجع في ذلك: ابن سينا: القانون ٢/ ٥٨٦.
(٢) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٩٨.
(٣) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١١٨.

لتعويض الضياع المادي الذي تَعَرَّضَتْ له السنُّ؛ ممَّا يُعِيدها بالتالي إلى أداء وظيفتها من جديد[1].

ودرس ابن سينا الاضطرابات العصبية وتوصَّل إلى بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي، وكان يرى أن العوامل النفسية والعقلية لها تأثير كبير على أعضاء الجسم ووظائفها[2].



القانون في الطب وطب العيون

وبالإضافة إلى هذا فإن ابن سينا قد درس وعمل بحوثًا في الزمان والمكان، والحيز، والقوة والفراغ.. وقال بأن: شعاع العين يأتي من الجسم المرئي إلى العين. وعمل تجارب عديدة في الوزن النوعي ووَحدة الوزن النوعي لمعادن كثيرة، كما بحث في الحركة وتناول الأمور المتعلِّقَة بها، وموضع الميل القسري والميل المعاون، وقد خرج الأستاذ مصطفى نظيف إلى أن دراسات ابن سينا في هذا المضمار - بالإضافة إلى دراسات علماء مسلمين آخرين - قد ساهمت في التمهيد لبعض معاني علم الديناميكا الحديث، وأن ابن سينا مع بقية هؤلاء العلماء المسلمين قد أدركوا القسط الأوفر في المعنى

(١) انظر: ابن سينا: القانون ١/ ١٩٢.

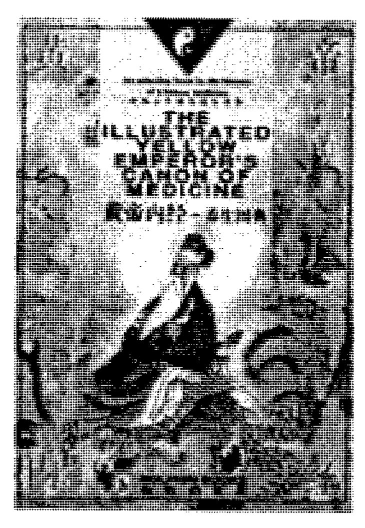
(٢) علي بن نايف الشحود: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل ٥/ ٣١١.

المنصوص عليه في القانون الأول من قوانين نيوتن الثلاثة في الحركة، وأوردوا على ذلك نصوصًا صريحة[1].

ولابن سينا كذلك بحوث نفيسة في المعادن وتكوين الجبال والحجارة، كانت لها مكانة خاصة في علم طبقات الأرض، وقد اعتمد عليها العلماء في أوربا، وبقيت معمولاً بها في جامعاتهم حتى القرن الثالث عشر للميلاد[2].

ابن سينا.. آثار خالدة:

ترك ابن سينا آثارًا خالدة ونتاجًا ثرًّا غزيرًا، ينبئ عن إسهاماته العظيمة في مسيرة الإنسانية، ومكانته السامقة في تاريخ تَقَدُّم الفكر والعلم؛ فقد وضع ما يزيد على مائة مؤلَّف ورسالة في مختلف مجالات المعرفة والعلوم، عُدَّ بعضها موسوعاتٍ ودوائر معارف.



نسخة مترجمة للقانون في الطب باللغة الصينية

ولعلَّ كتابه (القانون في الطب) من أهم مؤلفات ابن سينا الطبية وأنفسها، وأكثرها شهرة وانتشارًا في الجامعات والكليات، ويسميه علماء الغرب: (Canonmedicina)، وقد تحدَّث فيه ابن سينا عن علم وظائف الأعضاء، وعلم الأمراض، وعلم الصحة، ومعالجة الأمراض، وعلم الأدوية، والتشريح، وقد ترجمه الغرب إلى لغاتهم، وطُبِعَ خمس عشرة مرَّة، وبقي مُعَوَّلاً عليه في دراسة علم الطب في الجامعات الأوربية طيلة ستة قرون حتى منتصف القرن

(١) انظر: قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٣.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

السابع عشر[1].

تقول **زيغريد هونكه** عن هذا الكتاب: «إن كُتب أعاظم الإغريق والإسكندريين ليبهت لونها، ويقلُّ شأنها أمام كتاب القانون لأمير الأطباء الرئيس ابن سينا، ذلك الكتاب الذي كان له أعظم الأثر في بلاد الشرق وبلاد الغرب على حدٍّ سواء قرونًا طويلة من الزمن بشكل لم يكن له أي مثيل في تاريخ الطب إطلاقًا»[2].

ويقول **نوبرجر** (Neuberger) في كتابه عن تاريخ الطب: «إنهم كانوا ينظرون إلى كتاب القانون كأنه وحي معصوم، ويَزيدهم إكبارًا له تنسيقه المنطقي الذي لا يُعاب، ومقدِّماته التي كانت تبدو لأبناء تلك العصور كأنها القضايا المُسَلَّمة والمقرَّرَات البديهية»[3].

ويقول السير (**ويليام أوسلر**) عن منزلة الكتاب: «أنه كان بمثابة الإنجيل في عالم الطب ما يزيد على سبعة قرون من الزمن»[4].

ومن كتب ابن سينا المهمة أيضًا كتاب (الشفاء)، وهو موسوعة من ثمانية عشر جزءًا؛ في الرياضيات والطبيعة وعلوم الدين والاقتصاد والسياسة والموسيقى، وكتاب (أسباب حدوث الحروف) ويُعَدُّ دراسة لعلم الصوتيات.

ومن تصانيفه المشهورة كذلك: المعاد، وأسرار الحكمة المشرقية، والإشارات، وأسرار الصلاة، وهو في ماهية الصلاة وأحكامها الظاهرة وأسرارها الباطنة، وأرجوزة في الطب، والنبات والحيوان، وأسباب الرعد والبرق، وغيرها كثير[5].

---

(١) الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٤٢، ومحمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص٤٠٣، ٤٠٤.

(٢) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٨٩.

(٣) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٧.

(٤) قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٤.

(٥) انظر الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٤٢.

وقد تُرجمت كتب ابن سينا في الطب إلى اللاتينية ومعظم لغات العالم، وظلَّت زهاء ستة قرون المرجع العالمي في الطب، واستُخْدِمَتْ كأساس للتعليم في جامعات فرنسا وإيطاليا جميعًا، وظلَّت تدرس في جامعة مونبلييه حتى أوائل القرن التاسع عشر[1].

هذا، وبعد حياة مثمرة حافلة بالعطاء، وبعد أن باتت مؤلفاته وابتكاراته منهجًا يسير عليه الغرب لعديد من القرون في تدريس الطب، وبعد أن ترك بصماته الواضحة على نمو وتقدُّم الفكر والعلم.. توفي ابن سينا في همذان سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)، فرحمة الله عليه.

***

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٩٠.

الرازي.. معجزة الطب عبر الأجيال

لعله من العجيب أن يُذكر إنسانٌ ما على أنه صورة من صور الحضارة؛ فقد تَعَوَّدنا على وصف الحضارة على أنها نتاج أعمال كثيرة وأعداد كثيرة من البشر برعوا معًا في الإبداع في مجال من مجالات الحياة: كالطب أو الهندسة أو المعمار أو غير ذلك.

ولكن الواقع أن الحضارة الإسلامية صنعت رجالاً ونساءً كانوا بحقٍّ صورًا رائعة من صور الحضارة، بحيث تلتصق بهم كلمة الحضارة، فإذا ذكروا فهذه هي الحضارة، وإن درست حياتهم فهذه دراسة للحضارة!

لم يكن الرازي طبيبًا فحسب، ولا معلِّمًا فقط، ولكنه أبدع كذلك في مجالات الأخلاق والقيم والدين، كما أبدع - ولا شكَّ في ذلك - في مجال الإنسانيات، حتى أصبح علمًا من أعلام الفضيلة، كما كان عَلَمًا من أعلام الطب، ولا شكَّ أن هذا الرجل العظيم من أعظم صور الحضارة الإسلامية.

فهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.. وقد وُلِدَ في مدينة الرَّيّ، وإليها نُسِب، ومدينة الرَّيّ تقع على بُعْدِ ستة كيلو مترات جنوب شرقي طهران، وكان ميلاده في سنة (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، وكان منذ طفولته محبًّا للعلم والعلماء، فدرس في بلدته (الرَّيّ) العلوم الشرعية والطبية والفلسفية[1]، ولكن هذا لم يُشْبع نَهَمَه لطلب العلم؛ فلم تكن مدينة الرَّيّ - على اتساعها وكثرة علمائها - بالمدينة التي تحوي علوم الأرض في ذلك الوقت؛ ولذلك يمَّم الرازي وجهه شطر عاصمة العلم في العالم في ذلك الوقت، وهي (بغداد) عاصمة الخلافة العباسية، فذهب إليها في شِبه بعثة علمية مكثَّفة، تَعَلَّم فيها علومًا كثيرة، ولكنه ركَّز اهتمامه في الأساس على

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٦٣.

الطب، وكان أستاذه الأول في هذا المجال هو «علي بن زين الطبري»، وهو صاحب أول موسوعة طبية عالمية (فردوس الحكمة)[1].

ويمثل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري والنصف الثاني من القرن التاسع الميلادي أبو بكر الرازي (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م) الذي يُعَدُّ عَلَمًا من أعلام الطب في الحضارة الإسلامية، ويُعتبر من أعظم مُعَلِّمي الطب الإكلينيكي، وقد تولَّى تدبير مارستان الرَّيِّ، ثم رئاسة أطباء المارستان المقتدري في بغداد، وهو أول من أدخل المُرَكَّبَات الكيماوية في العلاجات الطبية، وأول من صنف مقالات خاصَّة في أمراض الأطفال، وأول من استعمل أمعاء الحيوان كخيوط في العمليات الجراحية[2].

كما يُعْتَبَرَ أول من دوَّن ملاحظاته على مرضاه، ومراتب تَطَوُّر المرض، وأثر العلاج فيه، وأول من وصف الجدري والحصبة، وقال بالعدوى الوراثية، واستخدم الحيوان في تجارِب الأدوية، ومن مؤلَّفاته غير الكتاب المذكور: الحاوي، ورسالة في الجدري والحصبة، والكتاب المنصوري، وكتاب الأسرار، والكتاب الجامع[3].

كتاب الحاوي في الطب للرازي

ولتمكُّنِه ونتيجة كثرة تجارِبه فقد أطاح

(١) مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين ١/ ١١٧.
(٢) انظر في إنجازات الرازي في مجال الطب: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٢١، ٣٢٢.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٢٣، ٣٢٤، وتاريخ حكماء الإسلام، ص ٢١، والصفدي: الوافي بالوفيات ٣/ ٧٦، ودائرة المعارف الإسلامية ٩/ ٤٥١، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥١٠، ٥١١.

بنظريات جالينوس التي ادَّعى فيها أن في الحاجز الذي بين الجانب الأيمن والجانب الأيسر في القلب ثقوبًا غير منظورة يتسرب فيها الدم من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر، وما وظيفة الرئتين إلاَّ أن ترفرفا فوق القلب فتبرِّد حرارته وحرارة الدم، ويتسرب شيء من الهواء فيها بواسطة المنافذ التي بينهما وبين القلب فيغذِّي ذلك القلب والدم. فانتقد الرازي هذه الآراء، حتى إنه ألَّف كتابًا خاصًّا للردِّ على جالينوس أعظم أطباء اليونان، وسمَّاه (الشكوك على جالينوس)، وذكر فيه الأخطاء التي وقع فيها جالينوس، والتصويب الذي قام هو به لهذه الأخطاء، وكيف وصل إلى هذه النتائج[١].

اهتمَّ الرازي أيضًا بالعلوم التي لها علاقة بالطب؛ كعلم الكيمياء والأعشاب[٢]، وكذلك علم الفلسفة؛ لكونه يحوي آراء الكثير من الفلاسفة اليونان والذين كانوا يتكلمون في الطب أيضًا، وكان أستاذه الأول في الفلسفة هو (البلخي[٣])، وهكذا أنفق الرازي عدَّة سنوات من عمره في تَعَلُّم كل ما يقع تحت يديه من أمور الطب، حتى تَفَوَّق في هذا المجال تَفَوُّقًا ملموسًا.

ثم عاد الرازي بعد هذا التميز إلى الرَّيّ، فتقلَّد منصب مدير مستشفى مدينة الرَّيّ، وكان من المستشفيات المتقدِّمَة في الإسلام، وذاعت شهرته، ونجح في علاج الكثير من الحالات المستعصية في زمانه، وسمع بأمره الكبير والصغير والقريب والبعيد، حتى سمع به (عضد الدولة بن بويه) كبير الوزراء في الدولة العباسية، فاستقدمه إلى بغداد ليتولَّى منصب رئيس الأطباء في المستشفى العضدي، وهو أكبر مستشفى في العالم في ذلك الوقت، وكان يعمل به خمسون طبيبًا[٤].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٦٨.

(٢) القنوجي: أبجد العلوم ٣/ ١١٤.

(٣) ابن النديم: الفهرست ١/ ٤١٦.

(٤) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢١٨.

والحقُّ أنه لم يكن مستشفى فقط، بل كان جامعة علمية، وكليَّةً للطب على أعلى مستوى، وقد أصبح الرازي فيه مرجعية علمية لا مثيل لها، ليس في بغداد فقط، وإنما في العالم كله، وليس على مدى سنوات معدودة، ولكن لقرون متتالية؛ فكان معجزة الطب عبر الأجيال!

ولعلَّه من المهم جدًّا أن نقف وقفة ونتساءل: كيف وصل الرازي إلى هذا المجد، وإلى هذه المكانة؟

لا بدَّ أن نعلم أن النجاح لا يأتي مصادفة، وأن التفوُّق لا يكون إلاَّ بجهد وتعب وبذل وتضحية، كما أن الإبداع لا يكون عشوائيًّا أبدًا، إنما يحتاج إلى تخطيط وتدريب ومهارة، وهكذا كانت حياة الرازي – رحمه الله-.

لقد بحث الرازي عن العلم في كل مصادره، واجتهد قدر استطاعته في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات، ثم أتبع ذلك بتفكير عميق وتجارِب متعددة، ودراسة متأنية، حتى بدأ يُعَدِّل في النظريات التي يقرؤها، وأخذ ينقد ويُحَلِّل، ثم وصل إلى الاختراع والإبداع.

لقد انتشر في زمان الرازي الطب اليوناني، والفارسي، والهندي، والمصري نتيجة اجتهاد العلماء في ترجمة كتب تلك الأمم، فقرأها الرازي جميعًا، لكنه لم يكتفِ بالقراءة بل سلك مسلكًا رائعًا من أرقى مسالك العلم وهو الملاحظة والتجربة والاستنتاج.

فقد كان الطب اليوناني هو أهم طب في تلك الفترة، ولكنه كان يعتمد في الأساس على النظريات غير المجرَّبة، وكان كل أطباء اليونان يعتمدون هذه الطريقة حتى عُرِفُوا بفلاسفة الطب، فهم لم يُخضعوا نظرياتهم لواقع الحياة إلاَّ قليلاً، ولا يُستثنَى من ذلك أحدٌ من أطباء اليونان حتى العمالقة منهم أمثال جالينوس

وأبقراط! ولكن الرازي قال كلمته المشهورة التي تعتبر الآن قانونًا من قوانين العلم بصفة عامة، والطب بصفة خاصة، قال: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة والنظرية السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييدًا لمشاهير العلماء..»(١)!

فهو يذكر أنه ليس لعالم مشهور أو غير مشهور أن يُقَرِّرَ نظرية تتعارض مع المشاهدة الفعلية والتجربة الحقيقية والواقعة الحادثة، بل تُقَدَّم الملاحظة والتجربة؛ وبذلك يُبْنَى الاستنتاج على ضوء الحقائق لا الافتراضات الجدلية.

ما أروعه حقًّا من مبدأ! وما أبدعها من طريقة!

وكان الرازي حريصًا على سؤال المريض عن كل ما يَتَعَلَّق بالمرض تقريبًا من قريب أو بعيد، وكان يقول: «إن الطبيب ينبغي ألاَّ يدع مُساءَلة المريض عن كل ما يمكن أن يقوله عن علَّته»(٢). وهذه أول خطوة في التعامل مع المريض في الطب الحديث، وهي معرفة تاريخ المرض والأمور المحتملة التي قد تكون سبَّبت المرض، ثم يقوم الرازي بالكشف على المريض وقياس الحرارة والنبض، وإذا استلزم الأمر أن يُدخل المريض المستشفى فإنه يضعه تحت الملاحظة الدقيقة المستمرَّة؛ لتسجيل كل معلومة قد تكون مفيدة في كشف سبب المرض، أو في وصف العلاج، وقد كان الرازي من الدقَّة إلى درجة أذهلت من قرأ تعليقاته على الحالات المرضية التي وصفها.

بل إن الرازي وصل إلى ما هو أروع من ذلك؛ حيث أرسى دعائم الطب التجريبي على الحيوانات، فقد كان يُجَرِّب بعض الأدوية على القرود، فإن أثبتت كفاءة وأمانًا جَرَّبها مع الإنسان، وهذا من أروع ما يكون، ومعظم الأدوية الآن لا

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٧٧، ٧٨.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٧.

يمكن إجازتها إلاَّ بتجارِب على الحيوانات كما كان يفعل الرازي – رحمه الله – [1].

ولقد كان من نتيجة هذا الأسلوب العلمي المتميز للرازي أن وصل إلى الكثير من النتائج المذهلة، وحقق سبقًا علميًّا في كثير من الأمور.

فالرازي هو أول مبتكر لخيوط الجراحة، وقد ابتكرها من أمعاء القطة! وقد ظلَّت تُسْتَعْمَل بعد وفاته لعدة قرون، ولم يَتَوقَّف الجرَّاحون عن استعمالها إلاَّ منذ سنوات معدودة في أواخر القرن العشرين، عند اختراع أنواع أفضل من الخيوط، وهذه الخيوط هي المعروفة بخيوط أمعاء القط «gut cat»[2].

والرازي هو أول من صنع مراهم الزئبق[3].

وهو أول من فرَّق بين النزيف الوريدي والنزيف الشرياني، واستخدام الضغط بالأصابع لإيقاف النزف الوريدي، واستخدم الربط لإيقاف النزيف الشرياني، وهذا عين ما يُستخدم الآن!

وهو أول من وصف عملية استخراج الماء من العيون[4].

وهو أول من استخدم الأفيون في علاج حالات السعال الجاف.

وهو أول من أدخل المليِّنات في علم الصيدلة.

وهو أول من اعتبر الحمَّى عرضًا لا مرضًا[5].

وكان – رحمه الله – يهتمُّ بالتعليق على وصف البول ودم المريض للخروج منهما بمعلومات تفيده في العلاج[6].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٧٨.
(٢) محمود الحاج قاسم: الموجز لما أضافه العرب في الطب ص٤٣.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٤.
(٤) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٣٠٨.
(٥) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٧٢.
(٦) الرازي: الحاوي ١٠/ ١٠.

كما نصح بتجنُّبِ الأدوية الكيميائية إذا كانت هناك فرصة للعلاج بالغذاء والأعشاب، وهو عين ما ينصح به الأطباء الآن[1].

ولم يكن الرازي مبدعًا في فرع واحد من فروع الطب، بل قَدَّم شرحًا مفصَّلاً للأمراض الباطنية والأطفال، والنساء والولادة، والأمراض التناسلية، والعيون، والجراحة، وغير ذلك.

وقد منحه الله ذكاءً فوق العادة، ويؤكِّد ذلك وسيلته في اختيار المكان المناسب لإنشاء مستشفى كبير في بغداد، فقد اختار أربعة أماكن تصلح لبناء المستشفى، ثم بدأ في المفاضلة بينها، وذلك بوضع قطعة لحم طازجة في الأماكن الأربعة، ثم أخذ يتابع تعفُّن القطع الأربع، ثم حدَّد آخر القطع تَعَفُّنًا، واختار المكان الذي وُضعت فيه هذه القطعة لبناء المستشفى؛ لأنه أكثر الأماكن تميزًا بجوٍّ صحِّيٍّ، وهواء نقي يساعد على شفاء الأمراض[2].

ولم يكن الرازي مجرَّد طبيب يهتمُّ بعلاج المرض، بل كان معلمًا عظيمًا يهتمُّ بنشر العلم وتوريث الخبرة، وكان يُدَرِّس تلامذته الطب في المدرسة الطبية العظيمة في المستشفى العضدي ببغداد، وكان يعتمد في تدريسه على المنهجين: العلمي النظري، والتجريبي الإكلينيكي؛ فكان يُدَرِّس الكتب الطبية، وبعض المحاضرات، ويدير الحلقات العلمية، وفي ذات الوقت يمرُّ مع طلبته على أسِرَّة المرضى؛ يشرح لهم ويُعَلِّمهم وينقل لهم خبرته، وكان يُدرِّس لهم الطب في ثلاث سنوات، ويبدأ بالأمور النظرية ثم العملية، تمامًا كما يحدث في كليات الطب الآن، وكان في آخر السنوات الثلاث يعقد امتحانًا لطلبة الطب مُكَوَّنًا من جزأين: الجزء الأول في التشريح، والثاني في الجانب العملي مع المرضى، ومن كان يفشل في الجانب الأول

(١) مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين ١/ ١٢١.
(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ١٣.

(التشريح) لا يدخل الامتحان الثاني، وهذا أيضًا ما نمارسه الآن في كليات الطب[1].

ولم يكن الرازي يكتفي فقط بالتدريس والتعليم والامتحانات لنقل العلم، بل اهتمَّ بجانب آخر لا يقل أهمية عن هذه الجوانب وهو جانب التأليف، فكان - رحمه الله- مُكثرًا من التأليف وتدوين المعلومات وكتابة الكتب الطبية، حتى أحصى له ابن النديم في كتابه (الفهرست) ١١٣ كتابًا، و٢٨ رسالة، وهذا عدد هائل، خاصةً وأنها جميعًا في مجال الطب[2].

وقد كان من أعظم مؤلفات الرازي كتاب **(الحاوي في علم التداوي)**، وهو موسوعة طبية شاملة لكافَّة المعلومات الطبية المعروفة حتى عصر الرازي، وقد جمع فيه - رحمه الله- كل الخبرات الإكلينيكية التي عرفها، وكل الحالات المستعصية التي عالجها، وتتجلَّى في هذا الكتاب مهارة الرازي - رحمه الله-، ودقَّة ملاحظاته، وغزارة علمه، وقوة استنتاجه.

وقد تُرجِم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة أوربية، وطُبع لأول مرة في بريشيا بشمال إيطاليا سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)، وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وكان مطبوعًا في خمسة وعشرين مجلدًا، وقد أُعيدت طباعته مرارًا في البندقية بإيطاليا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، ويذكر المؤرخ (ماكس مايرهوف) أنه في عام ١٥٠٠ ميلادية كان هناك خمس طبعات لكتاب الحاوي، مع عشرات الطبعات لأجزاء منه.

ومن كتبه أيضًا «المنصوري»، وقد سماه بهذا الاسم نسبة إلى المنصور بن إسحاق حاكم خراسان، وقد تناول فيه موضوعات طبية متعددة في الأمراض الباطنية

(١) سامي حمارنة: الصناعة الطبية ص٣٠٣.
(٢) انظر: ابن النديم: الفهرست ١/ ٤٢٠.

والجراحة والعيون، وقد تعمَّد الرازي الاختصار في هذا الكتاب، فجاء في عشرة أجزاء! لذلك رغب العلماء الأوربيون في ترجمته عدَّة مرَّات إلى لغات مختلفة، منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية، وقد تمَّ نشره لأول مرَّة في ميلانو سنة (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م)، وظلَّ مرجعًا لأطباء أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادي[1].

ومن أروع كتبه كذلك كتاب «**الجدري والحصبة**»، وفيه يُتبيّن أن الرازي أول من فرَّق بين الجدري والحصبة، ودوَّن ملاحظات في غاية الأهمية والدقة للتفرقة بين المرضين، وقد أُعيدت طباعة هذا الكتاب في أوربا أربع مرات بين عامي (٩٠٣-١٢٨٣هـ/ ١٤٩٨- ١٨٦٩م)[2].

ومن كتبه أيضًا كتاب «**الأسرار في الكيمياء**»، والذي بقي مدَّة طويلة مرجعًا أساسيًّا في الكيمياء في مدارس الشرق والغرب[3].

ومن كتبه المهمة كذلك كتاب «**الطب الروحاني**» الذي ذكر فيه أن غايته من الكتاب هو إصلاح أخلاق النفس، وحضَّ في كتابه هذا على تكريم العقل، وعلى قمع الهوى، ومخالفة الطباع السيئة، وتدريب النفس على ذلك[4].

إلاَّ أن أهم ما ميَّز الرازي في ذلك كله، هو البُعد الأخلاقي عنده؛ فقد تميَّز –رحمه الله– بالأمانة العلمية التامَّة في كتاباته؛ فكان لا يذكر أمرًا من الأمور اكتشفه غيره إلاَّ أشار إلى اسم المكتشف الأصلي؛ ولذلك حفلت كتبه بأسماء جالينوس وأبقراط وأرمانسوس، وغيرهم، كما ذكر في كتبه المُحْدَثِين من الأطباء أمثال: يحيى

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٩٢.
(٢) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٧٣.
(٣) محمد الصادق عفيفي. تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٩١.
(٤) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٠٥.

بن ماسويه وحنين بن إسحاق.

وكان الرازي يحضُّ تلامذته على اتباع نهج الكتابة والتأليف، فكان يقول لهم: «إذا جمع الطالب أكبر قدر من الكتب وفهم ما فيها، فإن عليه أن يجعل لنفسه كتابًا يضمنه ما غفلت عنه الكتب التي قرأها».

فهو ينصح كل طلبته أن يسجِّلُوا المعلومات التي يلاحظونها في أثناء دراستهم وعلاجهم للمرضى - والتي لم تُذكر في الكتب السابقة - وبذلك يستفيد اللاحقون بعلمهم وتأليفهم.

ولم يكن الرازي عالمًا فقط، بل كان إنسانًا خلوقًا من الدرجة الأولى؛ فقد اشتهر بالكرم والسخاء، وكان بارًّا بأصدقائه ومعارفه، عطوفًا على الفقراء وبخاصة المرضى، فكان يُنفق عليهم من ماله الخاص، ويجري عليهم أحيانًا الرواتب الثابتة[1]!

وكان يوصي تلامذته أن يكون هدفهم هو إبراء المرضى أكثر من نيل الأجور منهم، ويوصيهم كذلك بأن يكون اهتمامهم بعلاج الفقراء تمامًا كاهتمامهم بعلاج الأمراء والأغنياء، بل إنه من شدَّة اهتمامه بالفقراء ألَّف لهم كتابًا خاصًّا سماه «**طب الفقراء**»، وصف فيه الأمراض المختلفة وأعراضها ثم وصف طرق علاجها عن طريق الأغذية والأعشاب الرخيصة بدلاً من الأدوية مرتفعة الثمن أو التراكيب النادرة[2].

ومن شدَّة اهتمامه بالأخلاق الحميدة ألَّف كتابًا خاصًّا بهذا الأمر سماه «**أخلاق الطبيب**»؛ يشرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وبين الطبيب

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ١٣.
(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١١٥، ١١٦.

والطبيب، وضمَّنه كذلك بعض النصائح للمرضى في تعاملهم مع الأطباء[1].

هذا، وقد اعترف القاصي والداني لأبي بكر الرازي بالفضل والمجد والعظمة والعلم والسبق، ولا نقصد بذلك المسلمين فقط، بل اهتمَّ غير المسلمين أيضًا بإنجازات الرازي وابتكاراته.

فنجد فضلاً عن ترجمة كتبه إلى اللغات الأوربية وطبعها أكثر من مرَّة، نجد إشارات لطيفةً وأحداثًا عظيمة تشير إلى أهمية ذلك العالم الجليل، ومن ذلك أن الملك الفرنسي الشهير لويس الحادي عشر، الذي حكم من عام (١٤٦١م إلى ١٤٨٣م)، قد دفع الذهب الغزير لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة من كتاب (الحاوي)؛ كي يكون مرجعًا لهم إذا أصابه مرض ما!

ونجد أن الشاعر الإنجليزي القديم (جوفري تشوسر) قد ذكر الرازي بالمدح في إحدى قصائده المشهورة في كتابه (أقاصيص كونتربري)!

ولعل من أوجه الفخار - أيضًا - أنه رغم تطوُّر العلم وتعدُّد الفنون إلاَّ أن جامعة بريستون الأمريكية ما زالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها[2]، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًّا للرازي، بالإضافة إلى صورته في شارع سان جيرمان بباريس.

لقد كان الرازي بحقٍّ صورة رائعة من صور الحضارة الإسلامية، قلَّما تتكرَّر في التاريخ، لقد كان طبيبًا وعالمًا، ومعلمًا وإنسانًا، عاش حياته لخدمة الإسلام والعلم والبشرية، ومات عن عمر بلغ ستين عامًا، وكانت وفاته في (شعبان ٣١١هـ/ نوفمبر ٩٢٣م).

---

(١) انظر: مقدمة أخلاق الطبيب للرازي، لمحققه عبد اللطيف محمد العبد ص٦.

(٢) أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص١٣٨.

لكن من الصعب أن نقول: إنه مات. فالمرء يُكتَب له الخلود بقدر ما ينفع الناس، وصدق الرسول الكريم ﷺ عندما ذكر في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ**.. ». وذكر منها: «.. **عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ**»[1].

❊ ❊ ❊

(١) مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، وأحمد (٨٨٣١)، وأبو يعلى (٦٤٥٧).

أبو القاسم الزهراوي.. رائد علم الجراحة

يُعَدُّ خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) من العلماء الأعلام في الأندلس، والذي كان لكتابِهِ **(التصريف لمن عجز عن التأليف)** الفضل في أن أصبح من كبار جرَّاحي العرب المسلمين، وأستاذ علم الجراحة في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوربية حتى القرن السابع عشر، ومن خلال دراسة كُتُبِهِ تبيَّن أنه أوَّل من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة، وبَحَثَ في التهاب المفاصل، وفي السلِّ وغيرها[1].

برز في تاريخ الحضارة الإسلامية علماء أعلام، غَدَوْا نجومًا في سماء العلم والحضارة والتقنية؛ وذلك من خلال ما قَدَّمُوه من إبداعات واكتشافات، وما تركوه من بصمات في صرح الحضارة الإنسانية.

وفي هذا الصدد فإننا أمام عملاق يُعَدُّ من أعظم الجرَّاحين الذين أنجبتهم البشرية عبر العصور والأزمان، إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، وهو **أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي**، المعروف في أوربا باسم (Abulcasis)، الطبيب الجراح، الذي تمكَّن من اختراعِ أُولى أدوات الجراحة؛ كالمشرط والمقصِّ الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، والتي من أهمِّها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة؛ فكان أَحَد العلماء الأعلام الذين سعدت بهم الإنسانية.

وقد وُلِدَ أبو القاسم الزهراوي في مدينة الزهراء الأندلسية[2]، ونُسب إليها،

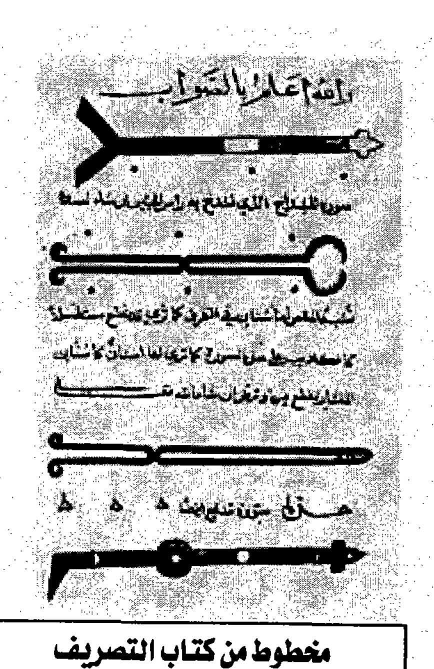
(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٣٣٣، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥١٣.

(٢) مدينة الزهراء: أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر، وتقع على بعد ستة أميال في الشمال الغربي من مدينة قرطبة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٦١.

ويَفترض بعض الباحثين أنه وُلِدَ سنة (٣٢٥ هـ/ ٩٣٦م)، أمَّا وفاته فقيل: إنها سنة (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م)، وقيل: سنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م)[(١)].

وبهذا يكون الزهراوي قد عايش أوج الحضارة الإسلامية في الأندلس، ونشأ في بيئة توفَّرت فيها جميع وسائل الإنتاج العلمي والفكري والعقلي؛ ليأتي هو مثالاً فريدًا على عظمة ومدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في هذا الوقت من التاريخ.

ومن المدهش حقًّا أن ما نعرفه عن الزهراوي شحيح للغاية، ولا يُعرف كثير من أخباره، وليس أدلّ على ذلك من أن ابن أبي أصيبعة الذي خصَّ مؤلَّفًا بتراجم الأطباء قد اختزل ترجمته في فقرة واحدة، كل ما فيها قوله عنه: «خلف بن عباس الزهراوي: كان طبيبًا فاضلاً خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي، ولخلف بن عباس الزهراوي من الكتب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تامٌّ في معناه»[(٢)].


مخطوط من كتاب التصريف

ومن خلال النزر اليسير المتناثر هنا وهناك في المراجع

(١) انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ٣١٠.
(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٢٤٦.

القديمة يتبين لنا أن أبا القاسم الزهراوي قد التحق بالعمل في مستشفى قرطبة، الذي أنشأه الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان يُعمِل النظر في الطرق والوسائل المستخدمة في علاج المرضى، ومع المطالعة وتلك المتابعة الجادَّة تكوَّنت شخصيته العلمية، وترسَّخَتْ قناعاته في المضمار الطبي، حتى أصبح ذا خبرة عظيمة بالأدوية المفردة والمركبة، وجمع بين الطب والصيدلة، ثم إنه قد اقتنع بأهمية مزاولة الطبيب لفنِّ الجراحة بدلاً من أن يوكل ذلك - كما كانت العادة - للحجَّامين أو الحلاقين، فمارس الجراحة وحذق فيها وأبدع، حتى صار عَلَمًا من أعلام طب الجراحة، لدرجة أنه لا يكاد يُذكر اسمه إلاَّ مقترنًا مع الطب الجراحي[1].

وقد حلَّ مبحث الزهراوي في الجراحة بالذات محلَّ كتابات القدماء، وظلَّ العمدة في فنِّ الجراحة حتى القرن السادس عشر، وباتت أفكاره حدثًا تحوُّليًّا في طرق العلاجات الطبية؛ حيث هيَّأ للجراحة قدرة جديدة في شفاء المرضى أذهلت الناس في عصره وبعد عصره، وقد اشتمل هذا البحث على صورة توضيحية لآلات الجراحة (أكثر من مائتي آلة جراحية)، كان لها أكبر الأثر فيمن أتى من بعده من الجرَّاحين الغربيين، وكانت بالغة الأهمية على الأخصِّ بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فنَّ الجراحة في أوربا في القرن السادس عشر؛ فقد ساعدت آلاته هذه على وضع حجر الأساس للجراحة في أوربا[2].

وقد وصف الزهراوي هذه الآلات والأدوات الجراحية التي اخترعها بنفسه للعمل بها في عملياته، ووصف كيفية استعمالها وطرق تصنيعها؛ منها: جفت الولادة، والمنظار المهبلي المستخدم حاليًا في الفحص النسائي، والمحقن أو الحقنة

(١) انظر: شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية ص٣١، وجلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٣١، ٣٣٢، وعلي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٣٦٢.
(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام ص٣٣٢.

العادية، والحقنة الشرجية، وملاعق خاصة لخفض اللسان وفحص الفم، ومقصلة اللوزتين، والجفت وكلاليب خلع الأسنان، ومناشير العظام، والمكاوي والمشارط على اختلاف أنواعها، وغيرها الكثير من الآلات والأدوات التي أصبحت النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة[1]!

ونظرة واحدة على آلة مثل التي ابتكرها واستخدمها في الحقن (الحقنة)، والتي سماها (الزراقة)، تعبر إلى أي حدٍّ كانت الإضافات التي قدَّمها الزهراوي، تلك الآلة البسيطة في تركيبها.. العبقرية في فكرتها.. بالغة النفع في علاج المرضى!

وعن طريق هذه الآلات أجرى الزهراوي عمليات جراحية أحجم غيره عن إجرائها، وأبدع منهجًا علميًّا صارمًا لممارسة العمل الجراحي، يقوم على دراسة تشريح الجسم البشري ومعرفة كل دقائقه، والاطلاع على منجزات من سبقه من الأطباء والاستفادة من خبراتهم، والاعتماد على التجربة والمشاهدة الحسية، والممارسة العملية التي تكسب الجراح مهارة وبراعة في العمل باليد - أي الجراحة - وبيَّن ذلك لطلابه في كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف)[2].

يقول كامبل في كتابه (الطب العربي): «كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره؛ ذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرقسطة كانوا يمنحون لقب طبيب جراح، أما في أوربا فكان لقبهم حلاق جراح، وظلَّ هذا التقليد ساريًا حتى القرن العاشر الهجري»[3].

فإن قدرت فلم تقدر السنون ولا الأيام طمس آثار هذا العالِم الفذِّ؛ حيث ترك موسوعته الطبية الضخمة، والتي كان من بينها مبحثه السابق في الجراحة، بما فيه من

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٧٦.
(٢) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية ص٣٢.
(٣) نقلاً عن جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٣٦.

أدوات وآلات الجراحة العجيبة بمقياس عصره، والتي سماها **(التصريف لمن عجز عن التأليف)**، وهي موسوعة كثيرة الفائدة، تامَّة في معناها، لم يُؤَلَّف في الطب أجمع منها، ولا أحسن للقول والعمل، وتعتبر من أعظم مؤلفات المسلمين الطبية، وقد وصفها البعض بأنها دائرة معارف، ووصفها آخرون بأنها ملحمة كاملة.

وليس من الغريب أن تصبح هذه الموسوعة المصدر الأساسي لجراحي الغرب حتى القرن السابع عشر، وتظلّ المرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوربا، مثل جامعة سالرنو ومونبلييه، في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، والحقيقة التي ينبغي ألاَّ تُغْفل - أيضًا - أن الجراحين الذين عُرفوا في إيطاليا في عصر النهضة وما تلاه من قرون قد اعتمدوا اعتمادًا كبيرًا على كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي[1].

وللزهراوي غير هذه الموسوعة العظيمة مؤلفات أخرى؛ مثل: (المقالة في عمل اليد)، و(مختصر المفردات وخواصها)، وقال الزركلي: «واقتنيت مخطوطة مغربية بخط أندلسي مرتبة على الحروف من الألف إلى الياء، في جزء لطيف، أولها بعد البسملة: (كتاب فيه أسماء العقاقير باليونانية والسريانية والفارسية والعجمية، وتفسير الأكيال والأوزان، وبدل العقاقير وأعمارها، وتفسير الأسماء الجارية في كتب الطب. تأليف الزهراوي) [2].

ويقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالّر:

«كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع مَن ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر»[3].

---

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص٢٢١.

(٢) الزركلي: الأعلام ٢/ ٣١٠.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٩٠.

أبو القاسم الزهراوي.. إنجازات وإبداعات:

مع تمرُّس الزهراوي في مجال الجراحة بالذات وخبرته الواسعة بها، فقد عُدَّ أول من فرَّق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية الأخرى، وأوَّل مَنْ جعل أساس هذا العلم قائمًا على التشريح، وأوَّل من جعل الجراحة علمًا مستقلاً، وقد استطاع أن يبتكر فنونًا جديدة في علم الجراحة، وأن يقننها[1].

يحكي جوستاف لوبون عن الزهراوي فيقول عنه: «أشهر جراحي العرب، ووصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص فعُدَّت من اختراعات العصر الحاضر على غيرِ حقٍّ...»[2].

وجاء في دائرة المعارف البريطانية أنه أشهر مَنْ أَلَّف في الجراحة عند العرب (المسلمين)، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف[3].

ومن أهمِّ إبداعات الزهراوي المشهورة، والتي تناقلها مؤرخو العلوم الطبية في مؤلفاتهم، أنه يُعَدُّ أوَّل من وصف عملية القسطرة، وصاحب فكرتها والمبتكر لأدواتها، وهو الذي أجرى عمليات صعبة في شقِّ القصبة الهوائية، وكان الأطباء قبله، مثل ابن سينا والرازي، قد أحجموا عن إجرائها لخطورتها، وابتكر الزهراوي كذلك آلة دقيقة جدًّا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول، كما نجح في إزالة الدم من تجويف الصدر، ومن الجروح الغائرة كلها بشكل عام. والزهراوي كذلك هو أول من نجح في إيقاف نزيف الدم أثناء العمليات الجراحية، وذلك بربط الشرايين الكبيرة، وسبق بهذا الربط سواه من الأطباء الغربيين بستمائة عام! والعجيب أن يأتي مِن بعده مَن يدَّعي

---

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٦٥، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص١٠٦.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٩٠، ٤٩٢.

(٣) الزركلي: الأعلام ٢/ ٣١٠.

هذا الابتكار لنفسه، وهو الجراح إمبراطور باري عام (١٥٥٢م). والزهراوي هو أول من صنع خيطانًا لخياطة الجِراح، واستخدمها في جراحة الأمعاء خاصة، وصنعها من أمعاء القطط، وأول من مارس التخييط الداخلي بإبرتين وبخيط واحد مُثَبَّتٍ فيهما؛ كي لا تترك أثرًا مرئيًّا للجِرَاح، وقد أطلق على هذا العمل اسم (إلمام الجروح تحت الأدمة)، وهو أوَّل من طبَّق في كل العمليات التي كان يُجريها في النصف السفلي للمريض، رفع حوضه ورجليه قبل كل شيء؛ ممَّا جعله سباقًا على الجراح الألماني (فريدريك تردلينوبورغ) بنحو ثمانمائة سنة، الذي نُسب الفضل إليه في هذا الوضع من الجراحة؛ ممَّا يُعَدُّ - كما يقول شوقي أبو خليل - اغتصابًا لحقٍّ حضاري من حقوق الزهراوي المبتكر الأول لها[1].

كما يُعَدُّ الزهراوي أول رائد لفكرة الطباعة في العالم؛ فلقد خطا الخطوة الأولى في صناعة الطباعة، وسبق بها الألماني يوحنا جوتنبرج بعدَّة قرون، وقد سَجَّل الزهراوي فكرته عن الطباعة ونفَّذَها في المقالة الثامنة والعشرين من كتابه الفذِّ (التصريف)؛ ففي الباب الثالث من هذه المقالة، ولأول مرَّة في تاريخ الطب والصيدلة يصف الزهراوي كيفية صنع الحبوب (أقراص الدواء)، وطريقة صنع القالب الذي تُصَبُّ فيه هذه الأقراص أو تُحَضَّر، مع طبع أسمائها عليها في الوقت نفسه باستخدام لوح من الأبنوس أو العاج مشقوق نصفين طولاً، ويحفر في كل وجه قدر غِلَظِ نصف القرص، وينقش على قعر أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه، مطبوعًا بشكل معكوس، فيكون النقش صحيحًا عند خروج الأقراص من قالبها؛ وذلك منعًا للغشِّ في الأدوية، وإخضاعها للرقابة الطبية، وفي ذلك يقول شوقي أبو خليل: «ولا ريب أن ذلك يعطي الزهراوي حقًّا حضاريًّا لكي يكون

(١) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية ص٣٥، وعامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٦٢.

المؤسس والرائد الأول لصناعة الطباعة، وصناعة أقراص الدواء؛ حيث اسم الدواء على كل قرص منها، هاتان الصناعتان اللتان لا غنى عنهما في كل المؤسسات الدوائية العالمية، ومع هذا فقد اغْتُصِبَ هذا الحقُّ وغفل عنه كثيرون»[1].

وكذلك يُعَدُّ الزهراوي أوَّل مَنْ وصف عملية سَلِّ العروق من الساق لعلاج دوالي الساق، والعرق المدني واستخدمها بنجاح، وهي شبيهة جدًّا بالعملية التي نمارسها في الوقت الحاضر، والتي لم تُستخدم إلاَّ منذ حوالي ثلاثين عامًا فقط، بعد إدخال بعض التعديل عليها[2].

وللزهراوي إضافات مهمَّة جدًّا في علم طب الأسنان وجراحة الفكين، وقد أفرد لهذا الاختصاص فصلاً خاصًّا به، شرح فيه كيفية قلع الأسنان بلطف، وأسباب كسور الفك أثناء القلع، وطرق استخراج جذور الأضراس، وطرق تنظيف الأسنان، وعلاج كسور الفكَّيْنِ، والأضراس النابتة في غير مكانها، وبرع في تقويم الأسنان!

فيقول عن قلع الأسنان: «ينبغي أن تعالج الضرس من وجعه بكل حيلة، ويتوانى عن قلعه إذ ليس منه خيف إذا قلع». ثم يشير في حذق إلى أنه: «كثيرًا ما يخدع العليل المرض، ويظن أنه في الضرس الصحيح فيقلعها، ثم لا يذهب الوجع حتى يقلع الضرس المريض». وهكذا يصف الزهراوي ربما لأول مرة في التاريخ الطبي الألم المنتقل وخطره؛ مما يضعه على مستوى عصري حتى اليوم[3].

هذا، وقد كان مرض السرطان وعلاجه من الأمراض التي شغلت الزهراوي، فأعطى لهذا المرض الخبيث وصفًا وعلاجًا بقي يُستعمل خلال العصور حتى

(١) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية ص٣٢، ٣٣.
(٢) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص١٤٢، ١٤٣.
(٣) المصدر السابق، ص٢٠١.

الساعة، ولم يزد أطباء القرن العشرين كثيرًا على ما قدَّمه علامة الجراحة الزهراوي[1].

وإن ما كتبه الزهراوي في التوليد والجراحة النسائية ليُعتبر كنزًا ثمينًا في علم الطب؛ حيث يصف وضعيتي (TRENDELEMBURE - WALCHER) المهمَّتَيْن من الناحية الطبية، إضافة إلى وصف طرق التوليد واختلاطاته، وطرق تدبير الولادات العسيرة، وكيفية إخراج المشيمة الملتصقة، والحمل خارج الرحم، وطرق علاج الإجهاض، وابتكر آلة خاصة لاستخراج الجنين الميت، وسبق د. فالشر بنحو تسعمائة سنة في وصف ومعالجة الولادة الحوضية، وهو أول مَن استعمل آلات خاصة لتوسيع عنق الرحم، وأول من ابتكر آلة خاصة للفحص النسائي لا تزال إلى يومنا هذا[2].

وهذه بعدُ بعض من أهمِّ ابتكارات ومظاهر الريادة الطبية التي يذكرها التاريخ لأبي القاسم الزهراوي، وفي ختامها نتوقَّف أمام نصائحه لتلامذته في التريُّث قبل إجراء الجراحة، وألاَّ يقوموا بها ما لم يكونوا مُلِمِّينَ بصغائر الأمور وكبائرها في التشريح، واستعمال الأدوات الجراحية؛ فيقول الزهراوي في كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف):

«ينبغي لكم أن تعلموا أن العمل باليد (الجراحة) ينقسم قسمين: عمل تصحبه السلامة، وعمل يكون معه العطب في أكثر الحالات.

وقد نَبَّهت في كل مكان يأتي من هذا الكتاب على العمل الذي فيه ضرر وخوف، فينبغي أن ترفضوه وتحذروه؛ لئلاَّ يجد الجاهل إلى القول والطعن، فخذوا

(١) انظر الدفاع: رواد علم الطب ص٢٦٤.
(٢) انظر كمال السامرائي: الأمراض النسائية في الطب العربي القديم، مجلة المهن الطبية العدد١ - ١٩٦٤م، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١٦٣ وما بعدها.

لأنفسكم بالحزم والحيطة، ولمرضاكم بالرفق والتنبيه، واستعملوا الطريق الأفضل المؤدِّي إلى السلامة والعاقبة المحمودة، وتنكبوا الأمراض الخطرة العسرة البراء، ونزِّهُوا أنفسكم عمَّا تخافون أن يُدْخِل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم، فهو أبقى لجاهكم، وأرفع في الدنيا والآخرة لأقداركم»[1].

* * *

(١) نقلاً عن الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٦٧.

ابن البيطار.. عبقرية علمية نادرة

اتَّسم العلماء المسلمون بسمة مميِّزة ألا وهي موسوعيتهم، ففي كل فروع المعرفة صنَّفوا، وقلَّما اقتصر إنتاج العالم منهم على تخصُّص واحد، بل كان يتناول شتى فروع المعرفة في مؤلفاته، وإن كان بعضهم قد ذاع صيته في مجال مُعَيَّن، بجانب ما يُجِيد من المجالات الأخرى، ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين نبغوا في علمي النبات والصيدلة العالم العبقري الفذُّ ابن البيطار، الذي يُعَدُّ رائدًا من رُوَّاد هذين العِلْمَيْن؛ لِمَا قدَّمه من إسهامات عظيمة غيَّرت مجرى البحث فيهما؛ لذلك قال عنه ابن أبي أصيبعة: «هو الحكيم الأجل العالم النباتي... أوحد زمانه، وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره، ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوُّعها»[1].

ابن البيطار:

هو أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي، نسبة إلى مدينة مالقة التي وُلِدَ فيها بالأندلس أواخر القرن السادس الهجري، وكان والده بيطريًّا حاذقًا؛ لذلك لُقِّبَ بابن البيطار - وهو لقب مشتقٌّ من كلمة عربية تعني ابن البيطري- نسبة إلى عمل والده.

وفي صغره أحبَّ قضاء وقته في الغابة المجاورة لقريته، فترسَّخ في نفسه منذ الصغر حبُّ الطبيعة، وازداد تقديره لها، فكانت مراقبة (ابن البيطار) للتنوُّع النباتي والحيواني وراء حُبِّه لعلم النباتات؛ فكانت الغابة بمثابة أول مدرسة له في علم النبات، ثم تتلمذ ابن البيطار بعد ذلك على يد عالم إشبيلية أبي العباس أحمد بن محمد ابن فرج النباتي صاحب الشهرة العظيمة في علم النبات، إلاَّ أن ابن البيطار فاق

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٣٩٧.

أستاذه، بل امتاز في أبحاثه العلمية والتجريبية والتطبيقية على باقي عشَّابي زمانه[1].

صفاته ومناقبه:

جمع ابن البيطار بين عبقرية علمية فذَّة، وأخلاق فريدة رائعة قلَّما تُوجَدُ في غيره، وهذا ما شهد به كل من خالطه وعايشه؛ ومنهم ابن أبي أصيبعة الذي قال: «ورأيتُ من حُسْنِ عشرته، وكمال مروءته، وطيب أعراقه، وجودة أخلاقه ودرايته، وكرم نفسه، ما يفوق الوصف ويُتعجب منه»[2].

رحلاته العلمية:

كانت نفس ابن البيطار توَّاقة للعلم دائمًا، فرحل في بداية العشرين من عمره لطلبه، متحمِّلاً المشاقَّ في سبيل ذلك؛ حيث جاب بلاد اليونان والروم والمغرب، ومرَّاكش والجزائر وتونس، ثم تابع جولاته متنقِّلاً إلى آسيا الصغرى مارًّا بأنطاكية، ومنها إلى سوريا، ثم إلى الحجاز وغزَّة والقدس وبيروت ومصر، وقد اجتمع مع علماء تلك البلاد فتدارس معهم أنواع النبات، وخواصَّه وفوائده، ولم يكتفِ بقراءة الكتب والمصنَّفات، فكان يدرس النبات في منابته، بل ويدرس الأرض التي تُنْبِته، وعن ذلك يقول ابن أبي أصيبعة: «شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيرًا من النبات في مواضعه»[3].

ثم استقرَّ ابن البيطار في مصر في عهد الملك الكامل؛ حيث عيَّنه رئيسًا للعشَّابين، واعتمد عليه الكامل في الأدوية المفردة والنبات، وبعد وفاته خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكان حظيًّا عنده مُتَقَدِّمًا في أيامه[4].

---

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٣٩٧.
(٢) السابق نفسه.
(٣) السابق نفسه.
(٤) السابق ص٥٠١.

إبداع ابن البيطار العلمي:

لم يُبْدِعِ ابن البيطار من لا شيء، بل اعتمد على مَنْ سبقه من علماء النبات والصيدلة وقرأ كتبهم، وفنَّد آراءهم بِنَاءً على تجارِبَ ومشاهداتٍ قام بها بنفسه، وهذا ما يؤكِّده ابن أبي أصيبعة الذي عايش ابن البيطار في ترحاله؛ حيث قال: «قرأتُ عليه تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس، فكنتُ أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئًا كثيرًا جدًّا، وكنتُ أُحْضِر لدينا عدَّة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي، وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفنِّ...»[1]. هكذا نجد ابن البيطار قد نوَّع في مصادر عِلْمِه؛ حيث اطَّلع على كل ما تُرْجِمَ من كتب اليونانيين وعلوم الأوائل من غير العرب، وقد ساعده على ذلك معرفته بعدد من اللغات كالفارسية واليونانية.



نباتات طبية استعملها المسلمون

ولم يكتفِ ابن البيطار بذلك، بل واطَّلع على كل ما كتبه علماء المسلمين في هذا المجال؛ فدرس ما كتبه ابن سينا والإدريسي وابن العباس النباتي دراسة مستفيضة حتى أتقنها تمامًا، وشرح النقاط الغامضة فيها، ورغم إفادته من مؤلَّفات السابقين، إلاَّ أنها كانت موضع تصحيحاته، ونقده في كثير من الأحيان.

---

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٣٩٧.

وهذا ما دعا (راملاندو) في كتابه: (إسهام علماء العرب في الحضارة الأوربية) إلى القول بأن: «إسهام ابن البيطار في مجال علم النبات يفوق إنتاج السابقين من ديسقوريدس إلى القرن العاشر الهجري». كما يذكر (الدوميلي) في كتابه: (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) أن ابن البيطار «كان مشهورًا بأنه أعظم النباتيين والصيدليين في الإسلام، مع العلم أن مؤلَّفاته تعتمد على كتب السابقين له، فقد سجَّلت في جملتها تقدُّمًا بعيد المدى».

وقبل الحديث عن مؤلَّفات ابن البيطار الرائدة يجب أن نُلْقِيَ نظرة شاملة على تطوُّر علم الطبِّ وعَلاقته بالصيدلة خاصَّة في القرنين السادس والسابع الهجريين؛ لأن لذلك التطوُّر أثره على إبداعات ابن البيطار فالإنسان صناعة عصره؛ حيث شهد هذان القرنان بناء العديد من المستشفيات، وظهور الاكتشافات الطبِّيَّة الجديدة؛ مثل اكتشاف الدورة الدموية لابن النفيس، كما ظهرت - أيضًا - الصلة الوثيقة بين الصيدلة والطبِّ؛ حيث كان الطبيب يُعِدُّ أدويته بنفسه كما نجد ذلك عند ابن سينا، الذي خصَّص بعض أجزاء من كتابه (القانون) لدراسة الأدوية والعقاقير المهمَّة، التي يَعْتَمِد عليها في علاجه، في هذا الجوِّ العلمي الرائع ظهرت مؤلَّفات ابن البيطار الرائدة في علم النبات والصيدلة؛ منها كتابه: (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) الذي أَلَّفه بعد دراسات عملية، قائمة على التجربة والمشاهدة كأساس لدراسة النبات والأعشاب والأدوية، وقد شرح -في مقدِّمة كتابه- المنهجَ الذي اتَّبعه في أبحاثه قائلاً: ما صحَّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لديَّ بالمخبر لا بالخبر أخذتُ به، وما كان مخالفًا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسِّيَّة والماهيَّة للصواب نبذْتُهُ ولم أعمل به[1].

وقد بيَّن ابن البيطار في كتابه (الجامع في الأدوية المفردة) أغراضَه من تأليف هذا

(١) انظر: ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١.

الكتاب، ومنها يتجلَّى أسلوبُهُ في البحث، وأمانته العلميَّة عند النقل، واستناده على التجربة كمعيار لصحَّة الأحكام، ثم بيَّن غرضه من تأليف هذا الكتاب فقال: «استيعاب القول في الأدوية المفردة، والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج إليها في ليل كان أو نهار، مضافًا إلى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار، واستوعبت فيه جميع ما في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدوس بنصِّه، وكذا فعلت أيضًا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الستِّ مقالات من مفرداته بنصِّه، ثم ألحقتُ بقولهما من أقوال المُحْدَثِين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه، ووصفت فيها عن ثقات المُحْدَثِين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه، وأسندتُ في جميع ذلك الأقوالَ إلى قائلها، وعَرَّفْتُ طُرُقَ النقل فيها بذكر ناقلها، واختصصتُ بما تمَّ لي به الاستبداد، وصحَّ لي القول فيه، ووضح عندي عليه الاعتماد»[1].

كما رتَّب ابن البيطار مفردات كتابه ترتيبًا أبجديًّا، مع ذكر أسمائها باللغات المتداوَلَة في موطنها، ويقول (جورج سارتون) عن هذا الكتاب: «وقد رتَّب ابن البيطار مؤلَّفَه (الجامع في الأدوية المفردة) ترتيبًا يستند على الحروف الأبجديَّة؛ لِيَسْهُلَ تناوله، وقد سرد أسماء الأدوية لسائر اللغات المختلفة، واعتمد علماء أوربا على هذا المؤلَّف حتى عصر النهضة الأوربية»[2].

كما دوَّن ابن البيطار أيضًا الأماكن التي يَنْبُتُ فيها الدواء، ومنافعه وتجاربه الشهيرة، وكان يُقَيِّد ما كان يجب تقييده منها بالضبط والشكل والنقط تقييدًا يضبط نُطْقَهَا؛ حتى لا يقع الخطأ أو التحريف عند الذين ينسخون أو يطَّلعون عليه؛ وذلك لأهمِّيَّة الدواء وتأثير الخطأ على حياة الناس.

---

(١) انظر: ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية١/ ١.

(٢) موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، انظر الرابط: http://www.nooran.org.

كما أنه دوَّن فيه كل الشروح والملاحظات المتعلِّقَة بتخزين النباتات وحفظها، وتأثير ذلك على الموادِّ الفعَّالة والمكوِّنات الغذائيَّة الموجودة فيها.



نباتات طبية استعملها المسلمون

وقد احتوى كتاب ابن البيطار على شروح مفصَّلة لعدد كبير من الأدوية؛ بلغ ١٤٠٠ دواء بين نباتي وحيواني ومعدني، ومنها ٣٠٠ دواء جديد من ابتكاره الخاصِّ، معتمِدًا على مؤلَّفاتٍ أكثر من مائة وخمسين كتابًا؛ بينها عشرون كتابًا يونانيًّا، وقد بيَّن الخواصَّ والفوائد الطبِّيَّة لجميع هذه العقاقير، وكيفية استعمالاتها كأدوية أو كأغذية.

وقد تُرْجِمَ (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) إلى عدَّة لغات، وكان يُدَرَّس في معظم الجامعات الأوربية حتى عهود متأخِّرة، وطُبِعَ بِعِدَّة لغات وبِعِدَّة طبعات، وباللغة العربية طُبع عام (١٨٧٤م) بمصر في أربعة أجزاء، ونشرته دار صادر في بيروت عام (١٩٨٠م) في مجلَّدين، ويوجد العديد من المخطوطات لهذا الكتاب مُوَزَّعة في عدد من مكتبات العالم ومتاحفه.

وهناك كتاب آخر يُعَدُّ من إبداعات ابن البيطار العلمية، ألا وهو كتابه: (المغني في الأدوية المفردة)، الذي قسمه إلى عشرين فصلاً؛ يحتوي على بحث الأدوية التي لا

يستطيع الطبيب الاستغناء عنها، ورتَّبت فيه الأدوية التي تُعَالِجُ كل عضو من أعضاء الجسد ترتيبًا مبسَّطًا، وبطريقة مختصرة ومفيدة للأطباء ولطلاب الطبِّ.

وقد اتَّسم أسلوب ابن البيطار العلمي بالنزعة النقدية، مع التزامه الكامل بالموضوعية والنزاهة العلمية، ويتَّضح ذلك من خلال مناقشته لآراء السابقين عليه من العلماء والأطباء والعشَّابين، فلقد نقدهم في عدَّة أمور، وكان نقده بَنَّاءً؛ فهو يرفض الآراء التي يَثْبُتُ أن ناقلها قد انحرف عن سواء السبيل ومنهج العلماء السليم، أو لأنها لم تَثْبُتُ أمام مقاييسه العلمية التي يعتمد عليها، وهو لا يكتفي برفضها، بل إنه يتجاوز الرفض إلى توجيه النقد الشديد إلى الناقل أو القائل؛ لأنه افترى على الحقِّ.

وأكبر دليل على نزعته النقدية كتابه: (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام)، الذي نقد فيه كتاب (منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان)، وهو الكتاب الذي جمع فيه ابن جزلة (ت٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) الأدوية والأغذية والأشربة؛ حيث نبَّه ابن البيطار على أخطائه، وما غلط فيه من أسماء الأدوية؛ حيث يقول في مُقَدِّمَتِه: «أمَّا بعد فإنه ما أشار عليَّ - مَنْ خَلُصَتْ بإرادة الخير لي نِيَّتُه، وندبني إلى ما رجوت- أن أتعرض لبعض الكتب الموضوعة في الحشائش والأدوية المفردة، فأستطلع بسائط أدويته، وأتعقب ما جرى فيها من التباس أو غلط، وأُعْلِمُ بما وقع فيه من الأوهام في الأسماء والمنافع، فوضعتُ في ذلك مقالة تشتمل معناها على وفاء المقصود، معتمِدًا على يقين صحيح، أو تجربة مشهودة، أو علم متحقّق»[1].

وله أيضًا في ذلك كتاب: (شرح أدوية كتاب ديسقوريدس)، وهو عبارة عن قاموس بالعربية والسريانية واليونانية والبربرية، وبه شرح للأدوية النباتية

(١) ابن البيطار: الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام (مخطوط مكتبة الحرم المكي رقم ٣٦/ ١طب ـ ف١٥) ورقة ٢ب.

والحيوانية، وله أيضًا (الأفعال الغريبة والخواص العجيبة).

آراء علماء الغرب فيه:

لقد شهد العديد من علماء الغرب بعبقرية ابن البيطار العلمية؛ حيث تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «إن ابن البيطار من أعظم عباقرة العرب في علم النبات؛ فقد حوى كتابه: (الجامع) كل علوم عصره، وكان تحفة رائعة تنمُّ عن عقل علمي حيٍّ؛ إذ لم يكتفِ بتمحيص ودَرْس وتدقيق ١٥٠ مرجعًا من سالفيه -الذين اعتمد عليهم في بحوثه- بل انطلق يجوب العالم بحثًا عن النباتات الطبية؛ فيراها بنفسه ويتيقَّن منها، ويُجْرِي تجارِبه عليها، إلى أن وصل به الأمر ليبتكر ٣٠٠ دواءٍ جديدٍ من أصل ١٤٠٠ دواء التي تضمَّنها كتابه، مع ذكر أسمائها، وطرق استعمالها، وما قد ينوب عنها؛ كل هذا عبارة عن شواهد تُعَرِّفُنا تمامًا كيف كان يعمل رأس هذا الرجل العبقري»[١].

كما يصفه المستشرق ماكس مايرهوف فيقول: «إنه أعظم كاتب عربي خُلِّد في علم النبات»[٢]. ويعترف جورج سارتون بقيمة كتابه (الجامع في الأدوية المفردة) قائلاً: «إنه خير ما أُلِّف في هذا الموضوع في القرون الوسطى، بل إنه لأضخم نتاج من نوعه منذ ديسقوريدس حتى منتصف القرن السادس عشر»[٣].

وفاته: وقد توفِّي ابن البيطار - رحمه الله- بدمشق سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، ولكن ما زالت آثاره باقية حتى الآن، شاهدة على عبقريته العلمية النادرة.

* * *

---

(١) انظر: زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٢٢، ٣٢٣.
(٢) موقع باب، الرابط: http://www.bab.com/articles/full_article.cfm?id=7173
(٣) السابق نفسه.

ابن أبي أصيبعة.. الطبيب المؤرخ

عجيب جدًّا أن نتحدَّث عن طبيب مشهور هو في الوقت ذاته مؤرخ عبقري لتاريخ الطب والأطباء في الحضارة الإسلامية، والطب والأطباء قبل الإسلام!

وذاك هو موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة الحكيم الخزرجي، والذي يكنى بأبي العباس، ويلقب بابن أبي أصيبعة، وقد اكتسب هذا اللقب عن جده الحكيم الذي كان يعمل في بلاط الناصر صلاح الدين، وقد وُلِدَ في دمشق نحو سنة (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)، وتوفي في جبل صرخد إحدى مدن جبل حوران سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)[١].

وقد كان لأسرة ابن أبي أصيبعة دور كبير في نشأته؛ حيث اشتهرت بالعلم والأدب، وكان لها صِلاتها الجيدة بالملوك في الشام ومصر، فتوافرت له أسباب التحصيل، فدرس الأدب والحكمة والعلوم على مشاهير عصره من العلماء في كل من دمشق والقاهرة، وتلقَّى الطب عن والده الذي كان طبيبًا يعالج الرمد في دمشق، وعلى يد عمِّه الذي كان عالمًا في العلوم الطبية، كما تتلمذ أيضًا على يد الطبيب الدمشقي المشهور بابن الدخوار (ت٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)، وأخذ علم النبات والعقاقير من ابن البيطار (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، وقد أتـمَّ العلم في المارستان الناصري في القاهرة، والذي التقى فيه بزميله علاء الدين أبي الحسن بن النفيس (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، ثم انتظم في خدمة الدولة الأيوبية، وكانت شهرته قد وصلت إلى صرخد[٢].

---

(١) انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ١٩٧، وكحالة: معجم المؤلفين ٢/ ٤٧، وإليان سركيس: معجم المطبوعات العربية ١/ ٢٧.

(٢) صرخد: من أعمال جبل الدروز في سوريا، وهي بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٤٠١.

فأرسل حاكمها في طلبه، فرحل إليه وظلَّ بها إلى أن توفي[١].

ولأنه كان عالمًا بالأدب والطب والتاريخ[٢]، ولأنه أحب أن يجمع بين الممارسة الطبية والتأليف، جاء مؤلفه ذائع الصيت (**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**)، **الكتاب الذي خلَّد ذِكْر ابن أبي أصيبعة.**

كان ابن أبي أصيبعة من العلماء الذين يعتقدون بأن النظرية والتجربة بالنسبة للطبيب تمثِّلان قطبي المعرفة الحقيقية، فبذل جهده في هذا الاتجاه، واستطاع وبكل جدارة أن يحصر أعمال ومؤلفات الأطباء الأفذاذ الأوائل والمعاصرين له في كتابه المذكور سابقًا: (**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**)، فذكر فيه نُكَتًا وعيونًا في مراتب المتميزين من الأطباء المتقدِّمين والمُحْدَثين، وأودعه - أيضًا - نُبَذًا من أقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم، وذكر شيئًا من أسماء كتبهم؛ حتى غدا المصدر الفريد من نوعه لتاريخ الطب في القديم والحديث، وللمعلومات الضرورية لعمالقة الحضارة الإسلامية في العلوم الطبية، ولم يَعُدْ بمقدور أي باحث في تاريخ الطب في جميع أرجاء العالم أن يستغني عن هذا الصرح العظيم[٣].

وقد ألَّف ابن أبي أصيبعة هذا الكتاب بناء على طلب الوزير أبي الحسن أمين الدولة بن غزال السامري وزير الملك الصالح بن الملك العادل، وبدأ في تأليفه سنة (٦٤٣هـ)، وانتهى منه قبل وفاته بسنة واحدة، ويمتاز هذا الكتاب باعتماد ابن أبي أصيبعة في جمع مادَّته على المعلومات التي حصل عليها من إنتاج الأطباء والمؤرخين

---

(١) إليان سركيس: معجم المطبوعات العربية ١/ ٢٧، وعلي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٣٥، ومحمود الحاج قاسم محمد: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٨٧.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/ ٣٢٧.

(٣) إليان سركيس: معجم المطبوعات العربية ١/ ٢٧، والدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٣٥.

الأوائل، بالإضافة إلى ما سمعه واكتسبه بنفسه، ومن الأمور التي جعلت كتاب ابن أبي أصيبعة يمتاز عن غيره من المؤلفات وجعلته منبرًا لعلم الطب حتى اليوم هو قيام المؤلف بتحرِّي الدقَّة في ذِكْر كلٍّ من سيرة الطبيب وأعماله العلمية، وأهم إنجازاته في مجال العلوم الطبية، بالإضافة إلى ذلك اهتمَّ ابن أبي أصيبعة بعرض معلومات رائعة عن الحياة الاجتماعية والعلمية في عصره بأسلوب سلس دقيق[1].

وقد تناول ابن أبي أصيبعة في هذا الكتاب مكانة الطب بين العلوم والصناعات المختلفة، ثم تحدَّث عن كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها، ثم تكلَّم عن طبقات الأطباء الأوائل الذين كانت لهم مؤلفات في صناعة الطب، وتحدَّث عن الأطباء اليونانيين، ثم استوفى الحديث عن الأطباء في الديار الإسلامية، ورتَّبهم بحسب أقاليم الدولة الإسلامية المشرقية منها والمغربية[2].

وقال ابن أبي أصيبعة في الكتاب:

«إنه لما كان قد ورد كثير من المشتغلين بالعلوم الطبية والراغبين في مباحث أصولها وتطلبها، منذ أول ظهورها وإلى وقتنا هذا، وكان فيهم جماعة من أكابر هذه الصناعة، وأُولي النظر فيها والبراعة، وممن قد تواترت الأخبار بفضلهم، ونقلت الآثار بعلوِّ قدرهم ونبلهم، شهدت لهم بذلك مصنفاتهم، ودَلَّت عليهم مؤلفاتهم، ولم أجد لأحد من أربابها ولا من أنعم الاعتناء بها كتابًا جامعًا في معرفة طبقات الأطباء، وفي ذكر أحوالهم على الولاء - رأيت أن أذكر في كتابي (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) نكتًا وعيونًا في مراتب المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين، ومعرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم وأوقاتهم، وأن أُودِعَه - أيضًا - نبذًا من أقوالهم

(١) الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٣٦.
(٢) انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٢/ ١١٨٥.

وحكاياتهم، ونوادرهم ومحاوراتهم، وذِكْر شيء من أسماء كتبهم؛ ليُسْتَدَلَّ بذلك على ما خصَّهم الله تعالى به من العلم، وحباهم به من جودة القريحة والفهم، فإن كثيرًا منهم وإن قَدُمَت أزمانهم، وتفاوتت أوقاتهم، فإن لهم علينا من النعم فيما صنعوه، والمنن فيما جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ووضعوه، ما هو فضل المعلم على تلميذه، والمحسن إلى من أحسن إليه.

وقد أودعت هذا الكتاب - أيضًا - ذِكْر جماعة من الحكماء والفلاسفة، ممن لهم نظر وعناية بصناعة الطب، وجملاً من أحوالهم ونوادرهم وأسماء كتبهم، وجعلتُ ذِكْر كل واحد منهم في الموضع الأليق به على حساب طبقاتهم ومراتبهم..»[(١)].

وعن مكانة هذا الكتاب يقول ألدو ميلي: «إن كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، يُزَوِّدنا بأهمِّ المعلومات عن تاريخ الأطباء»[(٢)].

ويقول الدكتور عامر النجار محقق الكتاب:

«ولعل أهمية كتاب (عيون الأنباء) ترجع إلى أن صاحبه حفظ لنا الكثير من النصوص، ونقل عن أعلام المؤلفين في الطب، فنقل عن ابن المطران في (بستان الأطباء) و(مختصر كتاب الأدواء للكلدانيين)، ونقل كثيرًا عن (أبو الوفا المبشر بن فاتك) في كتابه (مختار الحكم ومحاسن الكلم)، و(الشيخ أبو سليمان المنطقي) في (تعاليقه) أو (صوان الحكمة)، وعن عبد الملك بن زهر في (التيسير)، وعن ابن ملكا العبري في (المعتبر)، و(أبو معشر البلخي) في (الألوف)، ونقل كثيرًا عن حنين بن إسحاق في (نوادر الفلاسفة والحكماء)، وابن جلجل في (طبقات الأطباء)»[(٣)].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ١٥١.
(٢) ألدو ميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ص٣٣٠.
(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ١٠.

هذا، وقد ورد في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) أنه قام بتأليف عدد من الكتب لم يُعثر عليها حتى اليوم، وهي: كتاب (إصابات المنجمين) [1]، وكتاب (حكايات الأطباء في علاجات الأدواء) [2]، وكتاب (التجارب والفوائد) [3].

وبهذا الولع العظيم بالتاريخ والتعمُّق التامِّ في الطب، مزج ابن أبي أصيبعة بين العلم والتاريخ، فأخرج كتابات رائعة عن الطب والأطباء، وحفظ الأمجاد التاريخية والحضارية للأمة الإسلامية.

* * *

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٣١٧.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٣.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٥٦.

ابن الكحال.. مؤسس طب العيون

انفصل طب العيون عن الطب منذ عهد القدماء المصريين، ويُعتبر طبيب العيون من الأطباء المحترمين في المجتمع العربي والإسلامي، وكان العرب يُسَمُّون هذه المهنة (صناعة الكحل)[1].

هو طبيب نابغة فريد، ظلَّ كتابه في طب العيون المرجع الذي لا يرقى إليه كتاب آخر حتى بعد أن توفي بأكثر من سبعة قرون، وهذا ليس كلامنا بل هو شهادة المستشرق الألماني المعروف هيرشبرغ.

إنه ابن الكحال وهو علي بن عيسى البغدادي الكحال (ت٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩م)، ويُلَقَّب بشرف الدين، وهو من أطباء القرن الرابع الهجري، كان يُعرف في الغرب الأوربي باسم (جيزوهالي Jesyhaly)[2].

اهتم بدراسة طب العيون منذ نعومة أظافره، فنبغ فيه وصار من رموز هذا المجال، حتى أصبح متخصِّصًا في الردِّ على ما كتبه اليونانيون ومن عاصروه من أطباء العرب والمسلمين، وكانت آراؤه يُقْتَدَى بها في علاج أمراض العيون[3].

وعنه يقول الصفدي: «كان مشهورًا بالحذق في صناعة الكحل، وبكلامه يُقْتَدَى في أمراض العين ومداواتها»[4].

ويشهد ويل ديورانت – صاحب موسوعة قصة الحضارة – أن «علي بن عيسى

(١) الزركلي: الأعلام ٤/٣١٨.
(٢) ماكس ميرهوف: تراث الإسلام ص ٤٧٦.
(٣) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٥٤.
(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/٢٤٦.

أعظم أطباء العيون المسلمين، وقد ظلَّ كتابه تذكرة الكحالين يدرس في أوربا حتى القرن الثامن عشر»[1].

مؤلفاته:

وضع علي بن عيسى عددًا من المؤلفات في طب العيون تُعتبر حتى الآن مصدرًا يرجع إليه الكثيرون، وأشهر مؤلفاته على الإطلاق كتاب (تذكرة الكحالين) والذي يحتوي على ثلاث مقالات تدور جميعها حول طب العيون.

يقول جمال الدين القفطي في كتابه (تاريخ الحكماء): «إن كتاب تذكرة الكحالين لعلي بن عيسى البغدادي الكحال كان من المصادر الهامة في طب العيون؛ لذا بقي أمدًا طويلاً جدًّا كتابًا معتمدًا في يد أطباء العيون، ويعتبر كتاب (تذكرة الكحالين) أحسن وأكمل كتاب أُلِّف في طب العيون حتى القرن الثالث عشر الهجري، والحقيقة الواضحة أنه وثيقة تاريخية بجميع ما قَدَّمه الأوائل في هذا الميدان، إضافة إلى إضافاته الكثيرة وأفكاره الجديدة والأصلية التي بلورها في هذا المصنف القيم»[2].

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى النظرية التي فسر بها عملية الإبصار فقد كان عيسى الكحال أول من ذكر «أن الروح الباصر يخرج من العين ليقيس المنظورات، ثم يعود إلى العين ويدخلها ليطبع صورها على الدماغ». وهو ما صَحَّحه فيما بَعْدُ عملاق طب العيون العربي الحسن بن الهيثم؛ فأثبت حقيقة فسلجة الرؤية بقوله: «إنها بوقوع صور المرئيات على الجهاز البصري في العين، أي ليس هناك روح باصر يشارك في عملية الإبصار كما كان يعتقد علي بن عيسى الكحال».

(١) ويل ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٥٢.

(٢) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص ٢٥٤، ٢٥٥.

ونظرًا لأهمية الكتاب فقد ظلَّ يعتمد عليه طلاب طب العيون؛ لِمَا يحتوي عليه من معارف رائعة، ويقول المؤلِّف في مقدمته: «بيّنت فيه جميع ما يحتاج إليه في علاج أمراض العين؛ وذلك أنه قد تدعو الضرورة في بعض الأوقات إلى النظر في الكتب في علاج مرض من الأمراض ليستغني به عن النظر في الكتب الكبار، ويصلح أيضًا للأسفار، ويُغني عن حمل الكتب الكثيرة، وقد ذكرتُ فيه جميع الطرق الطبية المحتاج إليها في علاج أمراض العين، مع ذكر الدلائل والأسباب والمداواة لجميع أمراضها المتشابهة الأجزاء منها والآلية، وما يكون فيها من تفوُّق الاتصال»[١].

وقسم الكحال كتاب تذكرة الكحالين كالآتي:

المقالة الأولى: وهي في تشريح طبقات العين، وفي الأعصاب، والعضلات، والأربطة، والرطوبات التي فيها، وكيفية حدوث البصر بها.

المقالة الثانية: وتتحدث عن أمراض الجفن كالجرب والتحُّجر، والحكَّة، وفي استرخاء الجفن وانقلابها، والقروح والدمعة واللحم الزائد عليها، وبثور القرنية ودبيلاتها وسرطاناتها وتغير لونها، وأمراض الحدقة وضيقها وانخراقها.

المقالة الثالثة: وتبحث عن الأمراض الخفية عن الحسِّ وأسبابها وعلاجها، وأمراض الروح الباصر، ومَنْ يرى من بعيد ولا يرى من قريب، ويبحث فيمن يُبصر نهارًا ولا يُبصر ليلاً، وكذلك أمراض الطبقة الشبكية وأمراض العصب النوري، وهزال العين، وأمراض الطبقة المشيمية والعضل المحرِّك للعين، كما تبحث في صحة العين وقوى الأدوية المفردة المستعملة فيها[٢].

---

(١)علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٥٥.
(٢) السابق نفسه ص٢٥٥، ٢٥٦.

شهادات للكتاب:

يقول ابن أبي أصيبعة في الكتاب: «هو الذي لا بُدَّ لكل مَن يعاني صناعة الكحل أن يحفظه، وقد اقتصر الناس عليه دون غيره من سائر الكتب التي قد أُلفت في هذا الفنِّ وصار ذلك مستمرًّا عندهم»[١].

ويقول (جورج سارتون) الملقب بـ (مؤرخ العلم): «إنه أقدم مؤلف في العين في اللغة العربية، نجد منه نسخًا كاملة إذا استثنينا (العشر مقالات في العين) لحنين ابن إسحاق»[٢].

كما يشهد (هيرشبرغ) للكتاب بأنه «من أصحِّ وأدقِّ الكتب التي وصلتنا في هذا الفنِّ... وقد وصل إلينا على ما كان عليه في اللسان العربي... إننا لا نجد في أوربا قبل بداية القرن الثامن عشر الميلادي كتابًا يرقى إلى مستوى هذا الكتاب»[٣].

ولا شكَّ أن أهمية الكتاب أدَّت إلى ترجمته إلى عدد من اللغات؛ كان أقدمها ترجمته إلى اللغة اللاتينية في مطالع القرون الوسطى، كما تُرجم إلى الفارسية بقلم شمس الدين بن علي الجرجاني، وهي ترجمة خطية محفوظة في مكتبة سالارجنك بحيدر آباد، كما تُرجم الكتاب إلى التركية، وفي عام ١٩٠٤م ترجمه إلى الألمانية المستشرقان (هيرشبرغ وليبرت) ونشراه مع مقدمة رائعة ودراسة مستفيضة لما جاء فيه من معطيات وإبداعات جديدة مقارنة مع معطيات أطباء اليونان التي تجاوزها علي بن عيسى في التذكرة[٤].

ثم ترجمه (كيسي وود C Wood) إلى الإنجليزية[٥]، كما ترجم مايرهوف بعض

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢٦٣.
(٢) مجلة التراث العربي – دمشق- العدد ٨٩ مارس ٢٠٠٣ - محرم ١٤٢٤.
(٣) السابق نفسه.
(٤) السابق نفسه.
(٥) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص ٢٥٧.

فصوله وألحقها بكتابه عن (التراكوما).

وكانت أقدم طبعة للتذكرة في البندقية عام (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)، ثم تبعتها طبعة عام (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، ثم طبعة عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م)[1].

إنجازاته العلمية:

لقد كانت أهمُّ إنجازات الكحال أنه أنشأ منهجًا جديدًا في البحث العلمي وفي تأليف كتبه وبخاصة (تذكرة الكحالين)، الذي وضع له قواعد علمية دقيقة منطقية تميَّزت عن قواعد التأليف التقليدية التي كان يتبعها من سبقه من الأطباء كحنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) وبخاصة في كتابيه (المقالات العشر في العين) و(المسائل في العين).

أيضًا ظهرت إبداعات الكحال في وصف (التهاب الشريان الصدغي والقحفي) والعلاقة بين هذين الالتهابين واضطراب الرؤية في مرض الشقيقة، فلقد سبق الكحال (جونثان هجتنسن ١٩٨٠م) بما يزيد على ثمانية قرون، كما ذكر (د. هاملتون وزملاؤه)، ولاحظ في (تذكرته) وبيَّن العلاقة بين الشرايين الملتهبة وأعراض الرؤية، وذلك أثناء بحثه عن سِلِّ الشرايين وكيّها.

وما يُؤَكِّد قول (د. هاملتون وزملائه) ما جاء في (الباب الخامس والعشرين من المقالة الثانية من التذكرة) تحت عنوان (في سلِّ شرايين الصدغين وكيها)؛ إذ قال علي ابن عيسى: «قد تعالج أوجاع الشقيقة والصداع، والذين تعرض لهم نزلات مزمنة في الأعين، أو نزلات الأصداغ، حتى ربما خيف على البصر من التلف».

ثم تابع يقول في وصف عملية سلِّ الشريان: «فينبغي حينئذ أن تأمره بحلق الرأس، وتفتِّش عن الشريانات بالأصابع بعد تسخين الموضع بالدلك وبالكماد بالماء

---

(١) مجلة التراث العربي – دمشق – العدد (٨٩) – محرم ١٤٢٤هـ – مارس ٢٠٠٣م.

الحارِّ، ويكون ذلك بعد شدِّ الرقبة والخنق الرقيق، حتى إذا ظهر الشريان علَّمت عليه بالمداد، ثم تجذب الجلد إليك بالأصبعين من اليد اليسرى، ثم تشقُّه بالمقراض شقًّا معتدلاً، ويكون الشقُّ في الجلد وحده، ثم تمدّ العرق إليك بصنارة حتى يخلص من جميع جهاته وتكويه، فإن كان الشريان دقيقًا فأدخل تحته مبضعًا وابتره»[1].

وبهذه الدقَّة والرُّوح العلمية صار عيسى الكحال رمزًا لهذا العِلْم، كما كانت مؤلفاته مصدرًا لا يستغني عنه الباحثون في هذا المجال.

* * *

(١) د. هاملتون وآخرون: بحث عن (التهاب الشريان في الخلايا العملاقة مع التهاب الشريان الصدغي) في (مجلة الطب الأمريكية، العدد الأول سنة ١٩٧١م.

يوحنا بن ماسويه.. الطبيب النابغة

وقبل أن يكون هذا الطبيب نابغة في نفسه يستحق الذكر والإشادة، فإنه كان دليلاً وشهادة للحضارة الإسلامية التي استوعبت في جنباتها طاقات كل الأطياف التي كانت تحت ظلِّها، فلم تُفَرِّق بين مسلم وغير مسلم، ولم يعرف تاريخها أن جنسًا يعلو على جنس، فالعرب والفرس والروم والكرد والترك، والأسود والأصفر، كلهم لا فضل لأحد فيهم على أحد، لا عند الله ولا عند الناس إلاَّ بالعمل الصالح.

وهو ليس دليلاً على هذا فقط، بل إن ارتفاعه في المنزلة ليصير الطبيب الخاصَّ لخلفاء بني العباس وفي عهد قوتهم وأوج سلطانهم لدليل على أن المناصب في الدولة الإسلامية تؤخذ بالكفاءة وحدها، وهي معروضة لكل من نبغ فاستحقَّها.

فطبيبنا هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه كان فاضلاً مُقَدَّمًا عند الملوك عالمًا مصنِّفًا[1]، وكان نصرانيًّا سريانيًّا، ومن كبار أطباء مدينتي جنديسابور وبغداد، عاش فيما بين عامي (١٩٠-٢٤٣هـ)، وتوفي في مدينة سامراء، واشتهر بالذكاء، تتلمذت على يده أعداد كبيرة من أطباء عصره، وكانت له خبرة جيدة في ترجمة الكتب القيمة[2].

بدأت مهمته في الدولة الإسلامية منذ ولاَّه هارون الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدها بأنقرة وعمورية، وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون، ووضعه أمينًا على الترجمة، وكان يوحنا صاحب النصيحة لبناء دار كبيرة للكتب، فقام الرشيد ببناء دارٍ اتسعت فيما بعدُ حتى صارت أكاديمية للعلوم (بيت الحكمة)

(١) ابن النديم: الفهرست ١/ ٤١١.

(٢) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص ١٧٢.

في عصر المأمون، وأسند المأمون رئاستها إلى يوحنا عام (٢١٥هـ/ ٨٣٠م)[1].

وخدم يوحنا الرشيد والأمين والمأمون، ومَن بعدهم من الخلفاء إلى أيام المتوكل، وكان ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئًا من أطعمتهم إلاَّ في وجوده، «فكان يقف على رءوسهم ومعه البراني[2] بالجوارشنات[3] الهاضمة المسخِّنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء، وفي الصيف بالأشربة الباردة الطابخة المقوية والمعاجين، وكان معظَّمًا ببغداد جليلَ المقدار»[4].

يقول كمال السامرائي[5]: «يوحنا بن ماسويه أشهر واحد من أسرة ماسويه، وهو الذي خلَّد اسمها لأعماله الجليلة في صناعة الطب، فهو من مشاهير أطباء بغداد وسامراء في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، ومن أكثرهم حظوة من خلفائها المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل... تعلَّم اللغة السريانية والعربية، فلم يجد صعوبة في دراسة العلوم الطبية المكتوبة بهاتين اللغتين. تزوَّج ابنة عبد الله الطيفوري الطبيب، واستمرَّ يصعد في المراتب الاجتماعية والحكومية حتى وصل إلى بلاط الخليفة المأمون»[6].

إنجازاته الطبية:

قَدَّم يوحنا بن ماسويه الكثير من الإنجازات الطبية، وبالتحديد في علم التشريح؛ حيث كان يقوم بتشريح القردة ثم يُطَبِّق ما تَوَصَّل إليه على الإنسان، ونجح في هذا المجال نجاحًا عظيمًا، ولهذا كانت معلوماته في هذا المجال تفوق جالينوس.

---

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص ١٧٢.

(٢) البراني جمع البرانية: وهي الإناء من الخزف. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (برن) ١٣/ ٤٩.

(٣) جَوارِشْنَ: هو نوع من الأدوية المركبة، يقوِّي المعدة، ويهضم الطعام، وليست اللفظة بعربية، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (جرشن) ١٣/ ٨٨.

(٤) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١/ ١٦٣.

(٥) مؤلف كتاب مختصر تاريخ الطب العربي.

(٦) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص ١٧٣.

يقول أحمد شوكت الشطي[1]: «وتؤكِّد المصادر أن يوحنا بن ماسويه كان يُشَرِّح جثث القردة في قاعة تشريح خاصَّة بناها على ضفة دجلة، وأنه كان يختار من أنواع القرود النوع الكثير الشبه بالإنسان، وأن الخليفة المعتصم كان يساعده في الحصول على تلك القردة من بلاد النوبة، وهذا يدلُّ على عناية خلفاء العرب بعلم التشريح وتشجيعهم له»[2].

ولم تقتصر جهود يوحنا الطبية على علم التشريح فقط، بل تعدَّاه إلى تخصُّصات أخرى؛ فقد اهتمَّ بأمراض الجهاز الهضمي والعيون ونبغ فيها، فكان أول من شَخَّص مرض الحساسية عند الإنسان الناتج من أكل الأسماك وشرب الحليب، أمَّا مجال العيون فقد ألَّف فيه كتابًا يحتوي على معظم المعلومات اللازمة لعلاج مرضى العيون، وأطلق عليه اسم (دغل العين)، ذلك الكتاب الذي ظلَّ لمدة طويلة المرجع الأساسي للأطباء والباحثين في العالم العربي والإسلامي في مجال طب العيون[3].

مواقف من حياته:

لم يكن يوحنا بن ماسويه مجرَّد طبيب عادي، بل كان يتمتع بخفَّة النفس والتواضع النادر النظير، فهو صاحب نكتة جيدة وبارعة؛ فمن نوادره أن رجلاً شكا إليه علَّة كان شفاؤه منها الفصد، فأشار به عليه، فقال: لم أَعْتَدِ الفصد. فقال له: ولا أحسب أحدًا اعتاده في بطن أُمِّه، وكذلك لم تعتد العلَّة قبل أن تعتلَّ، وقد حدثت بك فاختر ما شئت من الصبر على ما أحدثت لك الطبيعة من العلة، أو اعتياد الفصد لتَسْلَمَ منها.

«واشتدت على يوحنا علَّةٌ كان فيها حتى يئس منه أهله، ومن عادة النصارى

(١) مؤلف كتاب تاريخ الطب وآدابه وأعلامه.
(٢) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص١٧٣.
(٣) السابق نفسه ص١٧٣.

إحضار من يئس منه أهله جماعة من الرهبان والقسيسين والشمامسة يقرءون حوله، ففُعِلَ مثل ذلك بيوحنا، فأُفرق والرهبان حوله يقرءون، فقال لهم: يا أولاد الفُسَّق، ما تصنعون في بيتي؟ فقالوا له: كنا ندعو ربنا في التفضُّل عليك بالعافية. فقال لهم يوحنا: قرصُ ورد أفضل من صلوات جميع أهل النصرانية منذ كانت إلى يوم القيامة، اخرجوا من منزلي. فخرجوا».

من أقواله:

- سئل عن الخير الذي لا شرَّ معه، فقال: شُرْب القليل من الشراب الصافي.
- ثم سئل عن الشرِّ الذي لا خير معه، فقال: نكاح العجوز.
- وقال: أَكْلُ التفاح يَرُدُّ النفس.
- وقال: عليك من الطعام بما حَدَثَ، ومن الشراب بما عتق[1].

مؤلفاته:

لقد وضع يوحنا بن ماسويه العديد من المصنفات كانت بمثابة منبر لمن يريد دراسة الطب من بعده ومن مصنفاته (كتاب البرهان)، وهو في ثلاثين بابًا، و(كتاب البصيرة)، و(كتاب الكمال والتمام)، وقد جمع فيه ابن ماسويه معلومات عن رطوبات الفم وأدويتها، وأدوية العين، والمغص وأوجاع المعدة وأمراض الكلى، وعلاج المفاصل، وغيرها من الأمور المتعلِّقَة بعلاج الأمراض[2].

ومن مؤلفاته أيضًا (كتاب الحميات)، وجمع فيه معلومات عن الأمراض التي تُصيب الأذن، والصداع وعلاجه، وأيضًا تَحَدَّث فيه عن الكبد والمرارة[3].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ١٢٣.
(٢) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي ١/ ٣٧١، ٣٧٢.
(٣) السابق ١/ ٣٦٩.

و(كتاب في الأغذية) جمع فيه معلومات عن منافع بعض الأغذية، وتداوي الريح الغليظة في البطن والإمساك[1].

و(كتاب في الأشربة)، وكتاب (المنجح في الصفات والعلاجات)، وجمع فيه كثيرًا من المعلومات عن تداوي الخفقان الحارّ، وعلاج الأمعاء بالحقن، وأطعمة المصابين بالكلى والمثانة، ووجع المفاصل، وحالات الجدري وعلاجها[2].

و(كتاب في الفصد والحجامة)، و(كتاب في الجذام)، وكتاب (الجواهر) جمع فيه معلومات عن أنواع الجواهر؛ كالذهب، والفضة، والزمرد، والياقوت، والمرجان، وغيرها[3].

و(كتاب الرجحان)، و(كتاب في تركيب الأدوية المسهلة)، وجمع فيه معلومات عن الأدوية المقيِّئة، وعلاج عرق النسا، وأوجاع المفاصل المتولّدة عن البلغم، ودواء اللثة، وأظهر فيه فضائل أكل الرمان في علاج الإسهال، وغيرها من الأمور[4].

و(كتاب دفع مضار الأغذية)، و(كتاب في غير ما شيء مما عجز عنه غيره)، وكتاب (السر الكامل)، وكتاب (في دخول الحمام ومنافعها ومضرتها)، وكتاب (السموم وعلاجها) وتحدَّث فيه عن سموم الأفاعي[5].

و(كتاب الديباج)، و(كتاب الأزمنة)، و(كتاب الطبيخ)، و(كتاب في الصداع) وعلله، وأوجاعه، وجميع أدويته، والسدد والعلل المولدة لكل نوع منه، وجميع علاجه، ألَّفه لعبد الله بن طاهر، وكتاب (الصدر والدوار)، وكتاب (لِمَ امْتَنَعَ الأطباء من علاج الحوامل في بعض شهور حملهن؟).

---

(١) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي ١/ ٣٧٠.
(٢) السابق نفسه.
(٣) السابق ١/ ٣٧٣.
(٤) السابق ١/ ٣٧٠.
(٥) السابق ١/ ٣٧١.

وكتاب (محنة الطبيب) جمع فيه معلومات عن حالات نبض المحموم وبوله[1]، وكتاب (معرفة محنة الكحالين)، وكتاب (دخل العين)، وكتاب (مجسة العروق)، وكتاب (الصوت والبحة)، وكتاب (ماء الشعير)، وكتاب (المرة السوداء)، وكتاب (علاج النساء اللواتي لا يحبلن حتى يحبلن)، وكتاب (الجنين)، وكتاب (تدبير الأصحاء)، وكتاب (في السواك والسنونات)، وكتاب (المعدة)، وكتاب (القولنج)، وكتاب (النوادر الطبية)، وكتاب (التشريح)، وكتاب في ترتيب سقي الأدوية المسهلة بحسب الأزمنة وبحسب الأمزجة، وكيف ينبغي أن يسقى، ولمن ومتى وكيف يعان الدواء إذا احتبس، وكيف يمنع الإسهال إذا أفرط، وكتاب تركيب خلق الإنسان وأجزائه وعدد أعضائه ومفاصله وعظامه وعروقه، ومعرفة أسباب الأوجاع، ألَّفه للمأمون، وكتاب (الأبدال)، فصول كتبها لحنين بن إسحاق بعد أن سأله المذكور ذلك، وكتاب (الماليخوليا) وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، وكتاب (جامع الطب) مما اجتمع عليه أطباء فارس والروم، وكتاب (الحيلة للبرء)[2].

***

(١) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي ١/ ٣٧٣.
(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ١٢٣-١٢٦.

ابن زهر.. عبقرية أندلسية فريدة

في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش ظلمات من الجهل والتخلُّف، كان المسلمون في الأندلس يعيشون حياة الازدهار والرقي، فشهد القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي تَقَدُّمًا فريدًا في كافَّة العلوم والمجالات، وخاصة علوم الفلك والطب والفلسفة، حتى غدا كل فيلسوف طبيبًا، وكل طبيب فيلسوفًا، وغدت بلاد المسلمين في الأندلس مقصد العلماء وطلاب العلم من وسط أوربا وجنوبها، ومن البقاع المتاخمة لبلاد الأندلس في ذلك الوقت.

وكان من بين هؤلاء النابغين - الذين كانت لهم آثار واضحة في علم الطب، وكانت أعمالهم مقصدًا للعلم والدراسة- عالم أندلسي، ورث الطب عن والده، وورث ابنه الطب عنه، ألا وهو أبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي، الذي يُعتبر أعظم معلِّم في الطب الإكلينيكي بعد الرازي، كما تَدِين له الجراحة بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسي، كما أن له أبحاثًا كثيرة عن الأطعمة والأدوية والكسور، وغير ذلك الكثير.

وُلِدَ أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء، المعروف بابن زهر الأندلسي الإشبيلي الإيادي سنة (٤٦٤-٥٥٧هـ/ ١٠٧٢-١١٦٢م)، وينتسب أبو مروان عبد الملك ابن زهر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيمائية، بل والعلوم الشرعية الإسلامية كذلك، فكان جدُّه - محمد بن مروان بن زهر شيخ زمانه وعالم عصره، المتوفى سنة (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م) - أول مَن رفع من شأن هذه العائلة؛ فقد كان عالمًا فقيهًا جليلاً في بلاد الأندلس، ثم خلفه في العلم ابنه أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر، الذي نبغ في الفقه إلاَّ أنه كان طموحًا فاشتغل بالطب؛ حيث رحل إلى القيروان فتتلمذ على يد كبار أطبائها، ثم رحل بعد ذلك إلى

القاهرة فنال شهرة واسعة في مجال الطب؛ إلاَّ أنه عاد إلى إشبيلية حتى توفى سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، فخلفه في الشهرة ابنه أبو العلاء، واسمه زهر بن عبد الملك ابن محمد بن زهر، وقد ذاع صيته هو أيضًا في الطب مثل أبيه، وقد تدفَّق الطلاب عليه من كل حدب وصوب؛ لشهرته وتبحُّره في العلوم الطبية، وقد قرَّبه إليه الأمير يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وقد لزم بلاد الأندلس حتى وافاه الأجل سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م)، ومن مؤلفاته: كتاب الخواص، وكتاب مجربات الطب، وكتاب التذكرة، وكتاب الأدوية المفردة، وكتاب النكت، وغيرها من الكتب والرسائل، ثم جاء بعد ذلك الابن الذي نال شهرة أبيه وجدِّه، وملأ الدنيا بعلمه، إنه أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، الذي يعتبر أول من خصَّص كل وقته في الطب[1].

ومن هنا فإنه يمكن لنا أن نقول: إن أسرته كان لها أبعد الأثر في تشكيل كيانه العلمي، الذي رأينا آثاره واضحة في حياته العلمية؛ فوالده كان طبيب عصره، وكان شاعرًا كذلك، وقد امتدَّ هذا الأثر المتوارث، حتى وجدناه في أبي بكر الملقب بـ(الحفيد ابن زهر).

ولم يكن ابن زهر بمعزل عن حُكَّام عصره (المرابطين)؛ فقد خدم الملثَّمِين، ونال من جهتهم من النعم والأموال شيئاً كثيرًا[2].

إسهاماته العلمية:

وقد ترك لنا ابن زهر ثروة علمية ناضجة، تنمُّ عن سعة أفقه واطلاعه، ومنها:

كتابه (التيسير في المداواة والتدبير) الذي يُعَدُّ من خير ما أَلَّف المسلمون في الطب العلمي، فقد تحرَّر فيه من كل ما تقيَّد به غيره من آراء نظرية، وأخذ فيه بما

---

(١) انظر تفصيل ذلك عند ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص٢٧٨-٢٩١.
(٢) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٢٨٦.

تُـؤَدِّي إليـه الملاحظـة المبـاشرة، وفيـه وصـف التهـاب التـامور، والتهـاب الأذن الوسطى، وشـلل البلعوم، كما وصـف عملية استخراج الحصى من الكـلى، وفـتح القصبة الهوائية[1].

كما أَلَّف كتاب الاقتصاد الذي علَّق عليه أحد المستشرقين فقال: «إنه عبارة عن تذكرة لمن سبق له أن قرأ كتبًا أخرى في الطب، فالمؤلِّف لا يتكلَّم مع العموم، ولكن مع طبيب مثله، وقد أوضح بكيفية عملية التفريق بين الجذام، والبهاق، ومسألة العدوى، وقد تحدث ابن زهر في هذا الكتاب عن أطباء عصره، فذكر أنهم يختلفون في الاعتناء بالمرضى، وأن الناس يجهلون الطب؛ لأن الطبيب الذي يستشيره مريض من المرضى، يبادر فيصف له دواءً من الأدوية دون تمحيص للحالة في جميع خواصِّها.. »[2].

وأَلَّف كتاب الأغذية الذي أهداه لمحمد عبد المؤمن بن علي أمير دولة الموحدين، وله أيضًا الجامع في الأدوية والمعجونات، وله كتاب التذكرة، ألفه لابنه أبي بكر، وتعتبر هذه الرسالة أول ما تعلَّق بعلاج الأمراض، كما أن له تصانيف كثيرة تتعلَّق بالكلى والبهاق والحصى[3].

ومن هنا فإن ابن زهر يُعَدُّ من الأطباء الذين كان لهم أثر واضح بما تركه من ثروة علمية كبيرة، ولم تكن إسهاماته في المجال النظري فقط، بل تَعَدَّت ذلك إلى الميدان العملي، رغم أنه كان يتحاشى إجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه؛ لأن رؤية الجروح تثير في نفسه ضعفًا يصل إلى حالة الإغماء، ولكنه كان يساهم مساهمة فعَّالة في تحضير الأدوية[4].

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠١.
(٢) السابق نفس الصفحة.
(٣) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٢٩١.
(٤) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٢.

وقد اعتمد ابن زهر على التجربة والتدقيق العلمي، وتوصَّل بذلك إلى أمراض لم تُدرس من قبلُ، وقد درس أمراض الرئة، وأجرى أول عملية في القصبة المؤدية إلى الرئة، ويعتبر ابن زهر من أعظم علماء الأندلس، فهو من أوائل الأطباء الذين اهتمُّوا بدراسة الأمراض الموجودة في بيئة معينة، ويعتبر من أوائل الأطباء الذين بيَّنُوا قيمة العسل في الدواء والغذاء، وعلى الرغم من سعة معارفه، إلاَّ أن تخصُّصه في العلوم الطبية جعله يضيف أبحاثًا مهمة؛ منها ما يتعلق بالأمراض الباطنية والجلدية وأمراض الحمى والرأس؛ مما جعله فريدًا بين أقران عصره.

على أننا لا نُغفل العلاقة الوطيدة التي كانت بين ابن زهر وابن رشد؛ فقد أَلَّف ابن رشد كتابه في الكليات، فقصد من ابن زهر أن يؤلِّف كتابًا في الجزئيات؛ لتكون جملة كتابيهما ككتاب شامل كامل في صناعة الطب، وهو كتاب التيسير في المداواة والتدبير، والذي يُعتبر من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى.

ومن هنا يتضح لنا مدى الرقي الذي وصل إليه العلم في بلاد الأندلس، وقد كان ابن رشد على ثقة تامَّة بابن زهر، حتى وصفه بأنه أعظم الأطباء منذ عصر جالينوس.

ولأبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر آداب وابتكارات لم يسبقه إليها أحد؛ منها:

١-كان يعتقد أن التجربة وحدها هي التي تثبت الحقائق وتذهب البواطل.

٢- كان ينصح طلابه أن لا يأخذوا دائمًا ما يقرءونه على غيرهم محمل الثقة واليقين، بل لا بُدَّ من التجربة.

٣- عالج حالات الشلل الذي يصيب البلعوم.

٤- أول من أشار بعملية شق الحجاب.

٥- يعود له الفضل في إدخال الملينات بدل المسهلات الحادَّة.

ومن أهم ما يميِّز ابن زهر أنه لم يأخذ آراء الآخرين على أنها مسلمات غير قابلة للتعديل، فإن آراءه المخالفة لجالينوس، وخاصة آراءه التشريحية، لشاهدة على ذلك، وقد ساعدت هذه الآراء على التخلُّص من تهويمات الجالينوسية، ومن الخضوع المشين الذي طبع عصورًا برُمَّتِها بطابع الجمود المزري[1].

وقد امتدح جورج سارتون أبا مروان بن زهر في كتابه (المدخل إلى تاريخ العلوم)، فقال: «إن أبا مروان تميَّز عن غيره في حقل الطب في شرق وغرب الدولة الإسلامية، بل إنه أعظم طبيب في عصره في العالم أجمع»[2].

لم يعرف المسلمون احتكارًا للعلم منذ قديم الزمان؛ لذلك لم تكن علومهم حكرًا لهم، يعتنون بها دون غيرهم، لذلك تُرجمت كتب المسلمين إلى لغات شتى، أظهرت عظمة المسلمين ونبوغهم، شهد لها البعيد قبل القريب.

فقد تُرجمت كتب ابن زهر إلى اللاتينية، وخاصة كتابه التيسير؛ حيث تُرجم إلى اللاتينية سنة (٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م)، وكان له أثر كبير على الطب الأوربي حتى القرن السابع عشر، كما تُرجم له كتابه في الأغذية والأدوية، كما يوجد لكتابه الاقتصاد نسخ عدَّة حتى الآن.

خاتمًا ليس لنا إلاَّ أن نقول: إننا أمام عبقرية فذَّة، شهد لها التاريخ؛ بفضل ما أسهمت به في مجال العلوم الطبية -ما زال العديد منها محفوظًا ومخطوطًا- يشهد لهذا العبقري المسلم، في زمن بَعُد فيه المسلمون عن العلم، وتَقَدَّم غيرهم، بعدما كانت بلاد المسلمين كعبة لهم، يقصدونها من كل فجٍّ.

---

(١) انظر: جلال مطهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٢٩.

(٢) انظر: علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٨٣.

الكندي.. الطبيب الموسوعي

لا شكَّ أن مهنة الطب من أعظم المهن على وجه الأرض؛ لأنها تهتمُّ بالإنسان خليفة الله في أرضه، وقد ساهمت الحضارة الإسلامية عبر رُوَّادها الأفذاذ في رُقِيِّ هذا العلم وازدهاره، ومن هؤلاء الأفذاذ عالم تخصَّص في علوم الطب والفلسفة والرياضيات والفلك، وغيرها من العلوم، إنه أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، الطبيب الفيلسوف، العالم الفلكي، صاحب التصانيف الكبيرة في الطب، والحساب والنجوم والفلك، وغيرها الكثير.

وُلِدَ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي بالكوفة سنة (١٨٥ هـ/ ٨٠٥م)، وتوفي في بغداد سنة (٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، ونشأ بالبصرة، وانتقل إلى بغداد، وقد تلقى تعليمه في كلٍّ منهما.

ومَن تتَّبع سيرته تبيَّن أنه نشأ في بيئة ذات حسب وشرف؛ فأبوه إِسْحاق كان أميرًا على الكوفة للمهدي والرشيد، والجدير بالذكر أن نسبه ينتهي إلى الصحابي الجليل (الأشعث بن قيس)، وقد كان قبل ذلك أميرًا على جميع كندة، وكان أبوه قيس بن معديكرب أميرًا على جميع كندة أيضًا.

وقد اتصل يعقوب الكندي بحُكَّام عصره، وكانت هناك علاقة وطيدة بينه وبين المأمون والمعتصم وابنه أحمد المتوكل، وعَمِل في بلاطهم بكل إخلاص وتفانٍ لخدمة العلم والعلماء؛ لذا أُسند إليه عمل الطبيب وديوان الخراج في قصر الخلافة مدَّة طويلة من الزمن.

ولم تكن عناية الخلفاء بالكندي إلاَّ لمنزلته وعلمه الموسوعي؛ حيث نجد له كتبًا في الطب، والحساب، والفلك، والرياضيات، وعلم النجوم، والهندسة، والفلسفة والمنطق.

كما أجاد الكندي الترجمة؛ حيث ترجم كتاب (المجسطي) لبطليموس، وكتاب (الأدوية المفردة) لجالينوس في الطب؛ لذلك يُعَدُّ الكندي من حُذَّاق الترجمة.

أما إذا تحدَّثنا عن كتبه في المجال الطبي، فسنجد أننا أمام عالم متمرِّس في الطب كتمرُّسه في الفلك والفلسفة، وسنجد أن قيمته العلمية لا تقلُّ بحال عن أفذاذ الطب؛ كالزهراوي، وابن زهر، وغيرهما؛ وممَّا صنَّفه ما يلي:

كتاب الطب البقراطي، ورسالة في الغذاء والدواء المهلك، ورسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء، ورسالة في الأدوية المشفية من الروائح المؤذية، ورسالة في كيفية إسهال الأدوية وانجذاب الأخلاط، ورسالة في علم نفث الدم، وفي تدبير الأصحاء، وفي كيفية الدماغ، وفي علة الجذام وأشفيته، وفي وجع المعدة والنقرس، وفي علاج الطحال، وفي الحيلة لدفع الأحزان، وجوامع كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، ورسالة في الإبانة عن منفعة الطب، وغيرها كثير[١].

وعلى هذا فإن الكندي كان رجلاً فريدًا في عصره؛ فله أكثر من عشرين رسالة في العلوم الطبية وحدها، وقيل: له أكثر من ألف كتاب في كل معنى، كلها فصول من كتب أرسطاطاليس، حتى لُقِّب بفيلسوف العرب[٢].

والناظر في الأمر قد يصيبه العجب، حتى إذا تمعَّن في الأمر، وجد ألا عجب في الأمر، فعصر عاش فيه الكندي، عصر علم وازدهار، وَجد فيه العلماءُ اهتمامًا من الخلفاء، وإقبالاً على العلم، وبناء دور لخزانة الأدب، وكثرت الترجمة والمترجمون، وتفتحت علوم الآخرين للمسلمين، فأقبلوا عليها يقرءونها، ويتدبَّرُون أمرها، فتفتَّحت لهم المدارك، فأضافوا إليها وطوَّروا مضمونها، وليس الكندي فريدَ عصره

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص١٨٣، ١٨٤.
(٢) ابن الكندي: فضائل مصر المحروسة ١/ ٤.

في هـذا الأمـر، فهنـاك قرينـه ابـن سـينا وابـن رشـد، وكـل هـؤلاء نبغـوا في الطـب - أيضًا - مع تفرُّدهم في الفلسفة.

وتظهر عبقرية الكندي وتمرُّسه في مجال الطـب، في وصيته للأطبـاء، إذ يقـول: وليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض. وقال: وكـما يحب أن يقال له: إنه كان سبب عافية العليل وبرئه. كذلك فليحذر أن يقـال: إنـه كـان سـبب تلفه وموته. وقال: العاقل يظن أن فوق علمه علمًا، فهو أبدًا يتواضع لتلـك الزيـادة؛ والجاهل يظن أنه قد تناهى، فتمقته النفوس لذلك[1].

ويظهر من تلك الوصية مـا كـان يتمتـع بـه الكنـدي مـن تواضـع العلـماء، فعـلى الطبيب ألاَّ يتكبَّر على المريض، وأن يحمد الله على هذه النعمة التي أنعمهـا الله عليـه، فكما يحبُّ أن يقال: إنه سبب عافية المريض. فليحذر أن يقال: إنه سبب تلفه وموته.

ومـن وصـاياه - أيضًـا - مـا ذكـره ابـن أبي أصـيبعة في وصـيته لولـده، يقـول الكندي: «يا بني، الأب رب، والأخ فخ، والعـم غـم، والخـال وبـال، والولـد كمـد، والأقارب عقارب، وقول لا يصرف البلا؛ وقـول نعـم يزيـل الـنعم؛ وسـماع الغنـاء برسام[2] حادٌّ؛ لأن الإنسان يسمع فيطـرب، وينفـق فيُسرف، فيفتقـر فيغـتمّ، فيعتـلّ فيمـوت، والـدينار محمـوم فـإن صرفتـه مـات، والـدرهم محبـوس فـإن أخرجتـه فـرَّ؛ والناس سخرة، فخذ شيئهم واحفظ شيئك، ولا تقبل ممن قال اليمين الفاجرة؛ فإنها تدع الديار بلاقع»[3].

ويُعَلِّق ابن أبي أصيبعة على هذه الوصية، ويذكر وصف ابن النديمُ للكندي: أنه كان بخيلاً. ونحن نقول: إن هذه الوصية تَظهر فيها فلسفة الكندي، واضحة جليـة؛

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ١٩٢.
(٢) البرسام بالسريانية: علَّة الموت، أو ابن الموت. انظر: ابن قتيبة: غريب الحديث ١/ ١٢٥.
(٣) السابق نفسه.

فالأب ربٌّ؛ لأنه ربُّ الأسرة وحاميها، ومن يحميها إلاَّ صاحبها، والأخ فخ؛ إذا ساءت العلاقة بين الأخوين وراح كل منهما يكيد للآخر، ويصطنع له المكائد، والعم غم؛ إذا طمع في أموال أبناء أخيه، فسار غمًّا لهم، يجلب لهم النقم، وهكذا يمضي الكندي في فلسفته، وليس هناك ما يدلُّ على بخله، وإن كانت هناك بعض الحيطة في الأمر، خاصَّة وهو يوصي ابنه، وإلاَّ كان قد تداول الأمر عنه، فلم يقل أحد بذلك إلاَّ ابن النديم.

ومن أقوال الكندي المأثورة عنه، والتي نقلها ظهير الدين البيهقي في كتابه تاريخ حكماء الإسلام، قوله:

- اعتزل الشرَّ؛ فإن الشرَّ للشرير خلق.
- اعص الهوى، وأطع من شئت، ولا تغتر بمال وإن كثر.
- لا تطلب حاجة إلى الكذوب؛ فإنه يبعدها وهي قريبة[1].

هكذا كانت حياة الكندي بحرًا من العلوم، فقد ساهم في علم الطب بنصيب وافر كما ساهم في غيره من العلوم، فأصبحت مصنَّفاته في الطب متداولة في كل أرجاء العالم، تشهد على عبقريته ونبوغته.

***

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص١٨٤.

عمَّار الموصلي.. رائد طب العيون

طبيبنا هو رجل مات منذ ألف سنة، ولكن كُتبه ظلَّت تَدرسها الجامعات الغربية حتى مائتي سنة.

هو أبو القاسم عمار بن علي الموصلي، وُلِدَ بمدينة الموصل، ولهذا سمي بالموصلي، تلقَّى تعليمه على يد كبار المفكرين بمدينة الموصل، ونبغ في طب العيون[1].

وكان عمار الموصلي من مشاهير الأطباء في علم الكحالة أو طب العيون - كان طبيبُ العيون يُعْرَف بالكحال - ويُشترط بمن يريد التخصُّص بعلم العيون أن يكون لديه معرفة متكاملة في تشريح العيون، ويشترط فيه - أيضًا - أن يكون ملمًّا بأنواع الأمراض التي تصيب العين، ولديه خبرة لتركيب الكحل وأمزجة العقاقير المتنوعة، وطرق العلاج[2].

اشتهر الموصلي في القاهرة في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢٠م) ويعتبر من أكثر أطباء العيون ابتكارًا[3].

ويقول عنه ابن أبي أصيبعة: «كان كحَّالاً مشهورًا، ومعالجًا مذكورًا، له خبرة بمداواة أمراض العين»[4].

أهم إنجازاته:

كان أهم إنجازات عمار الموصلي في مجال طب العيون هو اعتماده على التجارِب

---

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٧٣.

(٢) السابق نفسه ص٢٧٣.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، ص٣٣٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/٣٦٨.

المختبرية في علاج مرضاه؛ لذا كان له دور عظيم في تطوير طب العيون[1]، حتى صار فرعًا مستقلاً بذاته، وبزغ نجم عمار الموصلي في هذا الفرع حتى صارت مجهوداته منهجًا لدراسة طب العيون.

وكان من أهم ما قَدَّمه عمار الموصلي للإنسانية في مجال طب العيون كتاب **(المنتخب في علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد)**، ذلك الكتاب الذي طلب الحاكم بأمر الله منه أن يُؤَلِّفه.

فقام أبو القاسم الموصلي بالتنقُّل بين كثير من البلدان العربية والإسلامية ليلتقي بجهابذة الفكر، ليس فقط في العلوم الطبية ولكن في جميع فروع المعرفة، وأيضًا ليلتقي بأطباء العرب والمسلمين المتخصِّصين في طب العيون.

وكان لتنقُّل عمار الموصلي بين أقطار الدول العربية والإسلامية سببًا في نيله شهرة عظيمة في مجال طب العيون؛ حيث مارس مهنة طب العيون في كل من الموصل، وخراسان، وسوريا، وفلسطين، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومصر.

وأثناء إقامته بمصر أجرى الكثير من العمليات الجراحية، واستفاد كثيرًا باحتكاكه بأطباء مصر، ولهذا تمكَّن من تأليف كتاب (المنتخب في علم العين)، الذي كَلَّفه به الحاكم بأمر الله، ومنذ ذلك الوقت أصبح ذلك الكتاب مرجعًا لا يمكن للباحثين وطلاب طب العيون الاستغناء عنه[2].

ويتكوَّن هذا الكتاب من واحد وعشرين فصلاً في تشريح العين وفسلجتها، وذَكَرَ من أمراضها واحدًا وخمسين صنفًا، مع وصف علامات كلٍّ منها، وتداويها بالطرق الطبية والجراحية.

---

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٧٣.
(٢) المصدر السابق ص ٢٧٤.

ويوجد بالكتاب الكثير من الأفكار التي تُعَدُّ سابقة أو اكتشافًا؛ ذلك لأن ذكرها لم يَرِدْ من قَبْلُ لدى الكحَّالين العرب، كما يوجد في (المنتخب) كثير من التفصيلات الدقيقة في وصف علامات وأعراض أمراض العين وتداويها، والتي لم يسبقه إليها اليونانيون.

وحذَّر عمار الموصلي في الكتاب من معالجة مرض الكاتاراكت (الساد) بعمليات القدح قبل نضج المرض، وشخَّص النضج حين يفقد المريض القدرة على تمييز الألوان، وقام عمار الموصلي بوصف دقيق لتقنية عملية القدح للكاتاراكت، وهذه تعتبر من أهمِّ إنجازاته الطبية، كما ذكر الموصلي استعمال المقداح الصمد بالسحب، والمقداح المجوَّف بالمصِّ.

ويُنسب إلى عمار الموصلي اختراع المقداح المجوَّف، على أن الإنصاف يقتضينا أن نذكر أن الطبيب اليوناني أنطليوس – في القرن الثاني الميلادي – قد مارس استعمال هذا النوع من المقداح، إلاَّ أنه استعمل المقداح معمولاً من الزجاج، بينما كان مقداح الموصلي معمولاً من المعدن، وتلك هي الميزة إذ لا يحمل مقداح المعدن خطورة الكسر أثناء العملية.

كما أن الموصلي مارس استعمال مقداحه بكثرة وتفنُّن، وسجَّل عملياته وما حدث أثناءها من الاختلاطات والغرائب، كما يفعل الممارس الحاذق المتّبع في الطب السريري.

وكان للموصلي الكثير من الإنجازات الطبية منها الطرق الجديدة التي استخدمها في إجراء العمليات الجراحية للعين، والتي لم تكن معروفة من قَبْلُ، فمثلاً كانت العملية السائدة عند البابليين لقدح الماء النازل في العين دفع العدسة المعتمة إلى داخل العين بواسطة إدخال إبرة حادَّة في العين، وعند وصولها إلى العدسة تدفع الأخيرة بلطف إلى أسفل، لتستقر داخل كرة العين بعيدة عن منطقة

البؤبؤ، واستمرَّت هذه الطريقة في الحضارة وطوَّرُوها وحوَّرُوا بها، فقد ذكر الرازي أنه من الممكن استخراج الماء الأبيض من العين بعد قصِّ قسم من قزحية العين. وعملية قصِّ القزحية لتوسيع البؤبؤ هي الخطوة الأولى في العمليات الحديثة لهذا المرض.

وعندما جاء عمار الموصلي ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير حيث استعمل أنبوبًا زجاجيًّا دقيقًا ليُدْخِلَه في مُقَدِّمة العين ويُفَتِّت العدسة المعتمة، ثم تُمْتَصُّ هذه العدسة المتفتِّتة، وكانت هذه العملية أول عملية حديثة للساد، وهي تشبه إلى حدٍّ كبير العملية الحديثة للساد وعلى نفس القاعدة، ولكن بآلات حديثة، وظلَّت هذه العملية سائدة في الشرق ولم تنتشر في الغرب في القرون الوسطى، حتى انتقلت بواسطة العرب إلى أوربا، فمارسها برسفال بوث بانجلترا عام (١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)[١].

ويتَّضح هنا ما قدَّمه أبو القاسم الموصلي من خدمة عظيمة للباحثين وطلاب طب العيون؛ من خلال ما قَدَّمه من إنجازات طبية، وأيضًا بتصنيفه كتاب (المنتخب في علم العين) الذي لا يمكن لأي أحد يريد أن يكتب عن طب العيون أن يستغني عنه، ولهذا قام داود هيرمانوس بترجمته من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية[٢]، وظلَّ هذا الكتاب يُدرس في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر[٣].

* * *

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٧٤، ٢٧٥.
(٢) السابق نفسه ص ٢٧٥.
(٣) محمود الحاج قاسم محمد: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص٨١.

علي بن عباس المجوسي.. الطبيب البارع

اشتهر علي بن العباس المجوسي[1] باعتباره طبيبًا بارعًا في علاج الأمراض المتوطنة والمستعصية على العلاج لفترات طويلة، ولم يكن عليٌّ من أولئك الأطباء المفتقرين للنواحي العلمية النظرية أو التطبيقية، بل إن الذي جعله متفرِّدًا بين علماء عصره وحتى يومنا هذا هو إلمامه بكافَّة النواحي النظرية التي يحتاجها أي طبيب مثله من المعرفة والعلم والدراية بما كتبه الأولون في هذا الفنِّ؛ وبجانب ذلك سيره على ما يُسَمَّى في الواقع العلمي اليوم باسم (المنهج العلمي) القائم على التجربة والاستقصاء والملاحظات ومن ثم النتائج.

ويذكر القفطي مكانة علي بن العباس بقوله: «علي بن العباس المجوسي طبيب فاضل كامل فارسي الأصل، يُعرف بابن المجوسي، قرأ عَلَى شيخ فارسي يُعرف بابن ماهر، وطالع هو واجتهد لنفسه، ووقف على تصانيف المتقدِّمِينَ، وصنف للملك عضد الدولة فناخسرو بن بويه كُنَّاشه المسمَّى بالملكِي، وهو كتاب جليل، وكُنّاش نبيل اشتمل على علم الطبِّ وعمله حسن الترتيب»[2].

لم يُعرف بالضبط تاريخ ميلاد المجوسي، إلاَّ أنه وُلِدَ في منطقة الأهواز – شرقي إيران حاليًا – وبعضُ مَن ترجموا له ذكروا أنه كان حيًّا قبل عام (٣٨٤هـ / ٩٩٤م)[3]، ومنهم من جزم بوفاته في هذا العام[4]، ومنهم من جعل وفاته في حدود عام (٤٠٠ هـ/ ١٠١٠م)[5].

---

(١) عُرِفَ بهذه النسبة إلى أحد أجداده وكان يدين بالمجوسية.

(٢) القِفطي: أخبار العلماء ص١٥٥، ١٥٦.

(٣) عمر كحالة: معجم المؤلفين ٧/ ١١٦.

(٤) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ١٣٨٠.

(٥) الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٩٧.

ويُعدُّ كتاب الملكي أو كامل الصناعة الطبية من أبرز مصنفاته وأشهرها على الإطلاق، قال عنه ابن أبي أصيبعة: «صنفه للملك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي حسن بن بويه الديلمي، وهو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها»[1].

ويوضِّح القفطي أهمية كتاب الملكي للمجوسي بقوله: «مال الناس إليه في وقته، ولزموا درسه إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا، فمالوا إليه، وتركوا الملكي بعض الترك، والملكي في العمل أبلغ، والقانون فِي العلم أثبت»[2].

والملاحظ في جملة القفطي أن «الملكي في العمل أبلغ، والقانون في العلم أثبت» توضِّح الأهمية الواقعية والتجريبية لكتاب (كامل الصناعة الطبية) بين العامة والخاصة، وهذا الكتاب يختلف عن (القانون) لابن سينا؛ لأن مؤلفه اعتمد فيه على مشاهداته العلمية في المستشفيات، لا على مجرَّد الدراسة النظرية، ويتميَّز هذا الكتاب بمقالتيه الأولى والثانية والمشتملتين على فصول رائعة في التشريح، فكانت مرجعًا لعلم التشريح في سالرنو بإيطاليا مدة من الزمن[3].

ويتكوَّن كتاب (كامل الصناعة الطبية) من جزءين متكاملين؛ كل منهما يحتوي على عشر مقالات؛ فالمقالة الأولى من الجزء الأول تتناول الأمور العامة وأمزجة الأعضاء، والثانية والثالثة تختصَّان في تشريح وظائف الأعضاء، والرابعة تهتمُّ في ذكر القوى والأفعال والأرواح، والخامسة تشمل الأمور التي ليست طبيعية، والسادسة في الأمراض والأعراض، والسابعة في الدلائل العامة على الأمراض والعلل، والثامنة في الاستدلال على الأمراض الظاهرة للحسِّ وأسبابها وعلاماتها،

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٢٢٣.

(٢) القفطي: أخبار العلماء ص١٥٦.

(٣) انظر: عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١١٧.

والتاسعة تحوي ذكر الدلائل وأسبابها وعلاماتها. وأما الجزء الثاني فيشتمل على كل من: المقالة الأولى في الصحة العامة، والثانية في الأدوية، والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة: خصَّصها لعلاج الأمراض ومداواتها، والتاسعة للجراحة، وأما العاشرة فهي لصنع المعجَّنات والدهونات والأشربة والأكحال وغيرها[1].

ومما يُدلِّل على مقدرة علي بن العباس العقلية الفاحصة لكل ما قرأه واطلع عليه، وما يُدلل كذلك على تبحُّره ومكانته الفائقة في المجال الطبي، أنه قد انتقد كثيرًا من المؤلفين السابقين عليه، وخاصة ما ألّفه اليونانيون في هذا المجال، ولم يكن هذا الانتقاد منطلِقًا من التشفِّي لكل ما كتبه القدماء، بل كان انتقادًا بالأدلة العلمية الصحيحة، والعقلية المقبولة في كتابه القيم (الملكي)، وهذا الأمر تُثبته وتنقله المستشرقة الأوربية زيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) عن علي بن العباس إذ قال: «إني لم أجد بين مخطوطات قدامى الأطباء ومحدثيهم كتابًا واحدًا كاملاً يحوي كل ما هو ضروري لتعلم فن الطب؛ فأبوقراط يكتب باختصار، وأكثر تعابيره غامضة بحاجة إلى تعليق... كما وضع جالينوس عدة كتب لا يحوي كل منها إلاَّ قسمًا من فنِّ الشفاء، ولكن مؤلفاته طويلة النفس، وكثيرة الترديد، ولم أجد كتابًا واحدًا له يصلح كل الصلاح للدراسة... وأما أنا فإني سأعالج في كتابي كل ما يلزم للحفاظ على الصحة وشفاء الأمراض، والمستلزمات التي يجب على كل طبيب قدير مستقيم أن يعرفها»[2].

وقد اعترفت هونكه بنفسها ما لعلي بن العباس المجوسي من قيمة علمية فريدة، بل وذكرت ما تفرَّد به عن أسلافه من أطباء اليونان والعرب؛ إذ قالت: «وقد قال

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٤٦، ٢٤٧.
(٢) زيغريد هونكه: شمس العرب ص٢٨٤، ٢٨٥.

أبقراط ومن جاء بعده: بأن الطفل في جوف الأم يتحرَّك بنفسه تلقائيًّا، ويخرج بواسطة من هذه الحركة من الرحم. فجاء علي بن العباس ليكون أول من قال بحركة الرحم المولِّدة التي تدفع بالثمرة (الجنين) إلى الخروج بواسطة انقباض عضلاته»[1]. وتقصد هونكه أن علي بن العباس المجوسي قد أثبت أن الطفل في الولادة لا يخرج من تلقاء نفسه كما كان يُعتقد قبل ذلك، بل يخرج بفعل تقلصات عضلية داخل الرحم.

وإضافة إلى ذلك كتب علي بن العباس عن الخرَّاج في رحم الأم، وفي حلقه، وعن سرطان الجوف الداخلي، وغيرها من التوصيفات المرضية التي توجد داخل أمعاء الإنسان، أو رحم الأمهات، وقد أشار في كتابه (الملكي) إلى ضرورة العمل في المستشفيات لمن أراد أن يكون طبيبًا ناجحًا[2].

ولعَلَّ علي بن العباس المجوسي – كما يذكر الدكتور عامر النجار – من أوائل من أشاروا إلى وجود صلات بين الشرايين والأوردة، وفي ذلك إرهاصة متواضعة إلى وجود الأوعية الشعرية، كما يشتمل كتابه (الملكي) على ملاحظات إكلينيكية قد تكون متواضعة في زماننا هذا، لكنها كانت أكثر قيمة بالنسبة لعصره ووقته[3].

وكذلك أكَّد فليب حتي على الدور الريادي الطبي الذي ناله علي بن العباس، وما لكتابه من مكانة مرموقة؛ إذ قال فيه أنه: «كتاب جليل، وكُنَّاش نبيل، اشتمل على علم الطب وعمله، وكانت أفضل أقسامه القسم الذي يبحث في علم الأغذية الصحية وعلم العقاقير الطبية»[4].

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب ص٢٧١.
(٢) انظر: عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١١٩.
(٣) المصدر السابق ص١١٨.
(٤) فليب حتي وآخرون: تاريخ العرب ٢/ ٦٨٥.

وقد تناقل مؤرخو العلوم الطبية بكل إعجاب النزعات العلمية والأخلاقية عند علي بن العباس؛ فمنها على سبيل المثال ما يلي:

١- يجب الاعتماد على تقويم صحة المريض؛ إذ (الوقاية خير من العلاج).

٢- يلزم أن يُعَالَج العليل بالغذاء قبل اللجوء إلى الأدوية.

٣- ينبغي التركيز على الأدوية المفردة وتجنب المركبة قدر الإمكان.

٤- عدم تناول الأدوية الغريبة المجهولة.

٥- النبض رسول لا يكذب، ومنادٍ أخرس يُخبر عن أشياء خفية بحركاته الظاهرة.

٦- القلب والعروق الضوارب تتحرك كلها حركة واحدة، على مثال واحد في زمن واحد.

٧- يعتبر علي بن العباس أول من أشار إلى صعوبة شفاء المريض بالسل الرئوي بسبب حركة الرئة.

٨- أوصى باستعمال القسطرة[١] لإخراج البول من المثانة.

٩- عالج بنجاح الغدد اللمفاوية (الدرني).

١٠- عالج أم الدم «الأنورسما» جراحيًّا.

١١- وصف علاجًا لكل من الخلوع والكسور والتجبير.

١٢- وصف علاجًا لالتهاب اللوزتين.

١٣- بحث عن التقيد بتقاليد الصنعة وآدابها.

---

(١) القسطرة: أنبوبة من المطاط تدخل في مجرى البول لتفرغ المثانة. انظر: المعجم الوسيط ص٧٣٤.

١٤- تواتر عنه أنه قال: «الطبيب والمريض والمرض ثلاثة، فمتى كان المريض يقبل من الطبيب ما يصف له ويتوقَّى ما ينهاه عنه، كان الطبيب والمريض محاربين للمرض، واثنان على واحد يغلبانه ويهزمانه. وإن كان المريض لا يقبل من الطبيب ما يصفه له ويتبع شهواته، كان المرض والمريض محاربين للطبيب، وواحد لا يقوى على محاربة اثنين».

١٥- ينصح الأطباء أن لا يكون هدفهم طلب المال بل الأجر والثواب، وألا يُعطوا دواءً قتالاً ولا يصفوه، ولا يدلُّوا عليه أو ينطقوا به، ولا دواء للنساء لإسقاط الأجنة، وأن يكون الطبيب رقيق الكلام، طاهرًا بعيدًا عن كل نجس وفجور، وبعيدًا عن اللهو وشرب النبيذ، صافي النية في نظراته للنساء، وأن لا يُفشي سرًّا، وأن يكون رحيمًا وعفيفًا مع الفقراء.

١٦- يحثُّ الأطباء على تَذَكُّر الأعراض التي تعتري المريض.

١٧- كما يحثُّ الطبيب على ضرورة مداولة أمور المرضى مع زملائه وأساتذته حذّاق الأطباء[١].

ويُعدُّ (الملكي) من أوائل الكتب المترجمة من العربية إلى اللاتينية؛ فقد ترجمه «قسطنطين الإفريقي» (١٠٢٠-١٠٨٧م) عميد مدرسة الطب في سالرنو الإيطالية، والغريب أنه نسبه إلى نفسه، وقد انتشر هذا الكتاب في الغرب انتشارًا مذهلاً، وصار كتابًا منهجيًّا في جميع المدارس الطبية وقتئذٍ، وقد تُرجم الكتاب مرَّة أخرى بواسطة باحث معروف هو إتيان الأنطاكي وذلك في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، الذي شكَّ في مقدرة قسطنطين الإفريقي على إنتاج مثل هذا العمل، فبحث عن مصدر هذا العمل، ومن ثم نسبه إلى صاحبه[٢].

---

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) السابق ص٢٤٩، ٢٥٠.

لقد استعرضنا في عُجالة واحدًا من أبرز علماء الحضارة الإسلامية والإنسانية في المجال الطبي، التي قلَّما تجود البشرية بمثله، ولقد كان علي بن العباس المجوسي رائدًا حقيقيًّا في النواحي التطبيقية والتنظيرية والأخلاقية في المجال الطبي، وإنّ كتابه (الملكي) أو (كامل الصناعة الطبية) ليُعَدّ بحقٍّ من أبرز الكتب الطبية التي عالجت كثيرًا من المسائل الطبية الملحة أو الغامضة التي كانت منتشرة في عصره؛ مما حدا بالأوربيين في عصورهم الوسطى أن يجعلوا هذا الكتاب أحد مراجعهم الأساسية في المجال الطبي لمدَّة قرون عدَّة!

* * *

ابن الجزار القيرواني.. شيخ الطب

يُعَدُّ ابن الجزار من أشهر فلاسفة وأطباء المسلمين في القرن الرابع الهجري، بل يمكن القول: إنه كان صاحب المكانة العلمية والشعبية في بلاد المغرب العربي على الإطلاق في ذلك الزمن العريق.

وابن الجزار هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني، وُلِدَ في القيروان، ولا يُعلم على وجه الدقَّة تاريخ مولده، وقد توفي بها نحو عام (٤٠٠هـ/ ١٠١٠م)[١]، وقيل توفي مقتولاً في الأندلس[٢]، قال عنه الذهبي في (سير أعلام النبلاء): «ابن الجزار: الفيلسوف الباهر، شيخ الطب... اتصل بالدولة العبيدية (الفاطمية)، وكثرت أمواله وحشمته»[٣].

وقد تتلمذ ابن الجزار على أبيه وعمه وكانا طبيبين حاذقين، كما تتلمذ على يد طبيب شهير في عصره هو إسحاق بن سليمان الإسرائيلي[٤] الذي ترك مصر وذهب إلى القيروان، والتي عَلَتْ فيها مكانته الطبية والعلمية بين الخاصة والعامة، فتخرَّج على يديه واحد من أعظم أطباء الحضارة الإسلامية في شطرها الغربي ونقصد بالطبع ابن الجزار القيرواني.

ومن الحوادث العظيمة التي حدثت مع ابن الجزار، والتي كادت أن تودي بحياته في فترة مبكرة من فترات ممارسته لمهنة الطب ما ذكره المقريزي عن إصابة

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٨١.

(٢) البابانى: هدية العارفين ١/ ٣٧.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٦١.

(٤) أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، طبيب، بصير بالمنطق، من أهل مصر، ثم سكن القيروان، وخدم عبيد الله المهدي صاحب إفريقية بصناعة الطب، وعُمِّر طويلاً إلى أن نيف على مائة سنة، وهو أستاذ ابن الجزار القيرواني، توفي سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م). انظر: عمر كحالة: معجم المؤلفين ٢/ ٢٣٤.

المنصور- وهو أمير تونس - بمرض عُضال بسبب البرد الشديد والثلوج، التي تعرَّض لها في أحد أسفاره، فأراد أن يدخل الحمّام وهو في طريق عودته، لكن طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي - أستاذ ابن الجزار - نهاه عن ذلك، فكأن المنصور امتعض من فعل طبيبه ذلك، فقرَّر دخول الحمام؛ ففنيت الحرارة الغريزية منه، ولازمه السهر، فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السهر، فاشتدَّ ذلك على المنصور، وقال لبعض خواصِّه: أما في القيروان طبيب غير إسحاق؟ فأُحضر إليه شاب من الأطباء يقال له: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار، فجمع له أشياء مخدِّرة، وكلَّفه شمَّها، فنام، وخرج وهو مسرور بما فعله، فجاء إسحاق ليدخل على المنصور، فقيل له: إنه نائم. فقال: إن كان صنع له شيء ينام منه فقد مات. فدخلوا عليه فإذا هو ميت، فدفن في قصره. وأرادوا قتل ابن الجزار الذي صنع له المنوم، فقام معه إسحاق، وقال: لا ذنب له، إنما داواه بما ذكره الأطباء، غير أنه جهل أصل المرض، وما عرَّفتموه؛ وذلك أنني في معالجته أقصدُ تقويةَ الحرارة الغريزية، وبها يكون النوم، فلمَّا عولج بما يطفئها علمت أنه قد مات»[1]. ولا ريب أن هذه الحادثة كانت تجربة كبيرة لابن الجزار ليَجِدَّ في علم الطب وقد كان.

ومما يُدلل على مكانة ابن الجزار العلمية، وأخلاقه السامقة المترفِّعَة عن كل تبذُّل، وجهده الدءوب في تحقيق الإنجازات الطبية والعلمية المتواصلة، ما أخبر به ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء) إذ قال: «كان ابن الجزار من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم، حَسَنَ الفهم لها، وقال سليمان بن حسَّان المعروف بابن جلجل: إن أحمد بن أبي خالد كان قد أخذ لنفسه مأخذًا عجيبًا في سمته وهديه وتعدده؛ ولم يُحفظ عنه بالقيروان زلَّة قط، ولا أخلدَ إلى لذَّة، وكان يشهد الجنائز والعرائس، ولا يأكل فيها؛ ولا يركب قط إلى أحد من رجال إفريقية، ولا إلى

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص٢٥.

سلطانهم إلاَّ إلى أبي طالب عمِّ معدٍ (عم الأمير العُبيدي)، وكان له صديقًا قديمًا، فكان يركب إليه يوم جمعة لا غير، وكان ينهض في كل عام إلى رابطة على البحر المستنير، وهو موضع مرابطة مشهور البركة، مذكور في الأخبار، على ساحل البحر الرومي، فيكون هنالك طول أيام القيظ (الصيف)، ثم ينصرف إلى إفريقية، وكان قد وضع على باب داره سقيفة أقعد فيها غلامًا له يسمى برشيق، أعدَّ بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير بالغداة أمر بالجواز إلى الغلام، وأخذ الأدوية منه؛ نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئًا»[1].

وهذا الفعل من ابن الجزار يُدلل على اعتماده على المنهج العلمي المتميز في الفصل بين الطب والصيدلة أثناء دراسته لهما وأثناء علاجه للمرضى، الأمر الذي جعله يحتل مرتبة علمية كبيرة في المغرب الإسلامي كتلك المكانة التي احتلَّها الرازي في المشرق الإسلامي، بل إن ابن الجزار قد فاق الرازي في تفريقه بين مكان العيادة للمرضى ومكان صرف الأدوية؛ فكان له عيادته الخاصة التي فتحها في منزله ليفحص بها المرضى، أمَّا صيدليته فقد أقامها على باب داره وأقعد فيها غلامًا له - كما أخبر المقريزي

كتاب طب الفقراء والمساكين لابن الجزار

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٣٢٢.

فيما سبق - وهذا الفصلُ من ابن الجزار بين الطب والصيدلة لم يكن ليقتصر على النواحي المهنية المتطلبة لذلك فحسب، بل يمكن أن نُضيف حسن أخلاقه، وترفُّعه عن الطلب وخاصة من الفقراء والنساء؛ لذلك لم يكن ابن الجزار يُعطي النساءَ الأدويةَ بصورةٍ مباشرة حتى لا يجبرهن على دفع قيمتها، أو لعله لم يكن يفعل ذلك مخافة النظر إليهن، والميل لهن، ومن ثم كان يُقعد غلامًا له ليعطي المرضى ما يحتاجونه من أدوية وغيرها؛ بِنَاءً على وصف ابن الجزار لها.

وقد صنف ابن الجزار القيرواني العديد من المصنفات والكتب المتنوعة، فله في كل بستان من المعرفة كتاب طيب الأثر، غزير المنفعة، ذكر الذهبي بعض مصنفاته فقال: «وله: كتاب (زاد المسافر في علاج الأمراض)، وكتاب في الأدوية المفردة، وكتاب في الأدوية المركبة يعرف بـ(البُغية)، وكتاب (العدة) وهو كتاب مطوَّل في الطب، و(رسالة النفس) وأقوال الأوائل فيها، وكتاب (طب الفقراء)، ورسالة في التحذير من إخراج الدم لغير حاجة، وكتاب الأسباب المولِّدة للوباء في مصر بطريق الحيلة في دفع ذلك، وكتاب المدخل إلى الطب سمَّاه (الوصول إلى الأصول)، وكتاب (أخبار الدولة وظهور المهدي بالمغرب)»[1].

على أن أشهر كتب ابن الجزار كتاب (زاد المسافر) فقد بقي هذا الكتاب من المراجع المهمة للباحثين وطلاب العلوم الطبية طيلة عقود من الزمن، ويتكون هذا الكتاب من جزأين يحتويان على سبع مقالات، تختصُّ في معالجة أمراض الكبد، والكلى، وأعضاء التناسل، وأمراض الجلد، والحميات، ولدغ الهوام، وأذى السموم، كما أنه لم يُهمل جانب الأدوية؛ فقد تحدَّث كثيرًا في هذا الكتاب عن تركيب عدد من الأدوية وعن كيفية استعمالها[2].

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٤١.

(٢) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٥١، ٢٥٢.

والحقُّ أن كتاب (زاد المسافر) قد أُلِّف ليكون دليلاً طِبِّيًا للمسافر إلى البلدان البعيدة التي لا يوجد بها طبيب، ثم وُجد أن هذا الكتاب غير مناسب للفقراء والمساكين، الذين قد يعجزون عن إدراك منافعه لفقرهم وقلَّة طاقتهم المادِّيَّة عن شراء موادّ العلاج، فصنَّف لهم كتاب (طب الفقراء والمساكين)؛ ليدلَّهم على طرق المداواة بالأدوية التي يسهل وجودها بأقلِّ ثمن وأيسر كلفة، ثم ما لبث أن صنَّف كتابًا آخر عالج فيه الحالات التي تصيب المسنين والمعمِّرين وهو كتاب (طب الشيوخ وحفظ صحتهم).

ولم ينس ابن الجزار الأطفال والصبيان من تصانيفه الطبية الرائعة، فألف كتابه القيم (سياسة الصبيان وتدبيرهم)، الذي بقي أمدًا طويلاً من المراجع الأصيلة والأساسية في علاج أمراض الأطفال، وقد نهج ابن الجزار في هذا الكتاب منهج الاختصاص في مجال طب الأطفال، وهذا الكتاب - كما ذكر عدد من مؤرخي العلوم الطبية - يحتوي على معارف علمية تتَّفق كثيرًا مع طب الأطفال المعاصر[1].

وكتاب (سياسة الصبيان وتدبيرهم) مُؤَلَّف من اثنين وعشرين بابًا، يبحث في تدبير شئون المَوْلُودِين في حالة الصحة والمرض، وقد حقَّقَه الحبيب الهيلة في تونس عام (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ويضم معلومات في صفات المرضعة وطعامها ولبنها، وفيما يعيب الطفل بحسب سنِّه من الأمراض؛ كالإسهال، ورطوبة الأذنين، والتهاب السُّرَّة ونتوئها، ونحو ذلك، وفيه باب في معالجة السعفة في رأس الطفل، وورم اليافوخ، وانتفاخ البطن، وأبواب أخرى في داء الصرع عند الصبيان، والوجع عند خروج الأسنان، وقروح الفم، وفي أسباب القيء، وفي الحيات والدود المتولدة في الأمعاء، وفي الحصى المتولدة في المثانة، وغير ذلك[2].

---

(١) السابق ص٢٥٢.

(٢) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، نقلاً عن علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٥٢.

ولعلنا في هذه الإطلالة السريعة قد تعرَّفنا على عالم نجيبٍ، وطبيب ذائع الشهرة من علماء وأطباء الحضارة الإسلامية، الذين كان لهم فضلهم، وأثرهم الباقي حتى يومنا هذا في الحضارة الغربية قبل الإسلامية، والتي تَرجمت له العديد من الكتب والمصنفات، وجعلت كُتبه من المراجع الأساسية التي يهتدي إليها السائرون في دروب العلوم الطبية المتنوعة.

***

ابن مندويه الأصفهاني..
النجيب المتميز

كان ابن مندويه الأصفهاني من الأطباء الأجلاَّء، والعلماء البارعين الذين أثَّروا في الحياة العلمية الإسلامية والإنسانية في القرن الرابع الهجري -العاشر الميلادي، لكن شهرته لم تصل حدَّها المرجوَّ؛ لأنه كان معاصرًا للشيخ الرئيس أبي علي الحسين ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ - ١٠٣٧م) الذي طغت شهرته على معظم من عاصروه.

وابن مندويه هو أحمد بن عبد الرحمن الأصفهاني، الذي لم يُعرف على وجه التحديد تاريخ مولده ومكان ذلك، لكن الواضح من نسبه أنه كان من أصفهان في بلاد فارس، وقد وصفه الصفدي في موسوعته (الوافي بالوفيات) أنه «من الأطباء المذكورين في بلاد العجم»[١]. وهذا دليل على شهرته ومكانته التي حظي بها بين قومه العجم (غير الناطقين باللسان العربي).

وليس غريبًا أن يخرج ابن مندويه بهذه النجابة والمكانة المتميزة في العلوم الطبية؛ فقد تركت تربيةُ أسرته له أثرًا غير قليل في نشأته العلمية المميزة؛ فقد كان والده من العلماء الأجلاَّء؛ ومن ثَمَّ شجَّع الوالد ولده على حب العلم والتعلم، غير أن الابن سلك مسلك العلوم التجريبية، مخالفًا في ذلك والده الذي أحبَّ الأدب واللغة، وهذا ما يُؤَكِّده القفطي بقوله: «وكان أبوه من البلغاء في زمانه يقوم باللغة والنحو والشعر»[٢].

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٧/ ٣٥.

(٢) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٧.

ولقد درس ابن مندويه العلوم الطبية، فبرع فيها، واشتغل بها، وذاعت شهرته بين العامة والخاصة؛ لذلك اختاره عضد الدولة البويهي ليكون أحد أطباء بيمارستانه الجديد في بغداد، والبالغ عددهم ٢٤ طبيبًا، وهذا دليل على عِظَم مكانته العلمية المرموقة التي وصل إليها حينئذٍ[1].

لذلك ونتيجة لممارسة ابن مندويه العمل الطبي في بيمارستان متقدِّم كالبيمارستان العضدي؛ فقد كان إنتاجه العلمي غزيرًا، يدلُّ على خبرة أصيلة، وعلم متبحر في المجال الطبي، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة العديد من المصنفات الرائعة التي أنتجها ابن مندويه؛ فقال: «ولأبي علي بن مندويه الأصفهاني من الكتب رسائل عدَّة، من ذلك أربعون رسالة مشهورة إلى جماعة من أصحابه في الطب»[2].

فهذا الإنتاج الغزير الذي ذكره ابن أبي أصيبعة في كلامه السابق يُدلل على قيمة ابن مندويه العلمية، ويمكن أن نقسِّم إنتاجه الطبي إلى قسمين:

القسم الأول: الأمور الطبية التي عالجها ابن مندويه من خلال رسائله الطبية القيمة التي شرح فيها توصيفات بعض الأمراض، وطُرُق علاجها، ومشاوراته ورأيه في كلٍّ منها، وهي على سبيل المثال لا الحصر؛ كما ذكر ابن أبي أصيبعة: «رسالة إلى أحمد بن سعد في تدبير الجسد، رسالة إلى عباد بن عباس في تدبير الجسد، رسالة إلى أبي الفضل العارض في تدبير الجسد، رسالة إلى أبي القاسم أحمد بن علي بن بحر في تدبير المسافر، رسالة إلى حمزة بن الحسن في تركيب طبقات العين، رسالة إلى أبي الحسن الوارد في علاج انتشار العين، رسالة إلى عباد بن عباس في وصف انهضام الطعام، رسالة إلى أحمد بن سعد في وصف المعدة والقصد لعلاجها...»[3].

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق.

وهذه الرسائل - على ما ذكر ابن أبي أصيبعة - توضِّح مدى اهتمام ابن مندويه بالمناحي الطبية المختلفة: من أمراض المعدة والجهاز الهضمي، ووصف علاج ما يطرأ عليها من أمراض، وكذا أمراض العيون والرمد، ولعلّه كان من أوائل المهتمِّين بهذا الجانب المهم في تلك الفترة الزمنية المبكِّرة من تاريخ طب العيون والرمد.

ولم تكتفِ رسائله بهذه الجوانب فقط، بل هناك رسائل أخرى تتضمَّن علاج بعض أمراض المسالك البولية والكلى، وأمراض السكر، والجهاز العظمي، وأمراض الجلد، وبعض أمراض الأذن، ومرض الاستسقاء، وأمراض الأطفال.

وقد اهتمَّ ابن مندويه بتأثير بعض المشروبات والأعشاب على الحالة الصحية وباستخداماتها الطبية، وكان ذلك في رسائل، منها: التمرهندي، والكافور، وفي فعل الأشربة على الجسد، وفي وصف مسكر الشراب ومنافعه ومضارّه[(١)].

والذي لفت انتباهنا في هذه الرسائل التي ذكرها ابن أبي أصيبعة رسالةٌ أرسلها ابن مندويه «إلى الأستاذ الرئيس في علاج شقاق البواسير»[(٢)]، وهذه الرسالة بجانب عرضها لعلاج قروح البواسير، إن دلّت فإنما تدلُّ على علاقة وثيقة بين ابن مندويه وابن سينا، ولا ريب أن كلاًّ منهما قد استفاد من الآخر؛ نظرًا للقرب المكاني بينهما، والذي أتاح لابن مندويه أن يدرس عن كثبٍ كُتبَ ابن سينا الذائعة الصيت والانتشار، وأتاح لابن سينا أن يستشير ابن مندويه - على ما يبدو من الرسالة السابقة - في علاج بعض الأمراض كمرض البواسير، وغيره.

وأما القسم الثاني: فيشتمل على إفراد ابن مندويه لمجموعة من الكتب المهمة التي تضمَّنت خبرته الكبيرة في ميدان العلوم الطبية، ومنها كتاب (المدخل إلى

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٧/ ٣٥.
(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٣٠٧.

الطب)، وكتاب (كُنَّاش[1] الطب) وكتاب (في الشراب)، وكتاب (الطبيخ)، وكتاب (الجامع المختصر من علم الطب)، وكتاب (الكافي في الطب) يُعرف بكتاب القانون الصغير في الطب[2].

وإلى جانب الاهتمامات الطبية التي عني ابن مندويه الأصبهاني فإنه كان على دراية كبيرة بعلوم اللغة والأدب والشعر، بل كان محبًّا للُّغة العربية وما يتعلَّق بها؛ وهذا ما نراه واضحًا في إحدى رسائله الطبية التي يوصي فيها الأطباء بضرورة تعلُّم اللغة العربية، وهي رسالة بعنوان: (رسالة في الردِّ على من أنكر حاجة الطبيب إلى علم اللغة)[3]؛ مما يُؤكِّد أن اللغة العربية كانت لغة العلم والثقافة في (القرن الرابع الهجري)، ولم تكن لغة القرآن والعلوم الشرعية فقط، كما يدلُّنا على مدى قدرة ابن مندويه في اللغة العربية، وإلمامه بضروبها.

هكذا كان ابن مندويه أحد أكابر علماء الإسلام المرموقين ذوي المكانة العلمية الرفيعة لدى الدولة الإسلامية، والتي عيَّنته في إحدى أكبر بيمارستاناتها في ذلك الوقت، ومن ذوي المكانة الرفيعة في إنتاجه العلمي الذي زاد على الأربعين ما بين رسالة وكتاب.

***

---

(١) الكُنَّاش والكنّاشة: أوراق تجعل كالدفتر يقيَّد فيها الفوائد والشوارد للضبط. الزبيدي: تاج العروس، باب الشين فصل الكاف مع النون ١٧/ ٣٦٩، والمعجم الوسيط ص٨٠٠.

(٢) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٧١، ٢٧٢.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ٧/ ٣٥.

السموأل بن يحيى المغربي..
الطبيب المتوقِّد

هو صموئيل بن يهوذا بن آبون، يهودي وابن لأحد الأحبار الكبار من اليهود، وكذلك كانت أُمُّه، وكعادة العرب في التعريب فقد سماه والده (السموأل).

طبيب أنجبته شجرة الحضارة الإسلامية، نبغ في علوم كثيرة؛ منها: الجبر، والطب، والهندسة، وغيرها، ويتَّفق المترجمون لحياته على أنه وُلِدَ بالمغرب، وتوفي بالشرق الإسلامي في مدينة (مراغة) من أرض أذربيجان عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م)، كما يذكرون أنه مات شابًّا، بما يُهَيِّئ لنا أن نتوقَّع أن مولده كان من بعد العقد الثاني من القرن السادس الهجري.

وفي سيرته الذاتية يحكي السموأل أن أباه هو الحبر اليهودي - يهوذا بن آبون- أعلم أهل زمانه بعلوم التوراة، وأقدرهم على التوسع والإنشاء[١]. كما كانت أمه متبحِّرة في علوم التوراة والعبرية كذلك؛ فهي سليلة أب من العلماء باليهودية، ويمتدُّ نسبها إلى السبط الذي منه موسى ﷺ[٢].

فهو إذن سليل بيت يهودي عريق في العلم، ثم هو طفل أتى بعد انتظار طويل؛ فكان الولد الذي أفرغ فيه أبواه خلاصة علمهما وتربيتهما، إلى الحدِّ الذي أكمل فيه العلم باللغة العبرية وبعلوم التوراة عندما كان في الثالثة عشرة من عمره[٣].

وبعد اطمئنان الأب إلى هذا الوعي بالتوراة وعلومها، انتقل السموأل إلى

---

(١) السموأل بن يحيى: إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي ص٤٦.

(٢) السابق نفسه ص ٤٦.

(٣) السابق ص٤٧.

تَشَرُّب باقي العلوم، فتعلَّم الحساب الهندي والزيجات (وهي الجداول الفلكية)، فأحكم هذين العلمين في أقل من سنة -كما يروي- ثم تعلَّم الحساب الديواني، وعلم المساحة، والجبر، والمقابلة، والهندسة.

ومن اللافت للنظر أننا نجد لروايته مع الطب طعمًا خاصًّا، فهو منذ أن بدأ تعلُّمه وهو يأخذ ما عند الشيوخ، ثم يتعلَّم الطب إلى جوارها، فبدأ تعلُّم الطب على يد الشيخ الأستاذ أبي الحسن الدسكري، ثم صار يتأمَّل ويشاهد ما يتَّفق من الأعمال الصناعية في الطب، والمعالجات التي يعالجها خاله أبو الفتوح بن البصري، وحين يكمل تعلمه في علم من العلوم ينتقل إلى غيره، لكنه يبدو حريصًا على أن يذكر أنه في تلك الفترة لا يقطع القراءة في الطب ومشاهدة علاج الأمراض، ثم يمضي بنا في رحلته العلمية ويُصِرُّ على أن يُذَكِّرَنا أن الطب كان يشغله بموازاة هذه العلوم، فيقول: «وأنا في خلال ذلك (يقصد: دراسة الجبر والهندسة) متشاغل بالطب».

إننا نلمح في حياة السموأل اهتمامًا خاصًّا بالطب؛ فهو إذ يتحدَّث عن شغفه بالعلوم الهندسية والرياضية يقول: «وكان بي من الشغف بهذه العلوم، والعشق لها ما يلهيني عن المطعم والمشرب إذا فكرت ببعضها». ثم ينقطع لها ليحلَّ معضلاتها، ويَرُدَّ على أربابها ممن سبقوه، ويُحَقِّق إنجازات ضخمة في التعديل على إقليدس في الهندسة، حتى يقول: «فتح الله عَلَيَّ كثيرًا ممَّا ارْتُجَّ[1] على مَن سبقني من الحكماء المبرَّزين».

ولكنه في خضمِّ هذه الإنجازات بدا حريصًا على أن يذكر إنجازاته في علم الطب، فيقول: «وفي خلال ذلك ليس لي مكسب إلاَّ بصناعة الطب، وكان لي منها أوفر حظٍّ؛ إذ أعطاني الله من التأييد فيها ما عرفت به كل مرض يقبل العلاج من الأمراض التي لا علاج لها، فما عالجت مريضًا إلاَّ وعُوفِيَ، وما كرهت علاج مريض

(١) ارتُجَّ: أُغلِق وأشكل وأُبهِم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (رتج) ٢/ ٢٧٩.

إلاَّ وعجز عن علاجه سائر الأطباء، وكفُّوا عن تدبيره (أي: توقفوا عن المحاولة) فالحمد لله على جزيل نعمته وفضله».

ثم يقول: «واتَّضح لي بعد مطالعة ما طالعته من الكتب التي بالعراق والشام وأذربيجان[1] وكوهستان[2] الطريقَ إلى استخراج علوم كثيرة، واختراع أدوية لم أعرف أني سُبقت إليها؛ مثل: الدردياق الذي وسمته بالمخلِّص ذي القوة النافذة، وهو يُبرئ من عدَّة أمراض عسيرة في بعض يوم، وغيرها من الأدوية التي رَكَّبتها، ممَّا فيه منافع وشفاء للناس بإذن الله تعالى»[3].

وهكذا، نبغ السموأل في كل هذه العلوم، وظلَّ الطب صُلب عمله، وأحد فروع نبوغه، حتى عمل لبيت البهلون أمراء أذربيجان[4].

ومن العلوم التي شُغِف بها وأحبَّها وتوفَّر عليها علم التاريخ، وهو الذي أكسبه بلاغة وفصاحة وبيانًا، وبعقله هذا الوقَّاد دخل من علم التاريخ إلى التفكير في الإسلام وفي اليهودية والمقارنة بينهما، وظلَّ في هذه الأيام سنينًا تتوَّق نفسه لأن يُسْلِمَ، ولكنه لا يجرؤ على هذا القرار خشية أن يَفجع به أباه، فظلَّ متردِّدًا حتى باعدت الأسفار بينه وبين أبيه، ثم حسم الأمر عنده رؤيا رآها في المنام للنبي محمد ﷺ، فأسلم من صبح هذا اليوم.

وبعد أن كان السموأل جنديًّا في كتيبة الحضارة الإسلامية يُثبت أنها حضارة إنسانية متفوِّقة استطاعت استيعاب كل من كانوا في ظلِّها الرغيد، ووفَّرت لهم فرصة أن يتفوَّقُوا وينبغوا دون أن تنظر بحساسية لاختلاف الدين أو العرق، انتقل

---

(١) أذربيجان: شمال غرب إيران حاليًا، وليست الجمهورية المعروفة التي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي.

(٢) مدينة تقع في مقاطعة كرمان بإيران حاليًا.

(٣) السمؤال بن يحيى: إفحام اليهود وقصة إسلام السمؤال ورؤياه النبي ص٥١.

(٤) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ١٥٥.

ليصبح جنديًا في كتيبة الإسلام نفسه، يُثبت أنه الدين الحقَّ الذي تهتدي إليه العقول الذكية الوقَّادة.

وانطلق السموأل بعد أن أشهر إسلامه (يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة عام ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢م)، وهو الإشهار الذي ارتجَّت له المراغة، وضج المسجد في صلاة الجمعة بالصلاة على النبي فرحة بإسلامه، ثم كانت الخطبة في مدحه والثناء عليه، وهو ما يدلُّنا على أن إسلام السموأل كان بعد نبوغه وذيوع أمره خاصة وأنه مات بعد اثنتي عشرة سنة عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م).

وألَّف السموأل بعدئذ كتابه (إفحام اليهود)، وهو الكتاب الذي صار مرجعًا في الردِّ على اليهود إلى يومنا هذا، وهو فريد في بابه، ردَّ فيه على اليهود بطريقتهم، وكيف لا وهو ابن حبر لم يكن في زمانه مثله، وأُمُّه من النجيبات العالمات، وهما معًا اهتمَّا بتعليمه علومَ التوراة، ولم يتركاه يتعلَّم شيئًا حتى استكملها، وذاع الكتاب وانتشر في حياته، وكانت له مناظرات كثيرة قوية[1].

ويصفه الصفدي بقوله: «وكان يتوقَّد ذكاءً»[2]. وهو الوصف الذي يُقَرِّره الذهبي[3]، وعامة المترجمين يُقَدِّمُون نبوغه في الرياضة والجبر والحساب، ويغلب عليه أن يُعرف بهذا، ولربما كُنَّا لم نعرف بما حقَّقه من نبوغ طبي لو لم يكتب سيرته بنفسه، فنتبين منها هذا الشغف والحرص والنبوغ الطبي، فقد ترك السموأل تراثًا علميًّا كبيرًا، وهذا ليس بمستغرب مع مَن كان في مثل ذهنه وموسوعيته؛ فقد بلغت مصنفاته خمسة وثمانين مصنَّفًا ما بين كتاب ورسالة ومقال[4]، ومن أهم كتبه في الطب كتاب (المفيد الأوسط في الطب) صنَّفه ببغداد للوزير مؤيد الدين أبي

(١) انظر التفاصيل: السموأل بن يحيى: إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٧٦.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٣٢٩.
(٤) علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٨٩.

إسماعيل الحسين بن محمد بن الحسن بن علي سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م)، وفي غير الطب: كتاب (الباهر في الجبر)، وألَّفه في التاسعة عشرة من عمره، وكتاب (إعجاز المهندسين)، وكتاب (القوامي في الحساب الهندي)، و(المثلث القائم الزاوية)، و(المنبر في مساحة أجسام الجواهر المختلطة لاستخراج مقدار مجهولها).. وغيرها[١].

* * *

(١)علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٨٩.

آل بختيشوع..
عائلة طبية رائدة

مع بداية انتشار الإسلام في العالم، وانفتاح المسلمين على أمم جديدة، وثقافات مختلفة، وانصهار الحضارات السابقة في بوتقة الإسلام، بدت الحاجة ملحَّة إلى ترجمة ما يفيد الحضارة الإسلامية من هذه الحضارات، فكانت البداية في عصر الخلافة الأموية، وبالتحديد منذ ظهور الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية.

لم تبدأ حركة الترجمة قوية منذ بداية الأمر، وإنما ظلَّت تحبو مرَّة تلو أخرى، حتى وصلت إلى مرحلة النضج الحقيقي فيما يُسَمَّى بالعصر الذهبي العباسي؛ إذ فُتح الباب على مصراعيه للثقافات والعلوم المختلفة.

وقد كان لغير المسلمين أثرٌ كبير في نقل هذه العلوم إلى العربية؛ وذلك لمعرفتهم بالتراث الهيليني واللغات المختلفة، وقد لعب السريان دورًا كبيرًا في عملية النقل من السريانية إلى العربية، وقد برزت بعض المناطق التي كان لها أثر فعَّال في تقدم عملية الترجمة، ومنها حران وجنديسابور والإسكندرية، وقد برز في هذه المناطق بعض المترجمين الذين كان لهم أثر فعَّال في حركة الترجمة؛ منهم:

آل بختيشوع:

وهي عائلة كبيرة اتخذت الطب حرفة لها ما يقارب ثلاثة قرون، وقد كان لهذه العائلة مكانة خاصَّة في قلوب خلفاء بني العباس؛ فقد كان منهم الوزراء والأطباء البارزون المحنَّكون، وقد ظلَّت هذه الأسرة محتكرة الطب حتى القرن الخامس الهجري تقريبًا، وقد كان أهمُّ ما يميز هذه العائلة أنه كلما مات منهم طبيب خلفه من هو خير منه، فكانوا يتوارثون العلم عن جدارة وتميُّز؛ لذلك كانت لهم مكانة

خاصَّة في نفوس الخلفاء العباسيين.

يأتي في مقدمة هذه العائلة مؤسسها الأكبر جورجيس بن جبرائيل آل بختيشوع، والذي كان يرأس المدرسة الطبية في جنديسابور، وكان عالمًا باللغتين اليونانية والسريانية، ومنذ ذلك الحين بدأ نجم آل بختيشوع يعلو ويرتفع بعدما استقدمه الخليفة المنصور إلى بغداد عندما أصابه مرض في معدته وعجز الأطباء عن علاجها، فلمَّا قَدِمَ شَخَّص مرضه ووصف له ما يناسبه، وقد عرض عليه الخليفة الإسلام إلاَّ أنه رفض، وقال: أنا على دين آبائي أموت. ثم رحل إلى بلدته وقد أوصى الخليفة له بخير، وقد استطاع أن ينال شهرة عظيمة في بغداد آنذاك.

أما عن كتبه، فله كتاب (الكُنَّاش)، وقد نقله حنين بن إسحاق من السريانية إلى العربية، وله كذلك كتاب الأخلاط، وقد بقي هذان الكتابان ردحًا من الزمن من المراجع الطبية الأساسية لطلاب العلوم الطبية، وقد نال كتاب الكُنَّاش شهرة واسعة بما كان يتناوله من معلومات غاية الأهمية، منها: أمراض المعدة وقروح الأمعاء، وغيرها الكثير.

وعندما ذهب جورجيس إلى بغداد بأمر الخليفة، استخلف ابنه بختيشوع[1] على المدرسة الطبية في جنديسابور، ولما عزم الأب على الرحيل إلى جنديسابور، أمر الخليفة المهدي أن يأتي الابن لبغداد ليحل محل أبيه، وعندما أصبح هارون خليفة أكرمه وقدره وعينه رئيسا للأطباء في بغداد[2].

بختيشوع الابن:

ما أن مات الأب حتى ورث الابن مجد أبيه في الطب، ونال شهرته في بغداد، وقد كان الابن مثل أبيه، فاضلاً عالمًا بصناعة الطب ويجيد ممارستها، ولا ريب في

(١) معنى بختيشوع: عبد المسيح؛ لأن في السريانية البخت هو العبد، ويوشع هو المسيح عليه السلام.
(٢) انظر علي الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص١٦٥.

ذلك؛ فقد استخلفه أبوه على البيمارستان في جنديسابور، ويكفي هذا شهادةً له على تفوُّقه من أبيه، الذي كان ضليعًا في الطب.

نال بختيشوع شهرة أبيه، ليس لكونه ابن جورجيس الشهير، وإنما لما خلفه من موروث علمي كبير جمعه في كتابه الشهير (التذكرة)، وقد أَلَّف هذا الكتاب لابنه جبرائيل، وهو يُعتبر كُنَّاشًا صغيرًا جمع فيه العديد من الأمراض المنتشرة في عصره؛ مثل: السل، والاستسقاء، وقروح المعدة، وغيرها الكثير.

جبرائيل بن بختيشوع:

أمَّا عن جبرائيل بن بختيشوع، فقد كان خير خلف لخير سلف، وقد نال علم والده وجدِّه؛ لذلك صار نابغة زمانه في الطب، وقد عُرف عنه أنه جيد التصرُّف في المداواة، عالي الهمة، حظيًّا عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، وقد حصَّل من جهتهم الأموال ما لم يُحصِّله غيره من الأطباء[1].

نال جبرائيل شهرة واسعة، حتى صار طبيبًا لجعفر بن يحيى البرمكي، كما كانت له منزلة كبيرة لدى المأمون، وذلك عقب الرسالة التي بعثها له في المطعم والمشرب، والتي بقيت دليلاً لأطباء عصره في مجال الأغذية.

ولجبرائيل من الكتب:

رسالته إلى المأمون في المطعم والمشرب، وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق، وكتاب في الباءة، ورسالة مختصرة في الطب، وله كُنَّاشه أيضًا.

ومن كلامه: أربعة تهدم أربعة؛ إدخال الطعام على الطعام قبل الانهضام، والشراب على الريق، ونكاح العجوز، والتمتع في الحمام[2].

---

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ١٤.

(٢) السابق ٢/ ٣٥.

أمَّا عن الطبيب الرابع في هذه الأسرة الطبية الكبيرة، والذي ما زال يحمل اسمها عاليًا في سماء علوم الطب في الدولة الإسلامية، والذي حمل اسم المؤسس الأول بختيشوع، والذي نال حظوة الخلفاء العباسيين مثل آبائه، فهو:

بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع:

كان سرياني المذهب، نبيل القدر، عظيم المنزلة والحال، وقد كان قريبًا من المتوكل، وكان المتوكل يُجِلُّه؛ لذا حصل منه على المال الكثير، حتى إنه كان يضاهي المتوكل في لبسه ومظهره، وقد كان مُتَدَيِّنًا، ويُكْثِر التعبُّد إلى الله، كما عُرِف عنه حبُّه الفكاهة وسماع النكت وفعل المزاح، ولا سيما مع يوحنا بن ماسويه، قال ذات يوم: «أنت يا أبا زكريا أخي من أبي. فقال يوحنا للحاضرين: اشهدوا على إقراره فلأُقَاسِمَنَّه ميراثه من أبيه. فقال بختيشوع على الفور: إن أولاد الزنا لا يرثون».

كان بختيشوع ذا منزلة كبيرة في الطب، وقد اشتهر بممارسة الطب بالقياس لا بالتجربة، كما أنه ركز على الوقاية من المرض.

ومن مؤلفاته في الطب:

نبذة في الطب، وصنائع الرهبان في الأدوية المركبة، وكتاب الحجامة، وهو كتاب على طريق السؤال والجواب.

ومن كلامه: الشرب على الجوع رديء، والأكل على الشبع أردأ منه.

وكانت وفاته سنة (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م).

بيد أن صيت العائلة المالكة لأمور الطب في عصرها قد خفت نسبيًّا في عهد عبيد الله بن بختيشوع بن جبرائيل، فلم يكن متمرسًا في الطب كأجداده، وقد عمل كاتبًا في ديوان الخليفة المقتدر بالله.

ولكن سرعان ما عاد نجم العائلة يسطع من جديد؛ إذ أنجب عبيد الله ولدًا

نجيبًا سمّاه جبرائيل.

جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع:

كان هذا الطبيب عالمًا فاضلاً، متقنًا لفنون الصناعة؛ لذلك علا شأنه، وذاع صيته، يكنى أبا عيسى، وتوفي سنة (٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م)، عمل جبرائيل في بلاط عضد الدولة البويهي، وكان له شأن عظيم بين أطباء عصره، وقد اعتكف على التأليف في آخر أيام حياته، وله من التصانيف:

- كُنَّاشه الكبير - الملقب بالكافي - في خمسة مجلدات، أَلَّفه للصاحب بن عبَّاد على طريق السؤال والجواب.
- كُنَّاشه الصغير، وأَلَّفه أيضًا للصاحب بن عباد.
- رسالة في عصب العين.
- مقالة في ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل، «بين آلات الغذاء وآلات التنفس».
- كما له كتاب المطابقة بين قول الأنبياء والفلاسفة.
- مقالة في الرد على اليهود.
- كما له مقالة في: لِمَ جُعِلَ من الخمر قربان محرم؟

بعد أن توفي جبرائيل خلفه ابنه عبيد الله، وقد ذاع صيته في الطب كذلك.

عبيد الله بن جبرائيل:

هو أبو سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس بن جبرائيل، توفي سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، كان فاضلاً وعالمًا متمرسًا، مشهورًا بجودة الأعمال، متقنًا أصولها وفروعها.

كان جيد المعرفة بعلم النصارى ومذاهبهم، وله عناية بالغة في صناعة الطب، ولم يكن عبيد الله متميزًا في المداواة فقط، ولكن كان متميزًا في فروع الطب المختلفة.

وقد اختلف مع الأطباء الذين يربطون الطب بالفلسفة، بل إنه يرى الطب من العلوم التطبيقية البحتة وليس له صلة بالفلسفة، إلاَّ بما يتعلَّق بالمنطق والاستقراء والاستنتاج[1].

ولعبيد الله تصانيف كثيرة؛ منها:

- كتاب الروضة الطبية، مقالة في الاختلاف بين الألباب، أَلَّفها سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م).
- كتاب التوصل إلى علم التناسل، ألفها سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م).
- كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر.
- كتاب الخاص في علم الخواص.
- كتاب طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها، أَلَّفه للأمير نصير الدولة.

تلك كانت لمحات من حياة السيرة والمسيرة لهذه الأسرة التي امتلكت زمام المبادرة في مجال العلوم الطبية المختلفة على مدار ما يقارب ثلاثة قرون، لا ينازعها فيه أحد وإلاَّ نافح الخلفاء عنهم من شدَّة تعلقهم بهم.

ولنا أن نوضح بعض اللمحات من هذه السيرة:

١ - كان فتح الإسلام لبلاد جنديسابور سببًا جليًّا في بزوغ نجم هؤلاء، فلم يكن أحد يسمع عن علمهم، اللهم إلاَّ أهل البلاد فقط، ولكن لَّما جاءهم الإسلام أفرد لهم مكانًا في تاريخ الحضارة الإنسانية كلها.

---

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص١٦٧.

٢- يجب ألاَّ ننسى دور آل بختيشوع في مجال الترجمة؛ فقد كان لهم الفضل في نقل كتب اليونان إلى العربية، وخاصة جورجيس الذي نقل معلومات بالغة الأهمية للخليفة العباسي المنصور، ثم تبعه أولاده من بعده.

٣- اختلف المؤرخون بأصل هذه العائلة: فمنهم من قال: إنهم من النساطرة السريان الذين نَمَوْا وترعرعوا في مدينة جنديسابور الإيرانية في العصر العباسي الأول. ومنهم من قال: إن أصلهم من سوريا، أو من شمال ما بين النهرين، ولكنهم نزحوا إلى مدينة جنديسابور لشهرتها المعروفة في ميدان العلوم الطبية[١].

٤- كان لآل بختيشوع منزلة كبيرة في قلوب الخلفاء العباسيين، بل في قلوب المسلمين جميعًا، وقد بلغ هذا الحب مبلغه؛ حتى إن الخلفاء كانوا يَدْعُونَ لهم في صلاتهم أن يهديهم الله إلى الإسلام؛ لما كانوا يتمتَّعُون به من خُلق فاضل وعلم غزير، وممَّا يُذْكَر في هذا المجال أن الخليفة الرشيد لـمَّا حجَّ قال لجبرائيل بن بختيشوع: «يا جبرائيل، علمت مرتبتك عندي؟ قال: يا سيدي، وكيف لا أعلم؟! قال له: دعوتُ لك - والله - في الموقف دعاءً كثيرًا. ثم التفت إلى بني هاشم، فقال: أذكرتم قولي فيه؟ فقالوا: ياسيدنا، ذِمِّيٌّ. فقال: نعم، ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائه. فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين»[٢].

على أن التاريخ الإسلامي قد شهد العديد من هذه النماذج المتوارثة، وخاصة في مجال العلوم الطبية، فهناك آل ثابت بن قرة وآل حنين بن إسحاق، وآل ماسويه أبو يوحنا، وهناك عائلة ابن الأثردي، وكل هؤلاء كان لهم فضل وعلم وشهرة في مجال العلوم الطبية[٣].

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص١٦٨.
(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢١.
(٣) ذكر ابن أبي أصيبعة هذه العائلات في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) مع ترجمة مفصلة لهم.

داود الأنطاكي.. العبقري الضرير

هو داود بن عمر الأنطاكي، وبرغم كونه أعمى إلاَّ أنه لقب (بالبصير)، وُلِدَ بفرعة سنة (٩٤٢هـ)، ثم انتقل مع والده إلى مدينة أنطاكية وهو طفل، فنشأ وترعرع وعوفي من كساحه فيها[١]، يلقبونه بالحكيم الماهر الفريد، والطبيب الحاذق الوحيد، أبقراط زمانه[٢].

وكعادة العلماء في زمانه كان موسوعيًّا «عالمًا بالطب والأدب، انتهت إليه رئاسة الأطباء في زمانه، حفظ القرآن وقرأ المنطق، والرياضيات، وشيئًا من الطبيعيات، ودرس اللغة اليونانية فأحكمها»[٣].

يروي ابن العماد صاحب (شذرات الذهب) عنه قصة شفائه من مرض الكساح، الذي كان قد ابتلى به، قوله: «إنه وُلِدَ بأنطاكية بهذا العارض. قال: وقد بلغت سيَّارة النجوم، وأنا لا أستطيع أن أقوم لعارض ريح تحكم في الأعصاب، وكان والدي رئيس قرية حبيب النجار، واتخذ قرب مزار سيدي حبيب رباطًا للواردين، وبنى فيه حجرات للمجاورين، ورتَّب لها في كل يوم من الطعام ما يحمله إليه بعض الخدام، وكنت أُحْمَلُ إلى الرباط فأقيم فيه سحابة يومي، وإذا برجل من أفاضل العجم يُدعى محمد شريف نزل بالرباط، فلمَّا رآني سأل عني فأُخبر، فاصطنع لي دهنًا، ومددني في حرِّ الشمس ولفَّني في لفافة من فَرقي إلى قدمي، حتى كدتُ أموت، وتكرَّر منه ذلك الفعل مرارًا من غير فاصل، فقمت على قدمي، ثم أقرأني في المنطق، والرياضي، والطبيعي، ثم أفادني اللغة اليونانية»[٤].

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٦٦.
(٢) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص٤١٩.
(٣) الزركلي: الأعلام ٢/٣٣٣.
(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨/٤١٦.

وكعادة طلبة العلم في ذلك الوقت لم يبقَ داود في أنطاكية طويلاً، بل غادرها إلى دمشق لكي يتتلمذ على يد كبار الأطباء هناك، ثم اتجه إلى القاهرة وهناك ذاع صيته في نقده الأمينِ والبنَّاءِ لبعض الكتب الطبية القديمة، فأُسندت إليه رئاسة الأطباء في القاهرة، ثم ذهب إلى مكة لأداء مناسك الحجِّ، فاستقرَّ فيها يمارس مهنة الطب بالتلمس والاستجواب، وظلَّ هكذا إلى أن انتقل إلى رحمة الله عام (١٠٠٨هـ/ ١٦٠٠م)(١).

إنجازاته:

لقد أُثِر عن داود الأنطاكي الجد والنشاط وعلو الهمة في طلب العلم؛ لذلك - وعلى الرغم من كونه ضريرًا - فإن عاهته تلك لم تمنعه من دراسة الطب، بل ولا من التفوق فيه على أقرانه، فقَدَّم الكثير من الإنجازات الطبية، ولكن أهم ما يُذْكَر له هو أنه قام بعرض مؤلفات مَن سبقوه، ونقدها نقدًا أمينًا، ثم اختطَّ لنفسه (احتفظ لنفسه) خطَّة في البحث، قال: إنها تتكوَّن من عشرة قوانين:

فكان يذكر الأسماء بالألسن المختلفة، ثم الماهية، ثم الحسن والرديء، ثم ذكر المنافع في سائر أعضاء البدن ثم كيفية التصرف فيه مفردًا أو مع غيره، ثم المضار، ثم ما يصلحه، ثم المقدار، ثم ما يقوم مقامه إذا فقد.

وكان أهم ما قدمه داود الأنطاكي هو الزمان الذي يقطع فيه الدواء ويدخر حتى لا يفسد (أو ما نسميه الآن تاريخ الصلاحية)، ثم موطن الدواء، ثم أثر البيئة على فعل الجوهر وآثاره، وقد عرض داود لمئات من الأنواع النباتية وعشرات من أنواع الحيوانات والمعادن مما تتخذ منه عقاقير وأدوية(٢).

بالإضافة إلى ذلك قام داود الأنطاكي بوضع عدة قواعد لصناعة الأدوية

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٤٦.
(٢) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ٤٢١.

وطرق العلاج، كما ذكر العديد من الوصفات من الأكحال والأدهان والتراكيب المختلفة، وعلى الرغم من أنه استخدم بعض الوصفات التي كان يستخدمها العامة، والتي لا يُقِرّها الطب، إلاَّ أنه ظلَّ له فضل كبير في هذا المجال، وكتبه ظلَّت مصدرًا لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة هذا المجال.

وعن هذه الموسوعية يتحدث أحمد بن عيسى فيقول: «الرئيس داود بن عمر الأنطاكي نزيل القاهرة المعزية الشيخ الإمام المميز على مَن له بها المزية، المتوحّد بأنواع الفضائل، والمتفرِّد بعلوم الأوائل، شيخ العلوم الرياضية سيما الفلسفة، والعلوم الحكيمة، وعلم الأبدان القسيم لعلم الأديان، فإنه بلغ فيها الغاية التي لا تُدْرَك، وانتهى منها إلى الرتبة التي لا تكاد تُمْلَك، مع فضل في جميع العلوم ليس لأحد وراءه فضله، وعلم لم يَحْوِ أحدٌ في عصره مثله، وأدب يغضّ منه الناظر، ويحارُ في وصفه الفكر والخاطر... وكانت له خلوة بالمدرسة الظاهرية تجاه البيمارستان يجلس بها نهارًا».

قال تلميذه الفاضل الخفاجي في ريحانيته في ترجمته: «ضرير بالفضل بصير، كأنما ينظر إلى خلف سِتارة الغيب بعين فكر خبير، لم تر العين مثله بل لم تسمع الآذان، ولم يتحدث بأعجب منه، إذ جس النبض نبضًا لتشخيص مرض أظهر من أعراض الجواهر لكل غرض، فيفتن الأسماع والأبصار، ويطرب بجس النبض ما لا يطربه جسّ الأوتار، يكاد من رقَّة أفكاره يجول بين الدم واللحم، لو غضبت رُوح على جسمها ألف بين الروح والجسم، فسبحان من أطفأ نور بصره وجعل صدره مشكاة نور، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»[1].

ولداود بن عمر الأنطاكي عجائب في معرفته للنبض؛ فإنه كان يمارس الطب

---

(١) أحمد عيسى بك: معجم الأطباء ص١٨٦.

بالتلمُّس، وعن هذا يقول أحمد بن عيسى: «أما معرفته لأقسام النبض فإن لـه مَنْقَبة باهرة، وكرامة على صدق مدعاه ظاهرة، يكاد لقوة حدسه يستشفّ الداء من وراء حجابه، ويناجيه بظاهر علاماته وأسبابه، حُكِيَ أن الشريف حسن لما اجتمع به أمر بعض إخوانه أن يعطيه يده ليجسَّ نبضه، وقال له: جسَّ نبضي. فقال له: هذه اليد ليست يد الملك. فأعطاه الأخ الثاني يده. فقال كذلك، فأعطاها الشريف حسن يده، فقَبَّلَها، وأخبر كلاً بما هو ملتبس به، فتعجَّبُوا من حذقه، وحُكِيَ أنه استدعاه لبعض نسائه، فلما دخل قادته جارية، ولما خرجت به قال للشريف حسن: إن الجارية لما دخلت بي كانت بكرًا، ولما خرجت بي صارت ثيبًا. فسألها الشريف حسن وأعطاها الأمان من المعاقبة، فأخبرته أن فلانًا استفضَّها قسرًا، فسأله فاعترف بذلك»[1].

وعن أخلاقه وخشيته وعلمه يقول ابن العماد: «وكانت فيه دعابة، وحسن سجايا، وكرم، وخوف من المعاد، وخشية من الله، كان يقوم الليل إلاَّ قليلاً، ويتبتَّل إلى ربه تبتيلاً، وكان إذا سُئل عن شيء من العلوم الحكمية والطبيعية والرياضية أملى ما يُدهش العقل، بحيث يُجيب على السؤال الواحد بنحو الكراسة، ومن مصنفاته (التذكرة) جمع فيها الطب والحكمة، ثم اختصرها في مجلدة، وشرح قصيدة النفس لابن سينا شرحًا حافلاً نفيسًا»[2].

مؤلفاته:

لقد كان لداود الأنطاكي العديد من المؤلفات الطبية التي أصبحت بمثابة مرجع مهم يعتمد عليه طلاب العلم في دراسة علم الطب؛ ومنها على سبيل المثال:

كتاب (**كفاية المحتاج في علم العلاج**) الذي يعتبر من أبرز الكتب الطبية التي خرجت في ذلك الوقت؛ حيث وضح فيه رأيه حول المؤلفات الطبية القديمة

---

(١) أحمد عيسى بك: معجم الأطباء ص١٩٠-١٩١.

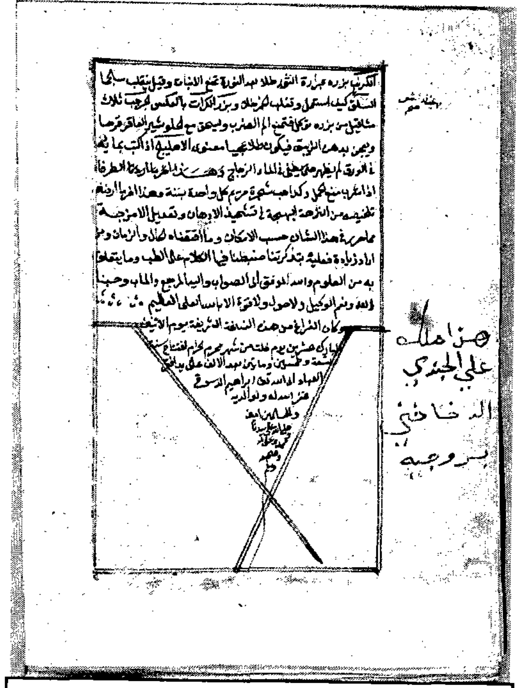
(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨/ ٤١٦.

المعروفة بين الناس في تلك الفترة، فكان ناقدًا لتلك الكتب، مع تحاشي التجريح بقدر الإمكان، لأنه يؤمن بالنقد البنَّاء.

أمَّا أهم ما يميز ذلك الكتاب أنه جمع فيه الأفكار المنقحة لمن سبقه من الأطباء الأوائل؛ لذلك أصبح هذا الكتاب مرجعًا مهمًّا لكل طلاب العلوم الطبية، كما أن داود الأنطاكي جمع في هذا الكتاب بين معرفته الفلسفية والطبية، ويتَّضح ذلك من خلال طريقة عرضه لبعض النظريات الطبية ولدقَّة ولحسن تنسيقه وتبويبه لهذا الكتاب[1].

ولم تقتصر جهود داود الأنطاكي في التأليف على هذا الكتاب فقط بل ألَّف الكثير من الكتب الأخرى منها:

- الكامل في الطب.
- تذكرة النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة.
- كتاب حجر الفلاسفة.
- كتاب استعمال التنجيم في الطب.
- كتاب البهجة والدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة.
- كتاب نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان.



رسالة النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة لداود الأنطاكي

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٦٨.

- كتاب ألفية في الطب.
- كتاب شرح عينية ابن الملكي في طب الملوك.
- كتاب مجمع المنافع البدنية.
- كتاب زينة الطروس في أحكام العقول والنفوس، وغيرها من المؤلفات[1].

أقواله:

كانت لداود الأنطاكي بعض الأقوال التي كانت نتاجًا لخبرته العلمية بهذا المجال؛ منها على سبيل المثال:

قوله في طلب العلم: عار على مَن وُهب النطق والتميز أن يطلب رتبة دون الرتبة القصوى. ويقول: كفى بالعلم شرفًا أن كلاً يدعيه، وبالجهل ضعة أن الكل يتبرأ منه، والإنسان إنسان بالقوة إذا لم يعلم، فإذا علم كان إنسانًا بالفعل.

وهو هنا يُكَرِّر قولة المتنبي من قبل:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا … كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

ثم يؤكد على أن الإنسان لا يُحَقِّق إنسانيته إلاَّ بالعلم وباستعمال هذا العقل؛ ولأننا أمام موسوعي فيلسوف، فسنقرأ له إفادة جاء فيها بخبرة التاريخ ثم خبرة التجربة الحاضرة، فيحكي قائلاً: «إنه كان من علوم الملوك، يتوارث منهم، ولم يخرج عنهم خوفًا على مرتبته، وقد عوتب أبقراط في بذله للأغراب، فقال: رأيت حاجة الناس إليه عامة والنظام متوقف عليه، وخشيت انقراض آل أسفيموس، ففعلت ما فعلت».

ثم يضيف داود قائلاً: لقد وقع لنا مثل هذا؛ فإني حين دخلت مصر، ورأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية، يمشي إلى أوضع يهودي للتطبب، فعزمت على أن أجعله كسائر العلوم، يُدرس ليستفيد به المسلمون، فكان ذلك وبالي ونكد

---

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٦٨.

نفسي وعدم راحتي من سفهاء لازموني قليلاً، ثـم تعـاطوا الطب؛ فضرُّوا النـاس في أموالهم وأبدانهم وأنكروا الانتفاع بي[1].

ثم يعطي خلاصة تجربته فيما يبدو بخصوص الطب والطبيب، وهي نصيحة خالدة كأنها تشريح يصف متى وكيف يفسد الطبيب: ينبغي لهذه الصناعة الإجلال والتعظيم والخضوع لمتعاطيها لينصح في بذلها، وينبغي تنزيهه عن الأرذال، والضنِّ به على ساقطي الهمة؛ لئلاَّ تدركهم الرذالة عند واقع في التلف فيمتنعون، أو فقير عاجز فيكلفونه ما ليس في قدرته[2].

وإذا تجاوزنا الطب سنراه يقسم العلوم والمعارف إلى أقسام، عرفها وسمَّاها، وحدَّد مدلولاتها، فلم يترك الكيمياء، أو الفلك، أو الرياضة، أو الفقه، أو المنطق إلاَّ وقد رسم حدوده، وبَيَّنَ أغراضه ومراميه.

ثم إذا تجاوزنا طب الأبدان سنجده في مقام طب النفوس يقول:

- عليك بحسن الخلق؛ بحيث تسع الناس، ولا تُعَظِّم مرضًا عند صاحبه.
- ولا تُسِرَّ لأحد عن مريض، ولا تجس نبضًا وأنت معبس، ولا تخبر بمكروه.
- ولا تطلب بأجر، وقَدِّم نفع الناس على نفعك، واستفرغ لمن ألقى إليك زمامه ما في وسعه، فإن ضيعته فأنت ضائع[3].

ونتيجة لتلك الإنجازات التي قام بها داود الأنطاكي حصل على شهرة واسعة بين معاصريه، وأصبحت كتبه وأبحاثه مصدرًا للباحثين في مجال العلوم الطبية.

(١) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ٤١٩، ٤٢٠.
(٢) السابق نفسه ص ٤٢٠.
(٣) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٦٧.

النجيب السمرقندي.. الطبيب الحكيم

هو أبو حامد محمد بن علي بن عمر نجيب الدين السمرقندي، استشهد عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) في هراة، عندما دخلها جنكيز خان وقتل الآلاف من العلماء في تلك الفترة، فهو بهذا واحد من خسائر البشرية ومصاب من مصائب الحضارة الإنسانية التي أوقعتها بهم سيول التتار الهمجية.

نبغ السمرقندي في مجال العلوم الطبية؛ فكان من أشهر الأطباء في هذا المجال، وتميز بثقافته الواسعة في مجال العلوم الطبية، إلى جانب دقَّته وأمانته العلمية، لهذا كانت مؤلفاته من المراجع الضرورية للباحثين وطلاب العلم في هذا المجال[(١)].

نذر أبو حامد السمرقندي حياته للعلم والتعليم، فانقطع في أواخر حياته للتأليف والتدريس لطلاب العلوم الطبية، وكان الطلاب يأتون إليه من كل أنحاء الأرض ليتعلَّمُوا على يده، ولهذا احتل السمرقندي مكانة مرموقة بين زملائه الأطباء، بالإضافة إلى حكمته وعلمه وتكوينه العلمي[(٢)].



كتاب الأسباب والعلامات للسمرقندي

إنجازاته:

وكان أهمّ ما قدمه نجيب السمرقندي من خدمات جليلة في مجال العلوم الطبية كتاب **(الأسباب والعلامات في الطب)**.

---

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤١١، ٤١٢.
(٢) السابق نفسه ص ٤١٢.

وقيمة الكتاب في أنه يحتوي حصيلة خبرته ومشاهداته وتجاربه العلمية في مجال الطب، بالإضافة إلى المعارف التي اقتبسها من كتاب (القانون) في الطب لابن سينا، وكتاب (كامل الصناعة الطبية) لعلي بن الأهوازي، وكتاب (المعالجات البقراطية) في الطب لأحمد بن محمد الطبري؛ لذلك جاءت أفكاره في هذا الكتاب مفيدة للباحثين في هذا المجال[1].

ويُثني حاجي خليفة على شمول وإحاطة كتاب (الأسباب والعلامات في الطب) فيقول: «جمع العلل والأمراض الجزئية على سبيل الاستقصاء؛ حتى لا يشذَّ منها علَّة مع أسبابها وعلاماتها، وأردف كل نوع بعلاج مجمل نقلاً من كتب الطب»[2].

وممَّا زاد في قيمة هذا الكتاب وشهرته ذلك الشرح الذي قام به برهان الدين نفيس بن عوض بن حكيم المتطبب الكرماني، وهو شرح لطيف ممزوج، حقق فيه فأجاد، وأوضح المطالب فوق ما يراد، وفرغ من تأليفه بسمرقند في أواخر صفر سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأهداه إلى السلطان ألوغ بك»[3].

وغير هذا الكتاب العَلَم أَلَّف نجيب السمرقندي مؤلفات أخرى منها:

- كتاب الأقرباذين الكبير.
- تركيب الأدوية القلبية.
- كتاب تشريح العين.
- كتاب أغذية المرضى.
- أبدال الأدوية.
- رسالة في مداواة وجع المفاصل.

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤١٢.
(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٧٧.
(٣) انظر: السابق ١/ ٧٧.

- الأقرباذين الصغير.

- كتاب النجيبيات: ويتكون من ستة أقسام؛ تبحث في أسباب الأمراض وعلاماتها، والأدوية المفردة، والأغذية والأشربة، والأدوية المسهلة، وأصول تركيب الأدوية، وقد تُرْجِمَ الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، ونُشِرَ مع النصِّ العربي بمدينة فلادلفيا عاصمة ولاية بنسلفانيا عام (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)[(١)].

ومن استقراء مؤلفات أبي حامد السمرقندي يتبين أنه قَدَّم الكثير من المعلومات الطبية لأطباء العرب والمسلمين الأوائل، وهي المعلومات التي تناولها بالشرح والتعليق، ولم يكتفِ بهذا الأمر بل عَدَّل وصحَّح بعض الأمور.

وكانت للسمرقندي أفكار طبية جديدة لم يسبقه أحد إليها، تلك الأفكار التي ساهمت بشكل كبير في تطوُّر علم الطب، والدليل على ذلك أن المكتبات العربية والإسلامية والعالمية مليئة بمؤلفاته، التي أصبحت أساسًا قويًّا لازدهار الحضارة العربية والإسلامية منذ القرن السابع الهجري.

وكان ممَّا قَدَّمه السمرقندي في خدمة العلوم الطبية أنه كان يعتمد على التجربة العلمية؛ حيث كانت موجَّهة ومدروسة بعمق؛ لذلك صار من الأطباء الكبار في هذا المجال[(٢)].

وكعالم هو ثمرة من ثمرات الحضارة الإسلامية؛ حيث يمتزج العِلْم بالتقوى، وحيث يرى العالِمُ أن ما حصَّله من علوم هو من فضل الله عليه، بعكس حضارات قديمة كانت ترى العِلْم منتزعًا من الإله انتزاعًا، وترى أن كل تَعَلُّم جديد هو ارتفاع بالإنسان وانحطاط بالإله، كان نجيب السمرقندي يكتب في أول كتابه الأهم هذه العبارة الخالدة: (الحمد لله على نعمائه السابغة...)[(٣)].

---

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٤١٣.
(٢) السابق نفسه ص٤١٣، ٤١٤.
(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٧٧.

ابن الطفيل.. الطبيب الفيلسوف

موسوعي آخر، يعرفه العالم على أنه فيلسوف عظيم، ولكن عمله كطبيب حاذق في بلاط أعظم خلفاء دولة الموحدين بالمغرب العربي ومؤلفاته الطبية بل والفلسفية تجعلنا نعرف أنه من كبار علماء الطب المسلمين.

إنه محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل، يكني بأبي بكر وينتسب لقبيلة قيس العربية الكبرى ذائعة الصيت، حتى قسم العرب إلى قيسيين ويمنيين، وهو المعروف بابن الطفيل.

وُلِدَ في وادي آش، وهي مدينة في الشمال الشرقي من غرناطة، وتختلف الروايات حول تاريخ مولده، فالزركلي يثبت أنها (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) [١]، بينما قال عمر كحالة أنه وُلِدَ عام (٥٠٦ هـ/ ١١١٠م) [٢].

ولا تتوافر معلومات كثيرة عن فترة الطفولة والنشأة في حياة ابن الطفيل، ولكنه رحل إلى غرناطة مبكرًا، وهناك كان النبوغ والظهور، ففيها تعلَّم الطب وعمل بالكتابة، وكان يكتب لرؤساء غرناطة؛ فكان من خواص الريس أبي جعفر، وأبي الحسن بن ملحان [٣]، ومع نبوغه وسطوع نجمه عمل كاتبًا لوالي غرناطة [٤]، بل وتولَّى الحجابة (كبير الوزراء) في بلاط غرناطة [٥].

ومع ازدياد صيت ابن الطفيل، استدعاه خليفة دولة الموحدين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ليكون وزيره وطبيبه الخاص؛ إذ كان أبو يعقوب ممن شُغِفُوا

(١) الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٤٩.

(٢) عمر كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية ١٠/ ٢٥٩.

(٣) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ٢/ ٤٧٩.

(٤) ابن الأبار: التحفة، نقلاً عن لسان الدين بن الخطيب (السابق).

(٥) على عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٦٤.

بالعلم والفلسفة، وأمر بجمع كتب الفلسفة من أنحاء الأرض فجُمعت له حتى ساوت المكتبة الأموية في عهد الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله بالأندلس قبل هذا العهد بحوالي مائتي سنة.

وفي المغرب بلغ ابن الطفيل المكانة العظمى عند الخليفة حتى قال المراكشي: «وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له، بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أيامًا ليلاً ونهارًا»[1].

ولابن الطفيل يعود الفضل في الشهرة الواسعة للفيلسوف ابن رشد، فهو الذي استقدمه إلى المغرب وقَدَّمَه إلى الخليفة أبي يوسف الموحدي، فحظي عنده، وبذا صار واحدًا من أعلام التاريخ الإنساني كله.

تميَّز ابن الطفيل بالموسوعية التي شملت كثيرًا من أوجه العلم، فقد «كان عالمًا، صدرًا، حكيمًا، فيلسوفًا، عارفًا بالمقالات والآراء، كلفًا بالحكمة المشرقية، محققًا، متصوِّفًا، طبيبًا ماهرًا، فقيهًا بارع الأدب، ناظمًا، ناثرًا، مشاركًا في جملة من الفنون»[2].

مؤلفاته:

كان لموسوعية ابن الطفيل بصمة خاصة على مؤلفاته، فاستطاع بموهبته في الشعر أن يصوغ خبرته الطبية في قصيدة بلغت أكثر من (سبعة آلاف وسبعمائة) بيت، وهي ما زالت مخطوطة وموجودة في مكتبة القرويين بفاس برقم (٣١٥٨)[3].

وإذا كان قد جمع الطب بالشعر في قصيدة، فسنراه كذلك يصوغ الطب وتتبدَّى خبرته في جانب التشريح عبر مؤلفه الأشهر في الفلسفة (رسالة حي بن يقظان)،

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٣١٢.
(٢) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ٢/ ٤٧٩.
(٣) الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٤٩.

فإنه شرح «على لسان بطل قصته الشهيرة حي بن يقظان تشريح الغزالة، وبَيَّنَ وصف الأعضاء التي شاهدها من الجلد حتى القلب»[1].

وغير هذا له رسالتان في الطب[2]، كما له مع ابن رشد -الفيلسوف والطبيب المشهور- مباحثات في رسم الدواء جمعها ابن رشد في كتاب[3].

ويُثبت له المترجمون تآليف متنوعة في الطبيعيات والإلهيات والفلسفة والطب والفلك، حتى إن له نظرية في الفلك خالف فيها بطليموس، قال بشأنها تلميذه أبو إسحاق البتروجي وهو الفلكي الشهير: «ولا عجب فإن علمه غني عن الإطناب»[4]. ومن مؤلفاته (أسرار الحكمة المشرقية)، و(النفس) [5].

ومن المؤسف أنه لم يصل إلينا شيء من ثروته العلمية هذه إلاَّ رسالته (حي بن يقظان)، والمخطوطة التي تحتوي القصيدة الطبية الموجودة بمكتبة القرويين.

وممَّا يلفت النظر ويثبت رسوخ قدم ابن الطفيل في علم الطب أن مؤرخ الأندلس المقري صاحب (نفح الطيب) حين أثبت فخر الأندلس بمن فيها من العلماء ذكر ابن الطفيل في مجال الطب، وإن أشار إلى علوِّه في الفلسفة فقال: «وهل لكم في الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدم في علم الفلسفة؟» [6].

ومن غير العجيب أن يُعَبِّر ابن الطفيل عن الصفة المميزة التي طَبَعَتْ بها الحضارةُ الإسلامية نفوس أبنائها، حيث لا تضادَّ بين العلم والدين، بل العلم نفسه

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٤٤.
(٢) عمر كحالة: معجم المؤلفين ١٠/ ٢٥٩.
(٣) الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٤٩.
(٤) انظر: محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ص٩٨.
(٥) عمر كحالة: معجم المؤلفين ١٠/ ٢٥٩، والزركلي: الأعلام ٦/ ٢٤٩.
(٦) أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٣/ ١٩٣.

نعمة من الله، وطلبه واجب على العبد، وبذله عبادة وقربة، وحيث الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها.

يذكر المراكشي عنه أنه «صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي، ونبذ ما سواه، وكان حريصًا على الجمع بين الحكمة والشريعة؛ مُعَظِّمًا لأمر النبوات ظاهرًا وباطنًا، هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية، وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية[1] مع عدة أصناف من الخَدمة؛ من الأطباء، والمهندسين، والكتاب، والشعراء، والرماة، والأجناد، إلى غير هؤلاء من الطوائف، وكان يقول: لو نَفَق عليهم علمُ الموسيقى لأنفقتُه عندهم»[2].

فرحم الله ابن الطفيل وهيأ مَن يُخْرِج لنا كنوزه من بين المخطوطات الكثيرة التي ما زالت مجهولة ومدفونة في أنحاء الأرض الإسلامية الواسعة التي حكمها الإسلام يومًا.

* * *

(١) الجامكيَّة: أي رواتب خدَّام الدولة.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٣١٢.

ابن رضوان المصري.. إمام الطب

طبيب آخر، كان رئيس الأطباء في كل مصر في زمنه، وله مع النبوغ قصة مختلفة.

هو أبو الحسن بن رضوان بن علي بن جعفر، وُلِدَ بالجيزة في مصر، وبها نشأ ونبغ وتصدَّر الطب إلى أن مات في سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) [١].

وهو عصامي، مات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره [٢]، فاشتغل بعدَّة صناعات كالطب والتدريس ليعول نفسه، حتى نبغ في الطب فأصبح دخله من الطب يكفيه، وكان في السنة الثانية والثلاثين كما يروي عن نفسه [٣].

عاش ابن رضوان في حكم الدولة العبيدية (الفاطمية)، وبلغ من نبوغه في الطب أن صار رئيس الأطباء للحاكم [٤] صاحب مصر [٥].

وقصة النبوغ المختلفة لابن رضوان هي ما كان من معلم جلس إليه صغيرًا ليتعلَّم الطب، فكان المعلم يقرأ من الكتاب دون أن يفسِّر ويُعَلِّقَ على ما يقرؤه؛ فانصرف عن الجلوس للشيوخ، وأكبَّ على كتب الطب يلتهمها التهامًا، ومن هذه الحصيلة العلمية النظرية، ومن مشاهداته العملية تَكَوَّن الطبيب النابغة أبو الحسن علي بن رضوان.

ولذا أَلَّف كتابًا يقول فيه: إن التعلم من الكتب أفضل من التعلم من الشيوخ.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٤١١.

(٢) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٢٦.

(٣) انظر سيرته في ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٤٠٢ وما بعدها.

(٤) المرجَّح أنه الخليفة المستنصر بالله، وأن الصفدي كان يقصد حاكم مصر وليس الحاكم بأمر الله؛ إذ أن الحاكم مات سنة (٤١١ هـ) قبل أن يكون ابن رضوان نابغًا ومعروفًا، فضلاً أن يكون رئيس الأطباء.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٧٤.

وهي النظرية التي قال بها، وخطَّأه فيها كثير من معاصريه ولاحقيه، خاصَّة ابن بطلان الذي أفرد كتابًا للردِّ على هذا[1].

أقوال العلماء:

لكن الذين ترجموا لابن رضوان - وإن لم يوافقوه على هذا المنهج - اعترفوا له بالنبوغ في الطب، وكذا في الفلسفة، فهو - أيضًا - من الموسوعيين الذين جمعوا بين فنون شتى.

فيقرِّر مؤرخ الإسلام الذهبي أنه «صاحب المصنَّفات، من كبار الفلاسفة الإسلاميين»[2]. ويقول: «الفيلسوف الباهر.... واشتغل في الطب، ففاق فيه، وأحكم الفلسفة ومذهب الأوائل وضلالهم... صنَّف كتابًا في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين، وهذا غلط، وكان مسلمًا موحِّدًا»[3].

ويقول ابن تغري بردي: «كان من كبار الفلاسفة في الإسلام... كان إمامًا في الطب والحكمة، كثير الردِّ على أرباب فَنِّه»[4].

ويصفه ابن العماد الحنبلي فيقول: «الفيلسوف صاحب التصانيف كان رأسًا في الطب»[5].

وينقل عنه المقريزي المؤرخ فيما سوى الفلسفة والطب، فينقل عنه في شأن هندسة الأهرام المصرية، وفي طبيعة أهل مصر، وفي جغرافية مصر وتاريخها أيضًا، وغير ذلك[6].

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٤٠٧.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٠/ ٣٤٥.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٠٥.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة ٥/ ٧٠.
(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣/ ٢٩١.
(٦) انظر على سبيل المثال: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ص١٣٢، ٦٧١، ٧٤٤.

وفي شأن الاشتباك الذي دار بين ابن رضوان وابن بطلان في شأن الأخذ من المعلِّم، نجد ابن أبي أصيبعة يشهد لابن رضوان بالتفوق العلمي فيقول: «وكان ابن بطلان أعذب ألفاظًا، وأكثر ظرفًا، وأميز في الأدب... وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها»[1].

إنجازاته الطبية:

«كان أبو الحسن علي بن رضوان يبذل جهدًا عظيمًا في محاولته لتشخيص العلَّة عند المريض... ونهج منهجًا رائعًا في فحص المريض، يدلُّ على طول باعه في ميدان العلوم الطبية، لقد اندهش أطباء العصر الحديث من الطريقة التي سلكها ابن رضوان في فحصه لجسم العليل؛ حيث إن طريقته التي كان يطبقها لا تختلف كثيرًا عن الفحص الإكلينيكي المتَّبع في هذه الأيام»[2].

وكُتبه في علم الطب لا تحتوي فقط على العلوم والمعارف الطبية، بل زخرت بالجانب التربوي والأخلاقي، ففي أبرز مؤلفاته (النافع في كيفية تعليم صناعة الطب) يتحدَّث عن طريقة تعليم الطب بالنسبة للمتعلِّم، ثم الصفات الواجب توافرها في التلميذ الراغب في دراسة الطب، وعلامات كفاءة الممارس في صناعة الطب[3].

مؤلفاته:

شهد مَنْ ترجموا لحياة أبي الحسن بن رضوان بأنه صاحب المصنَّفات، وبأنه كثير الردِّ على أرباب فَنِّه، إلى جانب ما حفلت به حياته من معارك دارت حول رؤيته بأن تَعَلُّم الطب على الكتب أفضل، وبما كان يَتَّصف به من حدَّة في الردِّ والمناظرة

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢٤٨.

(٢) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) السابق نفسه.

والنقد، غير أنه يُشهد له بالخير والدين، فيقول الصفدي: «وفيه تشنيع في بحثه، إلاَّ أنه كان يرجع إلى خير ودين وتوحيد»[1]. ويقرِّر الذهبي ذلك فيقول: «وكان مسلمًا وموحِّدًا»[2]. ولعلَّ هذا ما عناه ابن تغري بردي بقوله: «وكان فيه سعة خُلق عند بحثه»[3].

فكان من الطبيعي لرجل تَعَلَّم على الكتب وحدها، وعاش حياة حافلة بالردود أن يحفل تراثه بالمؤلفات والتصانيف، حتى قاربت المائة مُؤَلَّف، واسْتَغْرَقَتْ من ابن أبي أصيبعة سبع صفحات في سردها[4]، إلاَّ أن أغلبها مفقود للأسف[5]. وأهم كتبه قاطبة كتابه (النافع في كيفية تعلم صناعة الطب). ومن مؤلفاته:

- شرح كتاب العرق لجالينوس.
- شرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس.
- شرح كتاب النبض الصغير لجالينوس.
- شرح كتاب جالينوس إلى أغلوقن في التأني لشفاء الأمراض.
- شرح كتاب الأسطقسات لجالينوس.
- شرح بعض كتاب المزاج لجالينوس.
- كتاب الأصول في الطب.
- رسالة في علاج الجذام.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٧٥.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٠٥.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٧٠.
(٤) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٤١٣ - ٤٢٠.
(٥) على عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٢٩.

- كتاب تتبع مسائل حنين.
- تفسير ناموس الطب لأبقراط.
- تفسير وصية أبقراط المعروفة بترتيب الطب.
- كلام في الأدوية المسهلة.
- كتاب في عمل الأشربة والمعاجين.

وغير هذا من مؤلفات في الطب، ومؤلفات أخرى كثيرة في الفلسفة وغيرها.

ويُعَدُّ ابن رضوان نموذجًا إنسانيًّا فريدًا؛ ففي سيرته التي كتبها عن نفسه، ثم في وصاياه التي أوردها في بعض كتبه نلمس جانب الإنسان القنوع المجتهد المنظَّم، الذي لم ينسَ العبادة والتأمُّل في ملكوت الله، ومحاسبة نفسه على أعمالها، والاهتمام بتغذية جسمه بالغذاء والرياضة، وفعل الخير، وترتيب الوقت بين مصالحه ومصالح أهله ومنافع بيته.

يقول عن نفسه (باختصار): «أتصرَّف في كل يوم في صناعتي بمقدار ما يُغني، ومن الرياضة التي تحفظ صحة البدن، وأغتذي بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة، وأجتهد في التواضع والمداراة وغياث الملهوف، وأنفق على صحة بدني، وعمارة منزلي نفقة لا تبلغ التبذير، ولا تنحط إلى التقتير، وأتفقد آلات منزلي فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته، وأُعِدُّ في منزلي ما يحتاج إليه من الطعام والشراب والثياب، فما فضل بعد ذلك له أنفقته في وجوه الخير، وأُنَظِّف وأُزَيِّن ثيابي، وأَلْزَم الصمت وكفّ اللسان عن معايب الناس، وأجتهد أن لا أتكلم إلاَّ بما ينبغي، وأتوقَّى الأيمان ومثالب الآراء، فأحذر العُجْب وحُبَّ الغلبة، وإن دهمني أمر فادح أسلمتُ فيه إلى الله تعالى، وقابلته بما يوجبه التعقُّل من غير جبن ولا تهوُّر، وما بقي من يومي بعد فراغي من رياضتي صرته في عبادة الله سبحانه بأن أتنزه

بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وتمجيد محكمها»[1].

وهكذا كان العلم يتعانق مع الإيمان في الحضارة العربية والإسلامية؛ فنتعلَّم من الطبيب الطبَّ والحكمةَ، والنظام، والتخطيط، والقناعة؛ لأن حضارتنا تصوغ الإنسان بدءًا من روحه وإنسانيته ذاتها.

* * *

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ٤٠٣ وما بعدها.

خاتمـــــة

في الختام.. نقول للعالم أجمع: هكذا كانت قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية مفخرة للإنسانية، ومنارة للبشرية.. وذلك يوم أن بزغ المسلمون في كل أنواع المعرفة، ينهَلُون منها ويغترفون، لا يُعيقهم عائق، ولا يقف في طريقهم حاجز؛ فمن مبادئ الإسلام انْطَلَقُوا، وبتشجيع ذوي السلطان وأُولي الأمر تثبَّتوا، ليورثوا أُمَّتهم حضارة ضَمَّت بين جنباتها كل دِينٍ، وكل جنس، وكل لون، وأبت على الأعداء، وقادت الإنسانية إلى الهداية والخير والرشاد، وكانت سببًا مباشرًا في بناء الأمم والحضارات اللاحقة!

وفي بحثنا هذا لا ندَّعي أننا قد حصرنا ما قام به المسلمون من إسهامات في مجال العلوم الطبية، ولكننا فتحنا الباب أمام عموم الناس مسلمين كانوا أو غير مسلمين؛ ليدرسوا الحضارة الإسلامية جيدًا، ويكتشفوا بأنفسهم عظمتها ورقيَّها وإنسانيتها والكنوز الهائلة فيها.

كما أدعو المسلمين خاصة إلى قراءة تاريخهم قراءة واعية، بل ويُعَلِّمونه لأولادهم ومجتمعهم؛ ليدركوا أننا لسنا لقطاء بلا ماضٍ، بل نحن أصحاب ماضٍ عريق؛ يعترف القاصي والداني بفضله عليهم، فها هي زيغريد هونكه[1] تقول عن فضل الحضارة الإسلامية في تَقَدُّم الغرب: «لقد طوَّر العرب بتجاربهم وأبحاثهم العملية ما أخذوه من مادَّة خام عن الإغريق، وشكَّلوه تشكيلاً جديدًا، فالعرب - في الواقع - هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحقِّ القائم على التجربة... إن العرب لم يُنقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال، ونظَّموها ورتَّبوها، ثم أهدوها

(١) مستشرقة ألمانية.

إلى الغرب فحسب؛ إنهم مؤسِّسُو الطرق التجريبية في الكيمياء، والطبيعة، والحساب، والجبر، والجيولوجيا، وحساب المثلثات، وعلم الاجتماع، بالإضافة إلى عدد لا يُحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم، والتي سُرق أغلبها ونُسب لآخرين، قدَّم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح، التي مَهَّدَت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلُّطه عليها اليوم»[1].

وأقول لغير المسلمين اقرأوا تاريخنا قراءة متجرِّدة مُخْلِصة، فليس من العدل ولا من الإنصاف أن نُهْمِلَ ما كتبه أبناء الإسلام المخلصون، ونعتمد على غيره ممن افترى الأباطيل والأكاذيب! وليس من العدل ولا من الإنصاف كذلك أن تعرفوه من كتابات من يكرهوننا! فلا ريب أن تاريخ الإسلام قد زُوِّرَ بعناية، وشُوِّهَ عن عَمْدٍ وقَصْدٍ؛ فقد عَمِل كثير من المستشرقين وأصحاب المصالح وغيرهم على محو ذاكرة الأُمَّة، وعلى طمس معالم الحضارة الإسلامية؛ فهذا يُزوِّر، وذاك يُشوِّه، وهؤلاء يتجاهلون الصحيح ويُقْبِلُونَ على الضعيف، وأولئك يُبْرِزُون الزلاَّت ويتغافلون عن الفضائل والحقائق.. لقد فعلوا ذلك بخُطَّةٍ مُنَظَّمَة، وبتدبير محكَم؛ حتى خرج لنا التاريخ الإسلامي مسخًا مشوَّهًا، ليست له علاقة - مُطلقًا - بحال الحقيقة.

فليت كل باحث عن الحقيقة في العالم، وكل راغب في الوصول إلى خير الأرض وصلاحها، أن يَدْرُسَ الإسلام وتاريخه من مصادره الأصيلة، ومنابعه الصافية.

إن خيرًا كثيرًا سيضيع، وثروة هائلة ستُبَدَّد، لو أهمل الناس دراسة الحضارة الإسلامية وأوجه العظمة فيها؛ فحلقة (الإسلام) ليست حلقة عابرة في سلسلة الحضارة الإنسانية الطويلة، وإنما هي حلقة لها أثرها العميق؛ تلك التي حافظت على

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٠١، ٤٠٢.

خير وصالح السابقين، وأَرْبَت عليه بتحسينه وتجميله وتأصيله.

وسنسعى إن شاء الله قريبًا لنتواصل مع القرَّاء في وجه آخر من وجوه الحضارة الإسلامية، وما أكثرها! وكُلِّي أمل بعد ذلك ورجاء أن يعود المسلمون إلى رشدهم وسالف عهدهم ومجدهم؛ فيأخذوا بأسباب الحضارة الإسلامية المجيدة، والتي لا مثيل لها في الحضارات السابقة أو اللاحقة، القديمة والمعاصرة؛ لتعود لهم الريادة والمكانة السامية بين الحضارات، فيُكملوا مسيرة الإنسانية التي تتخبَّط في ظلمات التيه الآن، ويُشبعوا حاجات التطلع الإنساني إلى الكمال.

والله أسأل أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *



المراجع والمصادر

المراجع والمصادر[1]

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: كتب السنن والآثار:

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي البستي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيباني: **المسند**، مؤسسة قرطبة – القاهرة.
- ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني: **سنن ابن ماجه**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: **الأدب المفرد**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

(١) المصادر مرتبة ترتيبًا أبجديًا مع تجاهل (ال).

- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي: **الجامع الصحيح**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري: **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥هـ.
- مالك بن أنس بن عامر الأصبحي: **الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية – بيروت.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن: **المجتبى من السنن**، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

ثالثًا: كتب التخريج وشروح السنة:

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: **غريب الحديث**، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: **غريب الحديث**، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة العاني – بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.

- الألباني، محمد ناصر الدين: **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته**، المكتب الإسلامي.
- السيوطي وآخرون: **شرح سنن ابن ماجه**، قديمي كتب خانة – كراتشي.
- المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم أبو العلا: **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، دار الكتب العلمية – بيروت.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف بن علي: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

رابعًا: كتب الفقه والمعاملات:

- ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي: **المغني**، طبع إدارة المنار، لأصحابها ورثة السيد/ محمد رشيد رضا، الطبعة الثالثة، ١٣٦٧هـ.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: **تحفة المودود بأحكام المولود**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان – دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب: **أدب الدنيا والدين**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٧٨م.
- نظام الدين البلخي وآخرون: **الفتاوى الهندية**، دار الفكر - بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- وهبة الزحيلي: **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر - دمشق ، الطبعة الرابعة.

خامسًا: كتب السيرة والتاريخ والتراجم:

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار الفكر - بيروت.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار بن كثير - دمشق، ١٤٠٦هـ.
- ابن الكندي: **فضائل مصر المحروسة**، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٩٧م.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق: **الفهرست**، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، دار صادر - بيروت.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني: **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي: **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مطبعة دار الشعب.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيي: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٤٠٦هـ.
- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر: **طبقات الشافعية**، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن كثير، الحافظ أبى الفداء إسماعيل: **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري: **السيرة النبوية**، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية – القاهرة.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- أحمد عيسى بك: **معجم الأطباء**، الطبعة الثانية، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ١٤٠٢هـ.
- إدوارد فينديك: **اكتفاء القنوع بما هو مطبوع**، تصحيح محمد الببلاوي، دار صادر – بيروت.
- إلياس سركيس: **معجم المطبوعات العربية**، عالم الكتب – بيروت، ٢٠٠٠م
- الباباني، إسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة باستانبول، ١٩٥١م، وأعادت طبعه بالأوفست دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
- جواد علي: **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار الساقي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٢م.

- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ): **سير أعلام النبلاء**، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- الزركلي، خير الدين: **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) ١٩٨٠م.
- السموأل بن يحيى: **إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي**، تحقيق ودراسة محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل - بيروت.
- الشهرزوري: **تاريخ الحكماء أو نزهة الأرواح وروضة الأفراح** ، تحقيق عبدالكريم أبوشويرب، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، الطبعة الأولى – ١٩٨٨م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تحقيق أوتغريد فايترت، المعهد الألماني، ١٩٩٧م.
- طاش كبرى زاده: **مفتاح السعادة**، طبعة مكتبة لبنان ناشرون - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- عبد الواحد المراكشي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى – بيروت، ١٩٩٨م.
- القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف الشيباني: **تاريخ الحكماء** (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، تصحيح محمد أمين الخانجي، دار السعادة – القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- القنوجي، صديق بن حسن: **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.

- كحالة، عمر رضا: **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- محمد لطفي جمعة: **تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب**، دار الكتب العلمية.
- المقري التلمساني، أحمد بن محمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٦٨م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد وجمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث، ١٩٩٦م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، القاهرة ١٢٧١هـ.

سادسًا: كتب اللغة والمعاجم:

- إبراهيم مصطفى وآخرون: **المعجم الوسيط**، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة – مصر.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري: **لسان العرب**، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله: **معجم البلدان**، دار الفكر – بيروت.
- الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن بن عمرو الفراهيدي: **معجم العين**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الزَّبيدي، أبو الفيض محمّد عبد الرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار ابن حزم - بيروت.

سابعًا: كتب علمية:

- ابن البيطار، أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى – بيروت.
- ابن البيطار، أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي: **الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام**، (مخطوط بمكتبة الحرم المكي، رقم ٣٦/ ١ طب ـ ف١٥).

- ابن سينا: **القانون في الطب**، تحقيق محمد الضناوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٩م.
- أبو بكر الدينوري: **المجالسة وجواهر العلم**، دار ابن حزم، الطبعة الأولى – بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- أحمد بن عمر السمرقندي: **جهار مقالة**، ترجمة عبد الوهاب عزام، ويحيى الخشاب، لجنة التأليف والنشر – القاهرة، ١٩٤٩م.
- أحمد علي الملاّ: **أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية**، دار الفكر المعاصر - دمشق ١٩٨٦م.
- أحمد فؤاد باشا: **التراث العلمي الإسلامي زاد للآتي**، دار الفكر العربي - القاهرة ٢٠٠٢م.
- أحمد فؤاد باشا: **التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة**، مطابع دار المعارف - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- أكرم عبد الوهاب: **١٠٠ عالم غيروا وجه العالم**، دار الطلائع للنشر والتوزيع - القاهرة، ٢٠٠٠م.
- بازيار العزيز بالله: **البيزرة**، تحقيق محمد كرد علي، دار صادر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية – بيروت، ١٩٩٥م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- جلال مظهر: **حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي**، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٧٤م.
- جيوم: **الفلسفة وعلم الكلام**، دراسة منشورة في كتاب تراث الإسلام – تصنيف أرنولد.
- الرازي أبو بكر محمد بن زكريا: **منافع الأغذية ودفع مضارها**، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.

- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا: **أخلاق الطبيب**، تحقيق عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة دار التراث، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.
- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا: **الحاوي في الطب**، اعتنى به هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- زغلول النجار: **الإعجاز العلمي في السنة النبوية**، دار نهضة مصر - القاهرة، ٢٠٠٦م.
- سيد رضوان: **العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية**، دار المريخ للطباعة النشر - الرياض، ١٩٨٨م
- شوقي أبو خليل: **دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية**، دار الفكر - دمشق ١٩٩٦م.
- شوقي أبو خليل: **الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة**، دار الفكر - دمشق - سوريا.
- شوقي أبو خليل: **علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية**، دار الفكر - دمشق - سوريا.
- عامر النجار: **في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية**، دار المعارف - مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.
- عبد السلام محمد النويهي: **علم النبات عند العرب**، ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية.
- عبد المنعم صفو: **تعليم الطب عند العرب**، أبحاث الندوة العلمية للجمعية السورية لتاريخ العلوم، دار الجامعة - حلب، ١٩٨٠م.
- علي بن عبد الله الدفاع: **رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- علي عبد الله الدفاع: **إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان**، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- عمر فروخ وآخرون: **تاريخ العلوم عند العرب**، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٩٠م.
- الغطريف بن قدامة الغساني: **ضواري الطير**، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية – فرانكفورت، ١٩٨٤م.
- فرات فائق خطاب: **الكحالة عند العرب**، منشورات وزارة الإعلام – العراق، ١٩٧٥م.
- قدري حافظ طوقان: **علماء العرب وما أعطوه للحضارة**، دار الكتاب العربي.
- القزويني، زكريا محمود: **عجائب المخلوقات**، تحقيق علي صراط الحق، طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- قصي الحسين: **من معالم الحضارة العربية الإسلامية**، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- كمال السامرائي: **الأمراض النسائية في الطب العربي القديم**، مجلة المهن الطبية، ١٩٦٤م.
- محمد الصادق عفيفي: **تطور الفكر العلمي عند المسلمين**، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٧م.
- محمد أمين فرشوخ: **موسوعة عباقرة الإسلام**، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى - بيروت، ١٩٩٥م.
- محمد علي عثمان: **مسلمون علموا العالم**، مكتبة معروف - القاهرة.
- محمد عمارة: **الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء**، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
- محمد كامل حسين: **الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ليبيا.
- محمود الحاج قاسم: **الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات**، الدار السعودية للنشر - جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- مصطفى السباعي: **من روائع حضارتنا**، دار الوراق، ودار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- مصطفى لبيب عبد الغني: **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب**، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٠م.
- مصطفى وهبة، **نوابغ المسلمين**، مكتبة جزيرة الورد.
- الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الرقمي الإلكتروني - السعودية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

ثامنًا: كتب أجنبية:

- ألدو ميلي: **العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي**، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دار القلم – القاهرة، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
- جوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠م.
- دومينيك سورديل: **الإسلام، قراءة غربية معاصرة**، ترجمة سليم قندلفت، دار حوران، دمشق – سوريا، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.
- دونالد ر. هيل: **العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية - لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية**، ترجمة أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٤م.
- زيغريد هونكة: **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة: فروق بيضون وكمال دسوقي، دار صادر - بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- سيديو: **تاريخ العرب العام**، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية- القاهرة، ١٩٦٩م.
- فيليب حتى وآخرون: **تاريخ العرب**، دار غندور، بيروت، الطبعة التاسعة ١٩٩٤م.
- لنسر: **العلوم الطبيعية والطب**، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام، إشراف شاخت وبوزورث – القسم الثالث.
- ماكس ميرهوف: **تراث الإسلام**، ترجمة: جورجيس فتح الله.

- مونتجمري وات: **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- هوارد ر . تيرنر: **العلوم عند المسلمين**، ترجمة فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ٢٠٠١م.

تاسعًا: مجلات ودوريات:

مجلة التراث العربي، العدد ٨٩ ، مارس ٢٠٠٣م.

مجلة التراث العربي، العدد الثلاثون، يناير ١٩٨٤م

مجلة التراث العربي، عدد ٢٧ فبراير ٢٠٠٢م.

مجلة الطب الأمريكية، العدد الأول، سنة ١٩٧١م.

مجلة بريد اليونسكو، عدد تشرين الأول، عام ١٩٨٠م.

مجلة جامعة الموصل، العدد (١٥)، السنة الثانية.

مجلة حراء، العدد ٩ (أكتوبر – ديسمبر) ٢٠٠٧م.

عاشرًا: روابط من شبكة الإنترنت:

http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=660&select_page=18
http://www.alargam.com/general/arabsince/5.htm
http://www.arabcin.net/areen1/27/sci_heritg.htm
http://www.bab.com/articles/full_article.cfm?id=7173
http://www.islamset.com/arabic/asc/index.htmlhttp://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb29530-27877&search=books
www.islamset.com



فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊

دار العدنان للطباعة
ت : ٢٧١٩٠١٥٣